تطوّر الفكر واللغة في المغرب الحديث

عبد العزيز بن عبد الله
مدير المعهد العالمي للتنسيق العربي
بالجامعة العربية

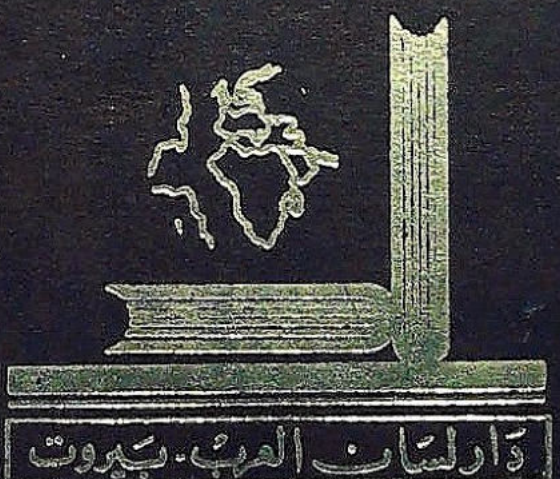

دار لسان العرب - بيروت

هدية إلى مولد سيدنا محمد
١١/ ربيع ١٦ - ١٥ - ٩٩
عبد الكريم

تطوّر الفكر واللغة
في
المغرب الحديث

جميع الحقوق محفوظة
لمنشورات يوسف خياط
دار لسان العرب

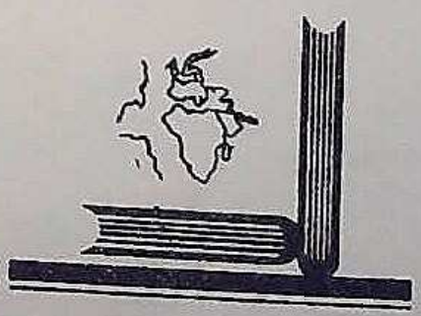

دار لسان العرب :
لبنان - فرن الشباك - ص.ب ٥٠٠٣٢
هاتف : ٢٨٧٣٦٤ - ٢٨٠٩٧١

تطور الفكر واللغة في المغرب الحديث

عبد العزيز بن عبد الله
رئيس المكتب الدائم لتنسيق التعريب
بالوطن العربي
الرباط

بسم الله الرحمن الرحيم
مقدمة الدار

- يوسف خياط -

منحىً قَوِم في دراسة موضوع هام.

غنيٌّ عن التبيين، مُستغنٍ عن التعريف، المؤلف الأستاذ عبد العزيز بنعبدالله، عَلَم من أعلامِ الفكر اللغوي، وفقيه من فقهاء اللغة، لا لأنه رئيس المكتب الدائم لتنسيق التعريب بالرباط. فهو يشغل هذا المنصب الذي هو في الواقع مهمة إنجاز، أكثر منه ادارةً وإشرافاً، فللكاتب عددٌ من التآليف المعجمية والفكرية التي تدور في فلك اللغة وتطورها، وفي المصطلح ونشأته ووقوعه في مواضعه من سائر العلوم والفنون والأشياء.

أما اللغة فهي اللسان.. وبقدْر ما يكون اللسان قويماً تكون مضامينهُ واضحةً. ومراميه جلية.

. واللغة كانت الطفل الفطن الذي ينمو ولا يهرم، تزيدها الأيامُ شباباً ونضوجاً، وتزيدها الاستعمالات حيوية، والتجاربُ حياةً.

وأعني بها اللغة العربية، لا سواها، فبعض لغات الشعوب. تضيع معالمها مع الزمن، وتتآكل مع القِدم، أو تنقرض مع العصور، فكأنها بدن بشري. يتراجع عافية وفتاءً، ويتردّى تعاملاً ونماءً، وليس عقلاً ذكياً يظل ينضج ويُعطي حتى يَقضي.

★ ★ ★

اللغة كائن متطور. يعطيها التطور حياةً، فلا تشيخ ولا تفنى. ويعطيها النضوج طاقة على الانجاب، ولأقلْ.. على التوالد. وليس معنى التوالد هنا من صناعة الدّخيل في الكلام، بل من التناسل.. من الأصل الواحد للمولود، وهو الاشتقاق وما شابهه من طرائق إنماء اللغة، ضمن القواعد والأقيسة المُتعارفة.

واللغة كائن حسّاس، مرهف، يتأثر، ينفعل.. تؤثر فيه البيئة والمحيط. والإنتقال، والتعامل، والناس الطارئون، وما يعايشه من أمور وحالات، وما يكون به، من أماكن ومحلاّت.. وما يواجهه من حروب ومهاجَرَةٍ وتخالط.

اللغة هي التي تتأثر، فتأخذ.. وتعطي فتزداد، ويُؤخذ منها فلا تنقص.. وإنما الحذر في الأمر، بأن تأخذ من سواها، وليس في أن تعطي سواها، فهي كالجسم البيولوجي، المعرَّض، لأخطار ما يدخله، وليس مما يخرج عنه.

وكلَّ أخذٍ تُقدِم عليه اللغة يجب أن يكونَ بقانون، وليس اعتباطاً، أو بالفَرْض والإرغام، ولا حتى بالمُطاوعة واحتمال القبول.

★ ★ ★

كل هذا، مما عالجه المؤلف في كتابه، وفي غير ذلك، كان يلقي الأضواء على التاريخ.. المتغاير بالتحديد، وما ينتج عن التطور البشري، والتمدُّد الانتشاري للأقوام، من حاجات وفكر وما لذلك التوسع والاحتكاك بين الأقوام، والتخالط بين الأمم، غالبها ومغلوبها، من إفرازات ومُعطَيات، يوجب حالات تعبير لغوي، اضطراري أحياناً، ويفرضُ وجوداً جديداً، على مفردات اللغة، فإما ترفضها، أو تأخذ بها، بوعي أو بفوضى وانسياق.

فالمصطلح قوة حاكمة.. والناسُ مرغمون على التداول بالأشياء التي يكتسبونها أو يجدون أنفسهم محاطين بها.

وهذا بعض مما جاء في هذا الكتاب، الذي نرى فيه تطور اللغة، أمام الطارىء الغريب والوافِد الجديد، من كلام، يتطلب صيغا جديدة له في صلب اللغة العربية.

★ ★ ★

إن هذا الوافد الطارىء، على اللغة العربية، الذي حملته إليها الانتقالات عبر العصور، وفوق مختلف الظهور من الأرض، لم يجعلها مزيجاً مختلطاً، ولم يؤثر في كينونتها، أو يعدل ويحوِّر في قوانينها. وإنما هو موجة في إثر موجة، إما أن تستوعبه وتُحَيِّدَه أو تقضي كسواها من اللغات، التي أنهكها الدخيل، أو انقرضت مع التعديل، أو بذهابِ أهلها.

ولقد بدا أن الدخيل إلى اللغة العربية، بالرغم من دخوله غير المأذونِ إلى حرمها، على كثرته، لم يمس جوهرها، أو يُغيِّر في

معدنها، فإنه بالتالي، أثقلها بالغريب، وبالمستَهْجَن أحيانا، وكان لا بد له من ضابط ينظمه. يقبله أو يرفضه، يعتمده أو يطرحه.

فهذا الوافد هو رافد للغة في طبيعته، واللغة قد تستوعبه في خصائصها الذاتية، إلا أنَّ سرعة تناول الناس له ـ وهو شكل من أشكال الضغط غير المقصود على اللغة ـ هو الذي يشكل الخطورة القصوى، والتي تواجهها اليومَ اللغة العربية.

وإذا كان كل ذلك نتاج تطور الفكر والصناعة والتكنولوجيا والاحتياجات البشرية فإنه كان انعكاساً موضوعياً على اللغة، لا مردَّ له عنها، من غير أن يكون فاعلاً في قواعدها وقوانينها.. بل إن قواعدية اللغة العربية، تحرَّكت كرد فعل، فاستقبلت هذا الجديد، بأن كيَّفَتْ بعضَه وفق أقيستها وقواعدها، وما تزال تعمل لتكييف سائِره كذلك.

ونجد أن تطور اللغة، كان في استيعاب الدَّخيل، والوافد، وليس في كينونتها وجوهرها الثابت. فهي لم تطور الفكر، ولم تخلقه، وما همها ذلك، وما هو مهمتها، بل إن الفكر المخلوق، هو الذي يطلب منها أن تستوعبه وتضمَّه إلى مضامينها ومعانيها، وما كانت العربية في ذلك مقصِّرةً.

والتطور هو حركة الناس، التي لا تتوقف، كالقلب في البدن، أو كالمعدة فيه، يطرح أمام اللغة ـ كلِّ لغةٍ ـ مشكلةَ التعبير عن الجديد المخلوق الذي صار فكان، ولم يكن من قبل موجوداً.

★ ★ ★

أما كتاب ـ تطور الفكر واللغة في المغرب الحديث ـ فيكاد يكون تاريخاً مُحتسَباً في الإيجاز، للمغرب العربي، وللأندلس، سياسياً واجتماعياً وحضارياً ومدنياً وصناعياً، بل ولأقل حكومياً. فهو جولة في كلّ ذلك.. من مراكز اللغة، وما بدالها، من عامِّية الألفاظ، وغريبها، وما قذفته إليها حاجاتُ الزمن والأجيال، من مفردات، إما بها تَغتني، أو بها تشقى. ولا تبعد اللغة أن تكون، في بعض تطورها، كلاماً يحمل أشياء عن التاريخ، أو مُستَنْتَجاً عنه، مُسْتَشَفّاً منه. فهي في ذاتها حضارة.

هذا ما أردت قوله، من غير أن أقصد تحميل هذا الكتاب، كل مضامين هذه المقدمة التي كتبتها باسم الدار.. والتي أريد أن أقول فيها عن هذا الكتاب إنه منحى قويم في دراسة موضوع هام، هو من طروحات الآنَ، في صراع الأمة العربية مع أعدائها، واللغة ليست شاهِداً محايداً على ما يجري، بل هي وسيلة التعبير، ليس عن أماني الأمة فحسب، بل وعن قضاياها المصيرية الكبرى.

مقدمة المؤلف

إن المغرب الحديث يمكن أن يندرج فيما يسميه المؤرخون اليوم بالحقبتين الحديثة (Temps Modernes) والمعاصرة (Epoque contemporaine) وهما تتأرجحان بين منتصف القرن الخامس عشر (التاسع الهجري)، والعصر الحاضر. ومنتصف القرن الخامس عشر أي هو تاريخ استيلاء العثمانيين على اسطمبول أو الآستانة عام ١٤٥٣ م وهو نهاية العصور الوسطى التي تبتديء عام ٣٩٥ م أي قبل ظهور الإسلام بأزيد من قرنين. هذا بينما يمتد العصر الحديث إلى الثورة الفرنسية (١٧٨٩ م) أو بداية الاحتلال الفرنسي لأفريقيا الشمالية ومن هنا ينطلق الوقت الحاضر. وتنطبق هذه الفترة بالمغرب على عصر السعديين والعلويين الذي نصفه بالعصر العربي استناداً إلى محتد ملوك هاتين الدولتين، بينما نطلق العصر البربري على عهد أمراء المرابطين والموحدين وبني مرين وبني وطاس، المنتمين الى قبائل صنهاجة ومصمودة وزناتة من البربر، فتأريخنا لتطور الفكر واللغة في المغرب الحديث يواكب انبثاق العصر العربي، وهو العصر الذي بدأ فيه الزحف الصليبي على سواحل المغرب الأقصى، إثر سقوط الأندلس وانتشار العثمانيين في الشرق والمغربين الأدنى والأوسط (أي تونس والجزائر)، وهذه الفترة هي التي سنركز حولها دراستنا.

نرى أن معالجة هذا الموضوع البكر الشائك بالنسبة للمغرب الأقصى، بعد جرأة من رجل مزجي البضاعة في تاريخ الحضارات ولكنها محاولة ينصب

عليها ما ينصب على المحاولات والبادرات من لوازم الاستهداف التي تبررها الرغبة الصادقة في الكشف عن جوانب غامضة من مقوماتنا الحضارية، وقبل التعريج على الموضوع في صلبه المحدد أستشف مجالي عريقة من أصول التراث الفكري في هذا الجزء النائي من الوطن العربي وإن كان ذلك يستلزم منا نوعاً من الإفاضة لتحديد الإطار الجغرافي والسياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي لا بالنسبة للعصر الذي هو موضوع بحثنا فحسب بل حتى للعصور التي تعتبر المنبثق الأول لتاريخ الفكر ببلادنا والمنطلق الأصيل للمقوم الحضاري الجوهري وهو اللغة إذ أن نظرتنا إلى تسلسل هذا التطور لن تتم ما لم نستكمل كل المعطيات والمستلزمات التي تبلورت بمقتضاها في مطلع العصور الحديثة: العناصر الأساسية التي ستكيف سلسلة الانتفاضات طوال أربعة قرون.

اللغة كائن حي ينشأ ويترعرع ويهرم فإذا لم نرع مراحل تطوره بدقة من المهد إلى العنفوان، فإن عناصر الحكم والتقدير ستظل قاصرة مشلولة، وقد أصبح من المسلم به اليوم أن لسيكولوجية الدلالة أثراً نفسياً وفكرياً في تكون اللغة، فالكلمة انعكاس صوتي لخلجة باطنية تعزز بثراء الفكر الذي يصبغها صبغة خاصة طبقاً لمقتضيات فيزيولوجية.

★ ★ ★

كل لغة وليدة لتطور تاريخي [1] تدخل فيه مؤثرات عديدة ومختلفة، وهي ظاهرة تتطور مع المجتمع وتخضع لعوامل اجتماعية كحضارة الأمة وعاداتها وتقاليدها وضروب الثقافة والاتجاهات الفكرية التي طبعتها، وتنفعل لمؤثرات خارجية كاحتكاك الشعوب بعضها ببعض عن طريق السياحة التجارية أو السيطرة السياسية فتظهر مفردات جديدة وتموت أخرى شائعة وقد يؤثر ذلك أعمق الأثر في العنصر الأكثر حيوية في اللغة، وهو اللهجة العامية التي تنعكس عليها صور شتى لهذا التطور.

---

(١) ما بيه ترجمة محمد مندور، «منهج البحث في الأدب واللغة» (ص ٩١).

ولقد تلمسنا في مظاهر الحضارة المغربية، لوازم الارتباط الوثيق مع اللغة التي تزدهر محتوياتها بتشعب مرافق الحياة وتوافر حاجات العصر، وللإيحاءات السياسية المستطرفة والضغوط الاجتماعية، وما تنطبع به البيئة من ألوان تنطفىء وتشرق وتفخم وترق تبعاً لتلونات المجتمع الدينية والخلقية والنفسانية، إذ ليست التعابير في تدرجها وتبلورها سوى قالب لإبراز أدق الخلجات وأرق النبرات وأشرق الألحان وأعمق الأشجان مما ينعكس على النفس والروح.

وإذا كانت اللغة البونية الكنعانية قد مهدت السبيل للفتح الإسلامي، منذ بداية العصور الوسطى، فإن لغة الفاتح العربي ما لبثت أن تغلغلت تلقائياً في سويداء الجماهير البربرية معززة بدعوة الخوارج، ثم الأدراسة ثم الفاطميين والأمويين الغربيين، قبل أن تنصهر إبان الحكم البربري في بوتقة واحدة مع الحضارة الأندلسية خلال ثلاثة قرون، تجمع فيها أروع ما عرفه الفكر الإسلامي في العلم والفن والثقافة مما تمخض عنه عصر النهضة والانبعاث في أوروبا، وهنا اكتمل بالمغرب تراث حضاري خاص، ليس بالشرقي المحض ولا بالغربي الصرف، وإنما هو مزيج حي مخضرم، فيه العنصر البوني والبربري والقوطي، ولكنه إسلامي الروح عربي النفحة، لم تزده الزحوف الصليبية المتجددة في العصر الحديث سوى توقان إلى الانصهار في وحدة كبرى لم يألُ الاستعمار الناشىء جهداً لِوصمها بالبربرة والتغريب.

ذلك هو الهيكل الذي سنرى كيف التحمت أسديته في العصر الحديث.

المؤلف

الإطار السياسي والجغرافي لتطور اللغة والفكر

العنصر البربري هو في رأي الكثير من النسابين مزيج من الساميين والحاميين فالبربر أرومتان: برانس وبتر وهؤلاء ساميون كانوا يقطنون الشام، بينما يرى معظم النسابين أن البرانس يمنيون وقد انتقد ابن حزم في جمهرته وابن عبد البر في تمهيده وتبعهما ابن خلدون في تاريخه (ج٦ ص١٠٦ و ج١ ص١٦) حميرية صنهاجة وكتامة ملاحظا إستحالة مرور إفريقش الحميري ملك اليمن من السويس الذي هو في نظره الطريق الوحيد إلى إفريقيا ومن الصعب إثبات ما نفاه ابن خلدون لعدم وجود نص صريح إلا أن مستنده غير مقطوع به لا سيما إذا اعتبرنا احتمال مرور الحميريين عن طريق الضفة الغربية للبحر الأحمر ومنها إلى «التشاد» المجاور للصحراء المغربية خاصة وأن الحسن الوازن المعروف بليون الإفريقي ذكر أن التجار كانوا يمرون من هذه الطريق في القرن العاشر الهجري فرارا من قراصنة الساحل وقد تأكد أن اليمنيين كانوا يعبرون القلزم إلى إفريقيا حيث استثمرو مناجم الذهب في روديسيا حسب آثار منقوشة كشف عنها الدكتور استانلي تيمبور قرب نهر زمبز وقد عثر على نقوش مكتوبة بالحميرية في قرطاجنة وتونس ودكار أضف إلى ذلك تجانس الكثير من العادات في المغرب واليمن.

إلا أن من الصعب التعرف إلى ماهية البربر سلالة ولغة قبل دخول الفينيقيين إلى الشمال الأفريقي في أوائل القرن الثالث عشر قبل الميلاد ـ وكانت حضارتهم قد تركزت قبل في لبنان وسواحل الخليج العربي بالبحرين والقطيف ـ فأسسوا بالمغرب الأقصى حاضرة ليكس liks قرب مدينة العرائس حوالي ١١٠٠ ق.م كما أقاموا مدينة «أوتيك» Utique ثم قرطاجنة (عام ٨١٤ ق.م) ولكن سقوط الحاضرة القرطجنية (عام ١٤٦ ق.م)

المجال للرومان والبزنطيين ـ الذين زحزحهم الفاتح العربي بعد منتصف القرن الهجري الأول ـ حيث أنشأ عقبة بن نافع مدينة القيروان (٥٠ هـ ـ ٦٧٠م) ثم انطلق (عام ٦٢ هـ) في جولة عسكرية خاطفة نحو أقصى الصحراء المغربية حيث تلاه موسى بن نصير (عام ٨٨ هـ) بجيوشه التي هبت بإمرة طارق بن زياد لفتح الأندلس عندما كان صالح بن منصور الحميري يقيم باسم الخليفة الوليد بن عبد الملك مملكة نكور في الريف، وظل المغرب بعيداً عن تيارات الشرق ومراقبة بني أمية، الذين استبد بعض ولاتهم، فامتهنوا البربر وأجبروهم على أداء خمس أموالهم لبيت المال[١]، وأدى السخط العام إلى ثورة البربر بإقليم طنجة (عام ١٢٢ هـ)، بدافع من الخوارج الصفرية والأباضية الذين جاءوا من العراق يحملون مشعل الدعوة إلى مبادئهم في الديموقراطية والمساواة تحت ظل الإسلام، فتأسست دويلات خارجية في المغرب الكبير وخاصة في سجلماسة (عام ١٤٠ هـ) وتامسنا. بينما فرَّ فلول العرب الواردين من ثغور مصر والشام إلى الأندلس. وأما إمارة البرغواطيين فتقع في تامسنا بين سلا وآسفي، وكان مؤسسها هو طريف من قواد الثورة الصفرية الذي ابتدع نحلة جديدة لمحاربة الإسلام.

وكانت الاضطرابات على أشدها في الشرق بين العباسيين والأمويين والعلويين ففر المولى إدريس بعد وقعة «الفخ» قرب المدينة المنورة إلى مصر ومنها إلى المغرب الأقصى (١٧٢ هـ) حيث أسس أول مملكة عربية إسلامية[٢] خشي هارون الرشيد بأسها فدس من اغتال هذا الأمير العلوي الذي اقتبله البربر بحماس تلقائي لم يعهد مثله لفاتح أجنبي وبويع لابنه الناشىء إدريس الأزهر (عام ١٨٨ هـ) فاتسع نفوذه ونقل عاصمته من «وليلى» إلى فاس (١٩٢ هـ). ثم تجزأت المملكة الشاسعة بوفاته (٢١٣ هـ) وانتهز الخوارج

---

(١) «البيان المعرب» لابن عذاري ـ طبعة بيروت ١٩٥٠ ج ١ ص ٥٢.

(٢) يفهم من مصادر عربية ونقود إدريسية أن المولى إدريس الأول كان قد أسس جانباً من مدينة فاس قبل هذا التاريخ («تاريخ المغرب» للمؤلف ج ١ ص ٩٠).

الصفرية هذا التفكك فثاروا ضد الأدارسة الذين نقلوا دولتهم الجديدة إلى الجبل وجعلوا عاصمتها البصرة التي واصلت نفوذها خلال قرنين.

وفي غضون ذلك انقرض الاغالبة، وقام القائد الفاطمي جوهر الصقلي مؤسس القاهرة (عام ٣٤٧ هـ)، باقتحام خاطف لفاس التابعة للناصر الأموي، بينما ظل أمراء البربر يتأرجحون بين الانصياع للأدارسة من ناحية وللعامريين غاصبي مملكة الأمويين بالأندلس من ناحية أخرى.

إنَّ قَرْناً ونصف قرن في خضم من الفوضى والغموض جعلت المغرب أحوج ما يكون إلى زعيم من طراز يوسف بن تاشفين الذي ما لبث أن استكمل توحيد المغرب الأقصى منطلقاً من عاصمته الجديدة مراكش التي أسست (عام ٤٥٤ هـ) لاستئصال البرغواطيين.

وكانت الصليبية قد بدأت تتحرك من الأندلس للايقاع بالإسلام فانبرى القائد المرابطي (٤٧٩ هـ ١٠٨٦ م) أي قبل الحرب الصليبية الأولى بعشر سنوات (١٠٩٦ م) لتحرير إمارات ملوك الطوائف من ضغط الأسبان فأحرز في معركة الزلاقة (عام ١٠٨٦) [٣] ضد ألفونس السادس ملك قشتالة (عام ١٠٦٥ - ١١٠٩) نصراً تردد صداه في الشرق والغرب.

وذاع صيت القائد الظافر الذي لقب منذ ذلك اليوم «بأمير المسلمين» مع استمرار دعوته لدار الخلافة العباسية، تركيزاً للوحدة الكبرى، وتكونت إمبراطورية واسعة ضمت الصحراء والمغارب الأربعة (ليبيا وتونس والجزائر والمغرب) والأندلس تحت الحكم المرابطي ثلاثة أرباع قرن (إلى ٥٣٧ هـ)، ظهر خلالها ملوك طوائف جدد بالأندلس، وزحف صليبي عارم في أفريقية (أي تونس)، وكان المهدي بن تومرت قد بدأ جولته في الشرق منذ أوائل القرن السادس، فانبرى يجدد معالم الدين، ويركز العقيدة السلفية، ويجمع من جديد تحت ظل الإسلام المملكة المرابطية الشاسعة التي بدأت تنهار.

---

(٣) وقعت معركة حطين التي انتصر فيها صلاح الدين الأيوبي على الصليبيين بعد قرن كامل (عام ١١٨٧ م) فكأنها كانت ذكرى مئوية لانتصار الزلاقة.

استطاع عبد المؤمن الموحدي في سنة الأخماس (٥٥٥ هـ) تخليص أفريقيا من الغزو النرمندي وتحصين جبل الفتح (جبل طارق) بالأندلس بفضل أسطوله العتيد الذي أصبح أول أسطول في البحر الأبيض المتوسط. (أندري جوليان - تاريخ أفريقيا العمالية عام ١٩٣١ ص ٤١٢)، فازدهرت بذلك حضارة جديدة أسهمت الأندلس في طبعها بميسم خاص بزعامة يعقوب الملقب بالمنصور منذ ظفره على الصليبية المتكتلة في وقعة الأرك (٥٩١ هـ - ١١٩٥ م)، أي بعد وقعة حطين بنحو عقدين من السنين.

وكَرَّت من جديد الهجمات على الإسلام المتوثب في وقعة العقاب (١٢١٢ م) التي كانت هزيمة شنعاء ضعضعت مقومات الإمبراطورية الموحدية في الغرب، في نفس الوقت الذي بدأ المسيحيون يندحرون في مصر خلال الحرب الصليبية الخامسة (١٢١٩ م) حيث طردوا نهائياً من الأماكن المقدسة بعد معركة غزة (عام ١٢٤٤ م)، واتجه المرينيون فيما بعد يلمون الشمل معيدين للبلاد وحدتها في حدودها الأفريقية، بينما هب ألفونس العاشر لتضييق الخناق على المملكة النصرية (أي دولة بني الأحمر) التي لم تفد من إجازات المرينيين المتوالية للأندلس سوى خضد مؤقت لشوكة المسيحية.

والواقع أن الإمبراطورية المرينية كانت منهارة من أساسها رغم ذيوع صيت أبي الحسن أعظم ملوكها الذي مني بآخر هزيمة في وقعة طريف (٧٤١ هـ ١٣٤٠ م) (Reo De Salado) قطعت الأمل في إنقاذ الأندلس حيث واجهت مملكة غرناطة مصيرها وحدها وكابد أبو عنان المريني الأمرين في حفظ كيان المغرب الذي تقلصت حدوده الجغرافية وتوالت فيه الأزمات باستفحال التطاحن بين أدعياء العرش من المرينيين والوطاسيين والسعديين فشاعت الأوبئة وخربت الأمصار واندرس كثير من معالم الحضارة.

★ ★ ★

وأطل الصليب على ثغور المغرب ضمن انتفاضة استعمارية جديدة كانت رد فعل عنيف للحكم الإسلامي في الأندلس طوال ثمانية قرون، حيث احتل

البرتغاليون سبتة (٨١٨ هـ) وطنجة (٨٦٩ هـ) والقصر الصغير (٨٦٣ هـ) وأصيلا (٨٧٦ هـ).

وفي نفس الوقت أسس البرتغاليون مراكز الهند الاقتصادية بعد أن كانت قد ظهرت في أوربا بوادر للنهضة واستولى المسيحيون على الفردوس المفقود إلا أن بوارق الأمل بدأت تتجلى في الأفق بفضل زحف العثمانيين من الشرق إلى أوربا، وأصبح المغرب نظراً لوضعه الجغرافي موزعاً بين مطامع الأسبان شمالاً والاستعمار الجديد في المحيط الأطلنطيكي غرباً، فأمست سواحله المتوسطية مسرحاً لعراك عنيف بين الهلال والصليب انتهى بسقوط اسطمبول (التي كانت تسمى آنذاك الآستانة) في قبضة العثمانيين (٨٥٨ هـ - ١٤٥٣ م) بينما أضاف العدو ثغوراً جديدة لمكاسبه الترابية بالمغرب فاستولى على أنفا (٨٧٤ هـ) والبريجة Mezagan (٩٠٧ هـ) وأكادير (٩١٠ هـ) والمعمورة (٩٢٠ ص) علاوة على مالقة (٨٩٢ هـ - ١٤٨٧ م) ثم غرناطة (٨٩٧ هـ - ١٤٩٢) بالأندلس.

وانبرى الشعب يذكيه إشعاع روحي فحرر بقيادة السعديين أكادير وآسفي وأزمور (٩٤٨ هـ) كما واصل ضد البرتغاليين صراعاً تبلور في معركة وادي المخازن (٩٨٦ هـ - ١٥٧٨ م) التي تعتبر فصلاً رائعاً من فصول الكفاح بين المسيحية والإسلام تفككت فيه أوصال البرتغال التي فقدت استقلالها طوال ستين سنة، باندماجها في الإطار الأسباني، وقد تعزز بذلك وضع المغرب في المجال الدولي، فخطبت أوربا ود المنصور السعدي لأن هزيمة دولة استعمارية متأصلة كالبرتغال ما كانت لتمر دون أن تثير إعجاب العالم، ومع ذلك فإن المنصور أدرك بحصافته ما ظل يهدد المملكة من خطر قللت من وطأته النزاعات الأوربية بين النمسا وانجلترا وفرنسا وهولندا.

وكان شارل الخامس Charle Quint ملك أسبانيا إمبراطوراً للنمسا وألمانيا حارب ملك فرنسا فرانسوا الأول طوال ثلاثين سنة وكذلك الأتراك وخلفه ولده فيليب الثاني الذي ضم إلى أسبانيا بلاد هولندا ثم البرتغال عام ١٥٨٠ م

بعد معركة وادي المخازن فعاش المغرب (إلى ١٥٩٨ هـ) عشرين سنة من الهدوء النسبي.

حاولت انجلترا عبثاً استغلال ما دره على المغرب غزو السودان، وافتكاك البرتغال لأسراه من النبلاء، فاقترحت عليه الاشتراك في احتلال الهند، ولكن المنصور ظل يخوض في الداخل معركة الترميم التي ما كاد يستكملها حتى عاجلته المنية، فانهار الكيان الذي أخذ يتهلهل بقيام إمارات مستقلة في الشمال والجنوب أهمها دويلات الدلائيين في الأطلس الأوسط. «وبودميعة» بسوس والعياشي ثم تلميذه الخضر غيلان بالشمال.

لم يكن الشعبُ المغربي ليستسيغ هذا التمزيق في وحدته فانبرى العلويون بزعامة الرشيد ثم أخيه إسماعيل لتجديد الالتئام وتحرير الثغور بطرد الأسبان من المهدية (١٠٩٢ هـ - ١٦٨١ م) والعرائش (١١٠١ هـ) والإنجليز من طنجة (١٠٩٥ هـ) وإقامة معالم العمران وتوطيد الأمن وصون الاستقلال والوحدة بجيش عتيد وقلاع حصينة غير أن جنود السودان الذين كانوا قواماً للجيش الفتي منذ عهد السعديين ما لبثوا أن تدخلوا في شؤون الدولة، كالديلم والأتراك والإنكشارية في الشرق، فصاروا يقيمون العروش ويقوضونها طوال ثلاثين سنة، انتهت مع ذلك بفترة ازدهار في عهد الملك العالم محمد بن عبدالله (١١٧١ هـ - ١٢٠٤ هـ) (١٧٥٧ - ١٧٩٠ م) الذي ركز مقومات الحضارة وواصل تحرير الثغور وكون أسطولاً عظيماً، ووطد العلاقة مع الدول الاسلامية والدول الأوربية على السواء، وأمضى معاهدات مع الولايات المتحدة التي كان أول من اعترف بها ومع أمم بروتستانتية كالدول الاسكندنافية تحقيقاً للتوازن مع الدول اللاتينية الاستعمارية ومدافعة للبابوية الناقمة.

وكانت أوربا آنذاك في غمرة من الاضطرابات، زادها تأججاً انبثاق الاستعمار الناشىء والتسابق نحو غزو الشرق الأقصى وتعزيز الصناعة الأوربية بمواده الأولية، بينما كانت الإمبراطورية العثمانية تسير في طريق الأفول تحت

ضربات الأحلاف الاوربية، وخاصة منها الحلف المقدس عام ١٨١٥ - Blocus Continental وهي الحركة التي هدف بها الإمبراطور الفرنسي عام ١٨٠٦ م إلى إقفال جميع الموانىء في وجه انجلترا لتضييق الخناق عليها اقتصادياً.

شعر العرش المغربي بالدور الذي بدات فرنسا تقوم به لاحتلال الشمال الإفريقي، فساند خصوم هذا التيار الاستعماري، في شخص عبد القادربن محيي الدين في كفاحه ضد الجيوش الفرنسية نحواً من خمس عشرة سنة) ١٢٤٦ هـ - ١٨٣٠ إلى ١٢٦٠ هـ - ١٨٤٤ م) إلى أن انهزم المغرب في وقعة «أيسلي» (١٨٤٤)، وقد واكب هذا الزحف الصليبي الجديد من شرق المغرب، زحف آخر من شماله -بزعامة الأسبان الذين احتلوا مدينة تطوان (١٢٧٦ هـ -١٨٦٠ م) نحواً من سنتين انبرى إثرها المغرب يعزز جبهته فأقام صناعة حربية وجيشاً نظامياً.

كما اضطر المغرب إلى إمضاء معاهدات مع الدول الأوربية وخاصة مع انجلترا عام ١٨٥٦ وفرنسا عام ١٨٦٣ م لعرض الحماية الأوربية على الرعايا المغاربة ثم تعزز ذلك بمعاهدة مدريد عام ١٢٩٨ هـ - ١٨٨٠ م التي خولت للسفارات الأجنبية حق منح حماية لموظفي القنصليات والمتاجر الأجنبية وعائلاتهم مما فتح الباب للتدخل الأجنبي في شؤون المغرب الخاصة لا سيما وأن الأجانب أصبحوا يتمتعون بحق الملكية للأرض والعقار في التراب المغربي.

ودافع المغرب المناورات السياسية الجديدة التي اتخذت شكل بعثات علمية، واقتراح إصلاحات داخلية فاندرجت قضية المغرب في خضم دولي، وواصل الحسن الأول هذا الصراع بين الاسلام والمسيحية غير أن بموته (١٣١١ هـ - ١٨٩٤ م) انفتحت ثغرة في كيان المغرب، فانساق ملكه الشاب المولى عبد العزيز ابتداء من ١٩٠٠ م مع التيار الغربي الجامح تحت تأثير شرذمة من السماسرة والمغامرين الدوليين، على غرار ما وقع في مصر في عهد كل من

إسماعيل وتوفيق، وتزايد استياء الشعب وتأزم الوضع وانفسح المجال أمام الثوار والأدعياء، وأمست فرنسا المحتلة للجزائر تقتطع من تراب المغرب الشرقي والصحراء، بعد أن تقاسمت مع إنجلترا وأسبانيا (عام ١٣٢٢ هـ - ١٩٠٤ م) النفوذ في الجناحين الشرقي والغربي لإفريقيا الشمالية، فاعترف الانجليز لفرنسا بنوع من الحماية على المغرب، مقابل اندراج مصر في منطقة النفوذ البريطاني، وناب أسبانيا حظها من هذا الاقتطاع شمالي المغرب وبدأت القروض المالية تعزز التسرب السياسي، فصرخ المغرب صرخة مدوية في وجه الاستعمار الصليبي الجديد تردد صداها في مؤتمر الجزيرة الخضراء (١٣٢٤ هـ - ١٩٠٦ م) الذي نادى باستقلال السلطان وصون كيان مملكته، مقرراً مع ذلك الباب المفتوح، أي المساواة في الاقتصاد بين الدول «وتدويل» حركة الإصلاح وشعر الشعب المغربي بالدسيسة، فانطلقت مقاومته خائفة محدودة أول الأمر بعد أن تجرأت فرنسا على احتلال وجدة (١٣٢٥ هـ - ١٩٠٧ م)، وعلى قنبلة الدار البيضاء إثر اغتيال رعايا فرنسيين، واتخذ الصراع بين الأمراء الطامعين في العرش، شكل انتفاضة قومية انتهت باعتلاء المولى عبد الحفيظ وعزل أخيه المولى عبد العزيز، وتقررت حماية كل من فرنسا وأسبانيا للمغرب بموافقة الالمان الذين نابهم حظهم في الغنيمة الأفريقية.

* * *

كان العالم الاسلامي بالشرق الأدنى يتجه بخطى حثيثة نحو حياة برلمانية بتأثير من «تركيا الفتاة» و«جمعية الاتحاد والترقي»، وكان لذلك صداه بالمغرب حيث قامت محاولات دستورية كمحاولة السلطان مولاي حفيظ إصدار دستور في نفس السنة التي صدر فيها الدستور العثماني عام ١٩٠٨،

وظل المغرب يموج في هيجانه من الأطلس إلى الصحراء إلى السواحل ضمن الثورة العربية الكبرى ضد الاستعمار الذي شتت دار الخلافة ومزق وحدة

العرب فتأججت حرب الريف بزعامة البطل محمد بن عبد الكريم الخطابي [٤]، وكانت انطلاقتها من جامعة القرويين منبثق التحرير حيث استكمل الزعيم الريفي تكوينه الإسلامي فهزم الأسبان في معركتي أنوال (١٩٢١) واجدير (١٩٢٢) ولكن الصليبية، في الوقت الذي قدر لحركة التحرير التركي في الأناضول أن تنتصر في معركتي «إيس ـ أوني» و«سقاريا»، ظلت يقظة تتربص الدوائر بالاسلام فواصلت الحماية الفرنسية في المغرب زهاء نصف قرن سياسة التمسيح والتغريب والتفقير والتجهيل.

بالرغم عما أقامته الحماية الفرنسية لفائدة جالياتها (التي كادت تبلغ نصف مليون) من مظاهر الرغد والنعيم، وكان هذا المكر المحبوك مثار مقاومة سياسية منظمة تزعمتها «كتلة العمل» أو «الحزب الوطني» التي شكلت الخلايا للتوعية السياسية، وكونت صحافة قومية باللغتين، ووصلت حركة المغرب التحريرية بشبيهاتها في الشام ومصر حيث أسست بالقاهرة «جبهة شمال أفريقيا» وصدر (عام ١٩٤٤) باتفاق مع العرش المغربي ميثاق الاستقلال وانبرى الملك الراحل محمد الخامس وولي عهده آنذاك الحسن الثاني يُعْلِنانها في طنجة عام ١٩٤٧ حرباً شعواء ضد الاستعمار، فما لبثت صرخاتها أن ترددت في أروقة الجامعة العربية وهيئة الأمم المتحدة، فنفي الملك المجاهد مع أسرته الكريمة إلى مدغسكر، فلم يلن القمع قناته، وظل يتزعم الحركة التحريرية إلى أن عاد من منفاه ظافراً يحمل وثيقة الاستقلال الذي أعلن رسمياً في ثاني مارس ـ آذار ـ ١٩٥٦ فاندرج المغرب في عهد جديد يرسم ويخطط لوصل حاضره بماضيه.

* * *

---

(١) استسلم ابن عبد الكريم عام ١٩٢٦ فنفته فرنسا صحبة أسرته إلى جزيرة لاريونيون «La Réunion» حيث قضى إحدى وعشرين سنة تقرر بعدها نقله عام ١٩٤٧ إلى فرنسا فدبر «مكتب المغرب العربي» لدى نزول الزعيم بقناة السويس خطة لاختطافه فاستقر مع عائلته بالقاهرة في ضيافة مصر إلى أن توفي عام ١٣٨٢ هـ (١٩٦٣ م).

ذلك هو الإطار السياسي والجغرافي لتطور الفكر واللغة في المغرب الأقصى منذ ما قبل الاسلام، وطوال ألف عام من الاستقلال تحت ظل الاسلام، وسنرى بحول الله كيف تشكلت في هذا الإطار، أدوار قصة دخول اللغة العربية إلى المغرب تحت مؤثرات مختلفة منها: الحضاري العربي والفارسي والتركي، ومنها الأدبي والعلمي والديني، ومنها خاصة عوامل أندلسية أضفت على ذلك التطور ميزة استثنائية جعلت من المغرب الأقصى بوتقة انصهر فيها تراث «الفردوس المفقود».

قصة دخول العربية إلى المغرب

إن لدخول اللغة العربية قصة طريفة بدأت أدوارها تتشكل منذ أوائل العصور الوسطى، حيث انطلق التأثير الشرقي من جبال لبنان إلى قرطاجنة، ومنها إلى الربوع المحاذية للمحيط الأطلنتيكي، وإذا اعتبرنا أن دخول الحميريين إلى المغرب هو مجرد أسطورة وضربنا صفحاً عن لوازمها القاضية بأن يكون قسم مهم من سكان الأطلس البربري قحطانيين ربما كانوا أعرق في العروبة من سواهم - فإن الوجود القرطجني قد فسح للغة البونية في أرباض تونس، ثم في باقي أقطار المغرب الكبير، آفاقاً شاسعة تبلورت في وحدة مصطلحاتها مع العامية الدارجة في الشمال الإفريقي. ويتجلى ذلك بصورة واضحة من الرخامة[1] التي كشفها الدكتور البرازيلي السيد الأديزلو نيتو، وضمنها الجزء الأول من كتابه الإنطروبولوجية وهي تحمل تاريخ ١٢٥ ق. م. (أي بعد أن استولى الرومان على قرطاجنة بنحو العشرين سنة) حيث توجد عشرات الألفاظ والتراكيب مفرغة في قالب عربي مع تحريف لا يخفى حتى على غير الاختصاصيين في فقه اللغة وعلم الاشتقاق.

ففي الفقرة الأولى جملة حررت بالبونية هي:

«هنا أحنا بني كنعان فرنم حقرة حمل» يمكن أن نقلبها إلى عامية الشمال الإفريقي وخاصة التونسية فنقول:

---

(١) راجع مجلة «تقويم المنصور» للأستاذ توفيق المدني (عام ١٣٤٣ هـ) حيث نشر صورة للرخامة وكذلك بحثاً حول كشف الفينيقيين للبرازيل قبل ٢٧٥٠ سنة من تاريخ كشفها المعروف وكتاباً حول وصول الفنيقيين إلى كولومبيا لأبراهيم هاجر صدر بالأسبانية في بونس آيريس بالأرجنتين (مجلة المعرفة عدد ١٠ - دمشق) وقد أدرجنا في آخر الكتاب صورة لهذه اللوحة.

«هنا أحنا بني كنعان في فرانم حملنا الحقرة» ومعناها بالفصحى:
«هنا نحن بني كنعان من فرانم تحملنا الاحتقار» ففي هذه الفقرة وحدها سبع كلمات لا يوجد فيها أي دخيل وإنما هو إنحراف بسيط عن الفصحى بسبب الاستعمال العامي المتداول على أن البونية قد بدأت تتسرب إلى المغرب الأقصى مواكبة دخول القرطاجنيين الرسمي حوالي ٤٨٠ ق.م. وأكد القديس غسطين (St. Augustin) أنها ظلت متغلغلة في أنحاء البادية المغربية إلى نهاية عهد الوندال أي إلى عهد الفتح الإسلامي في حين اندرست لغة الرومان باندراس معالم الحضارة اللاتينية التي تطورت في نطاق محدود لم يتجاوز مثلثاً تمتد حدوده من طنجة إلى وليلى إلى شالة، عاشت جاليته الرومانية في قفص مقفل بعيدة عن المحيط البربري الذي كان يلفها وقد اعترف بهذه الظاهرة مؤرخون طالما دعوا إلى «غربية» البربر مثل غوتيه مؤلف ـ العصور الغامضة في تاريخ المغرب ـ ولكنهم دهشوا أمام هذا التجاوب العميق الذي مهد المفاوز والأوعار البربرية أمام الفتح الاسلامي بانتشار «لغة قريبة من العربية «إفريقيا الشمالية ـ كوتيه ص١٤٨» خلافاً لما ذكره أبو سالم العياشي في رحلته (ج ١ ص ٥٣) من أنه «لا عربية في المغرب قبل الإسلام اتفاقاً». فكلمة قرطاج نفسها معناها قرية حداش أي القرية الحديثة صحفت إلى قرتاش بتعطيش الجيم، كما نطق بها الرومان وكذلك حنبعل (Hannibal) أصله حنى بعل أي نعمة الله، وكان اسم أبيه هو عاملكار (Hamilcar) أي حامي القرية الذي حارب الرومان في صقلية.

* * *

وقد وصلت إلى المغرب فلول من اليهود انحدرت من فلسطين بعاداتها ولهجاتها، فاندرجت في قبائل بربرية مثل جراوة ونفوسة وفندلاوة ومديونة وبهلولة وغياثة وفازاز[٢]، حيث نقلت بالإضافة إلى الديانة الموسوية اللغة

(٢) الاستقصاء للناصري (ج ١ ص ٣٢ نقلاً عن ابن خلدون) ونلاحظ أن اسم زعيمة جراوة هو الكاهنة.

العبرية التي تعتبر مع الفينيقية العربية وغيرها الفرع الكنعاني للجهات السامية على أن لغة يهود خيبر الذين انتقلوا إثر الهجرة النبوية إلى الشام والعراق وخاصة المغرب الأقصى كانت عربية صرفاً، بذرت الجذور الأولى في الأطلس البربري للغة قريش.

لاحظ ميشو بيلار Michaux Bellaire في محاضراته Conferences (ص ٢٦٩) أن هذه الرواية تؤكد ما يتناقله المؤرخون من أن البربر مشارقة وأوضح بناء على ملاحظاته الشخصية في ربوع الأطلس أوائل هذا القرن أن البربر يعتقدون أن أصلهم من الشرق.

وهكذا فلم يكد يصل الفاتح العربي إلى المغرب حتى وجد أشتات البربر، في كثير من الجهات، وقد تبنت عديداً من الألفاظ والتعابير العربية العريقة، محرفة بالاستعمال العامي، ومن الصعب أن تحدد ماهية ومدى هذا الدخيل الأصيل بالنسبة لهذا العصر لانعدام المصادر بالنسبة للهجة غير مكتوبة التي تختلف مفرداتها واشتقاقاتها وأشكالها من ناحية لأخرى بين البربرية الأطلسية والبربرية الريفية وتشلحيت السوسية، غير أننا نرى عند استعراضنا لمظاهر تطور البربرية في العصر الحديث كيف أن بعض مقوماتها الحضارية الأساسية عربية لا يتصور الباحث انبثاقها في غير عهود قديمة.

ومعلوم أن البربر كانوا قد اخترعوا صور حروف وخط، للتعبير عن المعاني في شكل مظاهر طبيعية وكونية، كالشمس والقمر والنجم والبرق، وكان عددها أربعة عشر، اسمها «تِفِنَاغْ» أي الحروف المنزلة ولها حركات وضوابط، تسمى «تِيْدبَا كِين» أي الدليل على العمل والتوسيع، وهي تكتب كالصور الهيروغليفية من اليمين إلى الشمال والأعلى والأسفل حسب اصطلاح القبيلة ولم يبق اليوم أثر لهذه الحروف إلا عند التوارق بالصحراء وخاصة في هكار أي هوازة (راجع جدول حروف تفناغ في آخر الكتاب).

لم تكن جولة عقبة بن نافع الخاطفة في ربوع المغرب من طنجة إلى السوس الأقصى لتترك أثراً قوياً عدا معابد [٣] هنا وهناك وأساطير ترجع إلى النبع الروحي الذي تركه في نفوس الأجيال مرور زهاء ثلاثمائة من رفاق عقبة الصحابة والتابعين مما فسح المجال لأسطورة «رجراجة» السبعة الذين يقال إنهم زاروا الرسول عليه السلام واعتنقوا الاسلام قبل أن يعودوا إلى مسقط رأسهم بجنوب المغرب.

لعل أول أثر للفتح العربي هو مسجد «أغمات غيلانة» الذي يرجع تاريخ بنائه إلى عام ٨٥ هـ [٤] بعد أن كان البربر يكتفون بتحويل المعابد التي بناها المشركون إلى مساجد ويظهر أن البربر ارتدوا في هذه الفترة اثنتي عشرة مرة عن الاسلام، حسب ما رواه ابن خلدون عن ابن أبي زيد القيرواني. لأن الدعوة الاسلامية لم تكن قد تمكنت قبل دخول موسى بن نصير عام ٨٨ هـ إلى درعة وتافيلالت وطنجة حيث عين مولاه طارقاً بن زياد وعززه بحامية من البربر تبلغ الاثني عشر ألفاً يقوم سبعة وعشرون عربياً بتلقينهم مبادىء الإسلام وتعليمهم القرآن والفقه وكانت هذه هي النواة الأولى للتعريب ما لبثت أن تضخمت إلى ثلاثمائة عندما اتجه القائد البربري لفتح الأندلس موجهاً لجيشه البربري - بعد أن أحرق الأجفان التي حملته، قطعاً لأمله في التراجع - خطبته الرائعة التي كانت أول صرخة بلغة الضاد في المغرب الأقصى:

---

(٣) من جملة المعابد مسجد أورباط «شاكر» بماسة الذي يزعم العامة أن المهدي المنتظر سيخرج منه وشاكر هذا هو أحد أصحاب عقبة.

(٤) حسب ابن عذارى «البيان المعرب» ج ١ ص ٣٧)، وإن كان ابن بابا مؤرخ السودان يرى أنه عندما غادر عقبة بلاد لمطة في الصحراء كان بعاصمة غانا إثنا عشر مسجداً (الاسلام في أفريقيا الغربية De chateller - دوشا طوليه ص ٥٢ - عام ١٨٩٩) وقد ذكر صاحب ممتع الأسماع (ص ٧٦) أن مسجد الشرافات في قبيلة بني فلواط بناه طارق بن زياد.

أيها الناس: أين المفر؟ البحر من ورائكم والعدو من أمامكم وليس لكم والله إلا الصدق والصبر!»

فهل بدأ البرابرة يفهمون العربية منذ هذا الوقت المبكر؟ إن من العبث الذي ننزه عنه قائداً مسلماً في مثل جدية طارق أن يوجه خطاباً خطيراً إلى جيشه الفتي بلغة لا يفهمها، ومهما يكن فإن حملة التعريب عن طريق تلقين القرآن ومبادىء الشرع، بدأت تقوى منذ بداية القرن الثاني الهجري عندما اعتلى عمر بن عبدِ العزيز أريكة الخلافة وأوفد مع واليه اسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر عام ١٠١ هـ قلة من العرب لاستكمال الدعوة التي كانت قد تعززت من الشمال منذ عهد الوليد بإقامة مملكة «نكور» الحميرية العربية في قلب الريف فكانت عاملاً قوياً لتعريب جبال الشمال التي هي امتداد للأطلس والتي ظلت طوال ثمانية قرون مجازاً للجيوش المتوجهة لفتح الأندلس.

وازدادت شبكة التعريب إتساعاً بتسرب الخوارج إلى المغرب للدعوة لأفكارهم التحررية التي تمخضت عن ثورة بربرية انبثقت من صفوفها نحلة شوهت أركان الاسلام ووضع متنبئها كتاباً من ثمانين سورة بالبربرية عارض به القرآن وظل دستوراً للبرغواطيين إلى القرن الخامس ومع ذلك فإن «نتائج الفتح الإسلامي تبعث اليوم على الدهشة ـ كما يقول كوتيي Gautier في عصور المغرب الغامضة (ص ٢٢١) بعد مرور اثني عشر قرناً بسبب استعراب المغرب على هذا النطاق الواسع».

وكانت القيروان تزخر آنذاك بأكثر من مائة وخمسين ألفاً من العرب اجتاز منهم أربعون ألفاً إلى الأندلس حيث نقلوا رواسب العصبيات الجاهلية القديمة بين اليمنيين والقيسيين فزادوا في تأجيج روح الثورة لدى البربر، ولكن بالرغم عن ضآلة العرب العددية في المغرب الأقصى فإنه ظل متمسكاً بالاسلام وما لبث أن انضمت كبريات قبائله إلى المولى إدريس الأكبر، ثم إلى ولده الذي توارد عليه من أفريقية والأندلس نحو خمسمائة فارس عربي،

فجعل على رأس مملكته وزيراً أزدياً وقاضياً قيسياً وكاتباً خزرجياً، خططوا أسساً قويمة لتعريب وَاكَب انتشار الاسلام

★ ★ ★

وكان بناء مدينة فاس عام ١٩٢ هـ منطلقاً لانتفاضة عربية تعززت حضارياً وثقافياً واقتصادياً بهجرة الأندلسيين والقيروانيين الذين نقلوا عناصر طريفة لتطعيم اللغة مما أدى إلى تبلور الذاتية المغربية في جامعة القرويين وفي عملة وطنية[٥] موحدة سكت بفاس منذ عام ١٨٥ هـ بدل الدرهم العربي، وبالرغم عن الغموض والاضطراب اللذين سادا المغرب إلى أوائل القرن الخامس الهجري، فإن حركة التعريب ظلت في ازدهار مطرد بسبب تنافس العرب من الفاطميين والأمويين[٦]، وامتداد حكم الأدارسة في الشمال والغرب بعاصمة البصرة التي أصبح مجرد اسمها عنواناً عن التبادل الناشىء بين بصرة الشرق وبصرة المغرب، عن طريق سجلماسة التي غمرتها عناصر عربية وشرقية[٧].

ولعل من غير المنتظر أن تتسع شبكة نفوذ الضاد تحت ظل الحكم البربري، أي في عهد المرابطين والموحدين والمرينيين، غير أن العربية انتشرت بالفعل بفضل تصاعد الفكر الاسلامي ونفوذ الأندلس المتزايد، حيث أصبح بلاط مراكش ملتقى لرجال العلم والفلسفة والأدب، وتعزز هذا الاشعاع بانتشار

---

(٥) عثر في وليلي عام ١٩٥٢ م على مائتين وواحد وثلاثين درهماً فضياً ودينارا ذهبياً يتراوح تاريخ ضربها بين سنتي ٧٩ و ١٢٥ هـ.

(٦) ذكر ابن خردابة أن التجار الصقالبة في القرن الثالث كانوا ينتقلون من السوس الأدنى أي المغرب الشمالي نحو أفريقية ومصر.

(٧) تاريخ المغرب - طيراس ج ١ ص ١٩٨ - البصرة مدينة القصر الكبير كانت مركزاً لإنتاج الكتان وقد اندثرت منذ القرن الرابع وقد أسس المرينيون أيضاً في فاس الجديد مدينة «حمص» لإيواء الأكراد الأغزاز وكذلك، مدينة القاهرة بالاطلس (أنس الفقير لابن قنفذ ص ٨٦).

أفواج العرب من بني هلال وبني سليم في المغرب حيث زج بهم الفاطميون بأفريقية، بعد أن عاثوا فساداً مع القرامطة في الشام ومصر، وقد استقر الأحلاف في المغرب الشرقي، وبنو رياح شمالي فاس ومكناس، وبنو جابر في تادلة بشعاب الأطلس الأوسط، وانبث بنو هلال وجشم الخلط، وبنو سفيان في سهول تامسنا، بينما اتجه بنو معقل غرباً نحو المفاوز الصحراوية لتعريبها وتعميم الأعراف واللهجات الجاهلية الصميمة في ربوعها.

وكانت هذه الأفواج عنصر اضطراب قوي ما لبث الموحدون أن واجهوها بالغز الأكراد الواردين من طرابلس، وغمروها ضمن القبائل البربرية كرصيد للجهاد في الأندلس، وبذلك اندرج العرب في قوام الجيش النظامي الذي تألفت حشوده في عهد المرينيين من زناتة البرابرة ومن عرب سفيان وزُغْبة وأثَبج والخُلْط وذوي حسان و «الشّبَانات» ورياح والهبط.

ظلت فلول من العرب تتصارع اجتماعياً وفكرياً مع قبائل البدو والبربرية في أغلب الأقاليم بينما طفق العرب الرحل ينتقلون في السهول غرباً بعبدة ودكالة والشاوية وفي الحدود الجزائرية شرقاً، في أولاد الحاج وبني وكيل محتفظين بأصالتهم السلالية [٨]، فاتسعت بذلك آفاق لغة الضاد، وبدأت اللهجات البربرية تتقلص لتنكمش في الأطلس، حيث ظلت العربية لغة العلم والدين في المسجد والكتاب والرباط والزاوية، وقد شعر الزعيم البربري الكبير ابن تومرت بهذا التقلص، فنشر «مرشدته» في التوحيد بالبربرية وأقام وعاظاً وأئمة يخاطبون بهذه اللهجة فئة قليلة من المؤرخين الذين بقوا متبربرين في هذا الخضم المعرب، وقد اعترف بذلك طيراس الذي يبرز دائماً الطابع البربري في تاريخ المغرب - ج ١ ص ٢٥٣.

★ ★ ★

Divisions et Repartitions de la Population au Masoc par Quedenfeldt (٨) (P. 13).

...لم يكد ينتصف القرن الثامن الهجري في عنفوان عصر المرينيين حتى كان العرب قد استقروا في المغارب الثلاثة، فقلبوا الكثير من الأوضاع الاجتماعية، وصهروا لهجات أمازيغ، تارة تلقائياً وطوراً بنفس العنف الذي جبلوا عليه، والذي أحنق عليهم ابن خلدون فقرن وجودهم في كل الأعصار بالخراب والدمار، وظهر في هذه الفترة مع استيلاء السعديين العرب على الحكم عنصر جديد أسهم في تطوير لغة الضاد بالمجتمع المغربي حيث أدى سقوط عواصم الأندلس إلى انحدار سيل من المهاجرين استقروا في الحواضر، وانتشروا في البادية انتجاعاً للكسب الفلاحي أو التجارة الجوالة، فتولد رصيد طريف من المصطلحات الاقتصادية التي غمرت المصانع والمتاجر والمزارع.

أما في الصحراء والأطلس، فقد تعززت الحركة الاسلامية التي كانت محصورة لحد الآن في المساجد والكتاتيب بزوايا صوفية، كالناصرية والدلائية، بثت بين العامة مثالية السلوك السني عن طريق شرح الآيات والأحاديث والأذكار النبوية والحكم الصوفية، ولم يقم لا السعديون ولا العلويون العرب، بأي مجهود يستهدف تعريب النواحي البربرية النائية لا سيما بالنسبة للبربر الرحل، في قنن الأطلس الأوسط وزايان ومصمودة وزناجة، لأن الروح الإسلامية كانت تشكل دائماً في نظرهم وفي نظر سلفهم الوازع الجوهري الكافي لبلورة التعبير بلغة القرآن التي ظل المسلمون في كل مكان يعتزون بها ويفخرون بتعلمها، بل إن المغرب عرف ظاهرة غريبة تدل على أن اللهجة البربرية لم تكن تعدو لوناً من الألوان الجهوية وهي استعراب فصائل بربرية وتَبربُر فلول من العرب فقدوا كل صلة بلغة الضاد لاستيطانهم بأقاصي البلاد، على أن الأسرة كانت حتى في الأقاليم المعربة تتسم أحياناً بطابع غير عربي رغم إسلاميتها البليغة نظراً لكون المرأة التي هي عماد التكوين الأولى ظلت في منأى عن كل التيارات الفكرية الطارئة.

وهكذا يمكن القول بأن اللهجات البربرية، من تشلحيت في الأطلس الصغير إلى تمازيغت في الأطلسين الكبير والأوسط، قد واكبت لغة القرآن التي لم تغزُ

معظم طبقات المجتمع البربري فحسب بل غزت اللهجة نفسها التي تطعمت حضارياً ودينياً بمصطلحات عربية كادت تفقدها أصالتها الأولى، وإذا كانت البربرية قد اقتبست منذ عهود عريقة ترجع إلى حكم الفينيقيين أو إلى الفتح العربي، جملة من الألفاظ والتعابير الجاهلية فإن التطورات التي توالت على المغرب، من بداية العصور الوسطى إلى الفترة المعاصرة التي نعيشها في القرن العشرين، قد أحالت البربرية إلى لهجة قد لا يتعرف على معالمها - لو عاد إلى الوجود- بربري مكث في رمسه ألفاً من السنين.

فهنالك كلمات ظاهرةُ المصدرِ العربي الجاهلي وقد أوصل صديقنا المرحوم المختار السوسي الألفاظ البربرية الدخيلة في العربية إلى أزيد من خمسة ألاف في دراسة مقارنة ما زالت مخطوطة وقد نشرنا قسماً منها في مجلة «اللسان العربي» (عدد ٢ ص ٣٢) واقتبسنا منه شفاهاً معلومات أدرجناها في كتابنا «معطيات الحضارة المغربية» (ج ١ ص ٥٨) وقد أشار برونو (١٩٤٩ هبسبرس Hesperis) (ص ٣٤٩) إلى قلة الألفاظ البربرية الدخيلة في العربية وذكر أن من بينها ساروت بمعنى مفتاح ويلوح لنا أن هذا اللفظ دخيل أسباني اقتبسه العامة من لفظ سِرَّادو Cerrado الذي أعطى سورت بمعنى إقفل

وتندرج هذه الكلمات في ضروريات الحياة البدائية وتعتبر من أبرز مقومات اللغة في المجتمعات البشرية الناشئة كان البرابرة يستعملونها منذ أعرق العصور في مخاطباتهم اليومية حيث لم يكن يوجد عندهم ما يستعاض به عنها، فمن العبارات العربية التي دخلت إلى البربرية قولهم «سأقطع تربه» التي استحالت إلى «ادبيغ تربيات نس (تربيات = رَب وإدبيغ من أب أوتب أوجب بمعنى قطع ولفظة نس من الروابط والملحقات البربرية)، وإن أول ما يبده الباحث في الشلحة كما لاحظ السيد المختار السوسي عندما يقابلها بالعربية أشياء منها:

١ - أنه يجد مخارج الحروف متساوية في اللغتين، حتى حرف الضاد، فإنه ينطق به عند الشلحيين كما ينطق به عند العرب.

فإنهم يقولون: أضاض للإصبع، ويقولون أبضت من بضعة أو قطعة، ولا يفوت الشلحة من حروف العربية إلا المعجمات منها، كالثاء والذال والظاء، وهي نفسها تهجر في اللغة العربية الدارجة الآن.

٢ - إذا أردنا أن نعرف مقدار ما في الشلحة من العربية فلنتتبع المصطلحات المتعلقة بالمنزل واللباس والمركوب وأحوال الإنسان وما إليها من ملابسات شخصية، فإننا سنلمس هذا التأثير القوي، ففي المنزل نلاحظ توافر ألفاظ منها: الموضع والبيت والباب والعتبة والشرجب والقفل والمقصورة والحش والأروى والهري والصهريج والساقية والجابية والحانوت والقوس والكرة والدكان والقنديل والفتيلة، وكذلك المجمر والقدر والمعلقة (أي الملعقة) والزلفة (أي السلطانية) والصاع والكأس والغراف (آنية الشرب) والسطل والبراد والمرجل والمائدة والموسى والمغسل والفوطة والجراب والإشفى والزيف (المنديل) والكسوة والقشيب والدراعة والملحفة والإزار والفراش والمخدة والزريبة والسراويل والإبزيم والمضمة والصدرة والجبهة والخيط والحرير والقطين والسدى. كما نجد حول (المركوب):

الحلس والقتب والحمل والركاب والمهماز والجوالق والشكال واللجام والسمط.

أما تطورات الشخص في أحواله فإن المفردات الملحقة بها تتلخص في بد وزري والحزن والفرح والقلق والجري والذهاب والمقل (النظر بالمقلة) والاحتباء بالثوب والحنان والهدوء والهدنة والصلح.

فهذه كلها تستعمل على نسق استعمالها العربي في أصل المعنى.

فاليافوخ والقلة والمقلة والصماخ واللسان والمنخر والشعر والقلب والرئة والترب والرجل والبطن والعرق والخزر يقصد بها الشلحي ما يقصده العربي.

ثم إذا ملنا إلى الأشجار وما إليها من النبات نجد عندهم:

الشجر والزيت والأدام والكمون والجزر واللوبيا والحمص والبلح والباكور والكراويا والقصيل (وهو الشعير الأخضر) والابزار والزبيب.

وهكذا نجد في كل ناحية من مناحي حياة الشلحيين ألفاظاً عربية كثيرة التداول في كلامهم منها ما هو جامد لا يدخله التصريف ومنها ما يدخله التصريف فيأتون منه بالماضي والمضارع والأمر والوصف والمصدر.

ونجد عندهم ألفاظاً كثيرة غير متداولة غالباً في لغة العرب المخالطين لهم.

لكننا نجد عند الشلحيين مثل:

السري... بمعنى الجدول، والأوق (ومعناه النقل والشؤم). والثرب (شحم الكرش) والفدع (إلتواء المفصل) والسمط (الخيط المعلق في آخر الرحل) والقلزم والفاس والخلف (زق الأدام)، وأفت الإنسان عن وجهته: صرفه عنها والبكت (الضرب بالعصا) وذرى بمعنى سقط، وأل إذا بكى.

فإنها ـ وكلمات كثيرة قد تعد بالمئات ـ لا يكاد يعرف أن لها أصلاً في العربية الآن إلا من خالط قواميس اللغة العربية ـ وإلا، فقد يسمع سامع إطلاق الشلحيين لفظة أزبل على الشعرة، فلا يجول في ذهنه أن أصل الكلمة إلا سب بالسين وهو شعر الركبتين ثم قلبت السين زاء وزيد فيها اللام فجاءت كلمة أزبل بل الأوضح أنها مأخوذة من السبلة التي بمعنى الشعر مطلقاً.

وكذلك يسمع أسوا بمعنى شرب الماء وهي كلمة تتصرف عندهم غالباً على حرف السين فقط، ماضياً ومضارعاً وأمراً ومصدراً فلا يكاد يعرف أن أصل الكلمة من احتسى الماء أي شربه.

وكذلك يسمع (كا) (الكاف المفخم) فلان العالم، أي كان فلان عالماً ولا يحسب أن الكلمة هي المفخمة من كَا المعروفة نفسها في العربية وإنما قلبت الكاف كَافا (مفخمة) وهي لهجة عربية صحيحة ثم تحذف النون في الكلمة أحياناً كما يقع غالباً في الكلمات التي تلوكها ألسنة لغة أخرى مثلما نسمعه الآن عن لفظتي ابن رشد والفارابي وأمثالها عند الغربيين.

وهذا التأثير يقوى في الكلمات الدينية التي هي سيل طافح فقد التهمت الشلحة كل الألفاظ التي تؤدي المعاني المتعددة في الصلاة والزكاة والصوم والحج فَشُلِّحَتْ كلها فأنت مثلاً تسمع تِمَزْكِدا وتِصْلَت وتِلْفْطْرَتْ فتعلم أن أصلها المسجد والصلاة «والفطرة» التي يقصدون بها صاع زكاة الفطر.

وهذا الباب الديني كثير جداً وغالبه معرف بالألف واللام حتى صحت القاعدة التي تقول: إن كل لفظة جامدة في الشلحة بدئت بالألف واللام فإنها عربية الأصل.

وربما شَلحوا جملة عربية تامة كقولهم «ما تريد ومازكانتك أرياتا»، ومما اتفقت فيه اللغتان كاف الخطاب فإنه يستعمل في الشلحة استعماله في العربية.

وكذلك ما الاستفهامية.

على أنه قلما تكون جملة أو جملتان متصلتان من الشلحة إلاَّ وتجد فيهما أثراً من العربية.

* * *

وقد تساءل صديقنا السوسي عن العوامل التي انتشرت بها العربية ذلك الانتشار العظيم في شلحة السوسيين الذين لم يكونوا يخالطون العرب، لانزوائهم في صقعهم المنعزل، فقسم الألفاظ التي جمعها إلى ثلاثة أقسام:

أولها: ما جاء عن طريق الدين من كل ما يتعلق بالشرع وما جاء عن طريق المدنية العربية من أسماء أدوات المنزل واللباس وآلات الأعمال التي نزاولها ومن أسماء الأشجار والعلوم ومدارس الدين والمخالطة في الأسواق والمقايضة في المتاجر، فهناك مؤلفات كثيرة ترجمت إلى الشلحة، فشلحت كلمات كثيرة من العربية وتكثر هذه المؤلفات في الفقه والمواعظ والحساب والفرائض والتوقيت، فالمترجمات في هذه الفنون متعددة.

وكذلك لا ننسى المدارس العربية المنبثة في قبائل سوس التي تصل أزيد من ستين قبيلة - وهي مدارس تنيف على المائتين.

أما القسم الثاني فهو ما كان قديماً عند الشلحيين مما سبق الفتح الاسلامي، ويظهر أنه متأصل في اللغة الشلحية، كالموت والحياة والدم والريح والأب والأم والصوت والبر والبحر والقرب والبعد، وهي ألفاظ تصل إلى مائة كلمة ولا أعلم لها مرادفاً شلحياً.

وأما القسم الثالث فهو ألفاظ تتردد ما بين هذين القسمين ولا يترجح فيها جانب على آخر، كاليقظة والاحتباء والاحتساء والأفول بمعنى الغروب، والموافاة إليه بمعنى الوصول إليه ويستعملونه بمعنى وجده «إلى غيرها من ألفاظ كثيرة تأتي على غرارها، ليس عليها طابع محقق من المدنية العربية ولا من الدين الاسلامي».

وقد نتج عن التبادل العربي البربري استعمال اللهجات الحضرية لألفاظ بربرية قليلة جدا، منها أكوال (الدف) ومزوار (النقيب) وأكدال (ساحة واسعة أمام القصر الملكي) وأفراك (فسطاط) وأزفل (عصب البقر للتعزيز).

ومن الصعب التمييز بين العناصر العربية المختلفة التي تسربت إلى المجتمع البربري، إلا أن في وسعنا ارتكازا على نوع المؤثرات الفصل بين ضروب العوامل ومستلزماتها، ذلك أن لغة القرآن ظلت محدودة الأثر في العصور الأولى بالنسبة للعربية البونية العتيقة، بينما بدأت المعطيات تتزاوج منذ العصر البربري بين عربية الحواضر المغربية وعربية الأندلس، لتنتشر وتسود في معظم الواحات والسهول والممرات والمجازات تحت شارة لهجات عربية بدوية أصيلة، فإذا أخذنا ناحية الشمال في «جبالة والريف وسهول الهبط» كمثال لتبلور التعريب في بداية القرن العشرين فإننا نلاحظ[٩] وجود قبائل بربرية

---

(٩) راجع كتابنا «معطيات الحضارة المغربية الرباط عام ١٩٦٣ ص ٥ حيث تحدثنا بإسهاب عن انتشار المربية في هذه الربوع واقتبسنا كثيراً من المعلومات من كتاب المغرب المجهول (Le Maroc Inconnu) الذي جمع فيه «موليراس» (A. Moullieras) عام ١٨٩٥ نتائج رحلة طويلة قام بها في تلك القبائل.

يستعمل رجالها العربية بينما احتفظت نساؤها بتمازيغت وتبلغ أحيانا نسبة المتعلمين الذين يقرأون ويكتبون فيها ثلاثة أرباع الرجال بينما يحفظ عدد من النساء القرآن ويدرسن الحديث والفقه كما هو الحال في جبالة وقبيلة « الأخماس » بل هناك مناطق بربرية في قلب « غمارة » المصمودية مثل بني كرير لم يكن فيها أمي واحد ويهاجر طلبتها للتدريس و « المشارطة »[١٠] ضمن كتاتيب ومدارس أولية مختلطة وكثيراً ما تكون قبائل بربرية مثل « بني مسارة » « وبني أحمد السرق » مهبط رواد العلم يتوافدون جماعات ووحدانا من الجزائر وطرابلس وتونس و « كورارة » بالصحراء الجنوبية المتصلة بشنقيط حيث أدركت المرأة تحت ظل الإسلام مستوى في الثقافة العربية يكاد يكون فريدا في العالم الإسلامي إذا استثنينا مصر وربما تونس[١١] وقد تجلى تمسك الريفيين بالعروبة في إطلاقهم أسماء وأوصافا عربية على بعض المدن كالشام الصغيرة « لفشتالة » وقبيلة الخلفاء في بني زوال ومدينة البصرة قرب القصر الكبير بل إن البرابرة أطلقوا اسم القاهرة على إحدى حواضرهم الأطلسية قبل القرن الثامن الهجري.

★ ★ ★

وما حرب الريف سوى انتفاضة انطلقت بزعامة البطل محمد بن عبد الكريم ضد الزحف الصليبي الذي تشكل بشتى الألوان لتمزيق الوحدة القومية، وفصل البربر عن العرب وتحظير التخاطب بلغة القرآن في جبال الأطلس، التي أقام بها الاستعمار مدارس بربرية، وضع لها معاجم بالحروف اللاتينية، وكون محاكم عرفية استئصالا للشريعة الإسلامية وتمهيدا للتمسيح العام بمقتضى الظهير البربري (١٦ ماية ١٩٣٠)، الذي كان بداية وعي بخطر داهم يهدد كيان

---

(١٠) وهو نظام يتشارط فيه الفقيه مع القبيلة لتعليم الأطفال مقابل مستوى خاص في السكن والمطعم والملبس.

(١١) راجع كتاب « التعليم النسوي في موريطانيا » بقلم (1952 D. Lerîche) د. لا ريشي ١٩٥٢.

البلاد، فلم تزد سياسة التفكيك الاستعمارية كلا من العنصرين سوى شعور بحتمية وحدة لم يحسوا قط طوال ألف عام من الاستقلال بإلحاحها، فانبروا جميعا رغم الحواجز المفتعلة والقمع الجماعي والاعتقالات العارمة الى ترصيص صفوفهم وإبراز وحدتهم - التي كانت فوق كل اختلاف سطحي في اللهجات - والانضمام لكتلة العمل الوطني، ضمن خلايا تغلغلت في أعماق الأطلس والصحراء من أجل استعادة السيادة والاستقلال الذي ما لبث أن وحد لغة التعليم واتخذ من لغة القرآن لغة لدستوره ومراسيمه في مختلف مجالات الحياة.

المغرب الحضاري وتطور اللغة

المغرب الحضاري وتطور اللغة

عرف البربر كسائر البدو منذ أعرق العصور حياة بدائية لم تكن تخلو من مظاهر احتفظت بها قبائل صحراوية وأطلسية إلى الآن، كالملكية الجماعية، والاشتراكية الفلاحية، والسكنى في أكواخ الطوب بالدساكر، والاقتصاد في الأكل على الكسكس والصيد والعسل وشرب الألبان والماء القراح، ولبس الجبة والبرنس ووضع أكاليل الريش على الرؤوس، واستعمال الحراب والأقواس والخناجر والدرقات الجلدية في الحروف، وكان المغربي يرسم على الجدران صورا تمثل حياته اليومية في براعة فنية رائعة كما يتحلى كالنساء بالأسورة والعقود، وتمتاز المرأة بنقش الأواني الخزفية ونسج الزرابي في تعاريج هندسية، وبرز الإطار السياسي القبلي في شكل جمهورية صغيرة يمثلها مجلس منتخب، وقد طعمت الحضارة القرطاجنية الشرقية هذه المعطيات الأولية بعادات جديدة كالطربوش والقميص الفضفاض والتكحل والاختضاب والحناء والاختتان. (قاضي إفريقيا الشمالية،) ـ كوتيه ص ١٤٨.

وربما حدت البربر إلى التفكير في وضع أحرف «تفناغ» على غرار الهجائية الفينيقية التي تكونت منها الألفبائية العربية إذ لم يكن البرابرة قد اقتبسوا هذه البادرة مباشرة من الهيروغليفية المصرية في الجناح الشرقي لإفريقيا الشمالية ويظهر أن اليهود النازحين من الشام وخيبر لم ينقلوا إلى المغرب شيئاً جديداً باستثناء الديانة الموسوية ونتف من العبرية لم تترك أثراً يذكر في اللهجات المحلية.

ولعل أول نواة حضارية عربية تلقاها المغرب بعد الفتح الإسلامي قد جاءته عن طريق القيروان التي بدأت تنصهر فيها الحضارة الأموية بعد مرور

ثلاثة ارباع قرن على الهجرة، فأقيمت المساجد والدواوين والمسالح والدور الصناعية على غرار ما عرفته دمشق آنذاك من روائع امتزج فيها العنصران الفارسي والروماني، وإذا اعتبرنا الصلة الوثيقة بين القيروان والمغرب قبل أن تزدهر بالأندلس الحضارة الأموية في إطارها الجديد أمكننا القول بأن الشام كانت الينبوع المشترك للحضارتين ما لبث أن تعزز بمدد مباشر في عهد الأدارسة.

إذا ما حاولنا التنظير بين عناصر الحضارة الأموية من نشأتها في الشام إلى امتدادها بالأندلس، لاحظنا وحدة مقومات العمران والبناء والزخرفة والنقش والثقافة والاجتماع والتراتيب الإدارية والسياسية والقضائية في أشكالها ومصطلحاتها، إلا أن الأندلس لم تتصل بهذه المعطيات قبل وصول عبد الرحمن الداخل عام ١٣٧، حيث قضى خمس سنوات بالمغرب الشمالي يحاول عبثا إقامة مملكة أموية، لأن أفواج اليمنيين والقيسيين ظلت في صراع حدا البربر أنفسهم إلى النزوح إلى الريف وطنجة وأصيلا، بين عامي ١٣٤ و ١٣٦ هـ ولم تكد الدول الأموية الجديدة تستقر حتى وضع الأدارسة بفاس أسسا عمرانية، كانت وفرة مياهها وبساتينها وفنادقها وقيساريتها ومسجداها، مظهراً خافتا لعاصمة دمشق.

وسواء أكان هذا الاقتباس مباشرا أو بواسطة، فإن ألفاظاً فارسية دخلت منذ هذا العصر إلى المغرب، ودخلت معها مسمياتها وقد أشار الثعالبي في «فقه اللغة» ص ٤٥٠ - ٤٥٥ - ١٩٥٩ - القاهرة) إلى نوعين منها:

١ - منسية وعربيتها محكية أوصلها إلى مائة وواحد وأربعين. منها البياع والدلال والبقال والجمال والطراز (الدراز بالمغرب) والخياط والند والبخور والغالية والحناء والمضربة والقمرية والربعة (الربيعة بالمغرب) والخرج والدواة والمرفع والفتيلة والمجمرة (المجمر بالمغرب) والمزارق (انتشر خاصة بالجزائر) والطبل والشكال والقلية والهريسة والعصيدة.

٢ ـ أسماء تفردت بها الفرس فعربها العرب أو تركوها منها الأبريق والطبق والقصعة والسندس والياقوت والبور والسميذ والكعك والسكنجبين والفلفل والكروياء والقرفة والزنجبيل والسوسن والياسمين والمسك والعنبر والكافور والقرنفل.

* * *

كما انتقلت إلى المغرب في نفس الفترة من الشام مصطلحات رومية قليلة كالبستان والقسطاس والبطاقة والاسطرلاب والقنطار والقرمود والتِّرياق والقنطرة ودار القيطون التي بفاس أسسها المولى إدريس، والذي يجعلنا نرجح وجود هذه الألفاظ في المصطلح الدارج بالمغرب منذ هذا العصر هو أن معظمها يمثل المظهر الجديد للحضارة الاسلامية التي بقي الشعر والشعراء في منأى عن وصفها لأنهم حتى في دمشق ظلوا في أبراجهم العاجية يبكون في أسلوبهم الجاهلي على الأطلال ويتغنون بالماء الآسن في عنفوان المدنية الناشئة. وأول مسجد على النسق المعماري الإسلامي في المغرب هو ذلك الذي بناه سعيد بن صالح الحميري في نكور، في نهاية القرن الأول استمد تصميمه من جامع الاسكندرية التي ظلت مهبط الرواد المغاربة وعلى رأسهم الصوفي أحمد البدوي دفين طنطا، وكانت البساطة آنذاك هي طابع الفن المعماري الذي لم يعرف بعد المقرنصات ولا التعاريج العربية Arabesques، وبلد نكور هي المعروفة بالمزمة ـ (البكري: المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب ـ طبعة الجزائر ص ٩٩) وهي تسمى الحسيمة اليوم اقتباسا من كلمة الخزامى التي تكثر فيها مما يبرز تأثير الأندلس بإحداث الموالي الصقالبة لقرية تحمل إسمهم فوق مدينة نكور (المسالك والممالك ص ٩٧ للبكري طبعة الجزائر ١٩١١).

والواقع أن انعدام الاقتباس من الطبيعة والامعان في دراسة الرياضيات ونزعة الإبداع حدت مسلمي الأندلس والقيروان ومصر ثم المغرب إلى التسطيرات الهندسية الساذجة التي يظهر أنها وسمت الزخرفة في أوائل العصر الادريسي، وكان استمرار الصراع في الأندلس بين العناصر السلالية

المختلفة، من عرب وبربر وقوط، عائقا دون تفتق الفن حيث لم تكد تمر ستٌ سنوات على تأسيس فاس حتى انحدرت إلى المغرب ثلاثمائة أسرة قيروانية تلتها بعد أربع سنوات ثمانمائة عائلة جاءت من أرباض قرطبة معظمهم من الفلاحين والمزارعين الذين استقروا بعدوة الأندلس، ووصل بعضهم فازاز بالأطلس انتجاعا للحقول والمراعي الخصبة وأشجار التوت لتربية دود القز وصناعة الحرير، بينما كان مهاجرو حاضرة القيروان من الفعلة الذين أقاموا في عدوة القرويين الخلايا الأولى للحرف والصنائع اليدوية مدرجين بذلك في المصطلح الصناعي والتجاري مفردات دخلت منذ ذلك التقاليد الحرفية، لا نستطيع تحديدها بالضبط.

إذا أعتبرنا أن الوضع الحالي بفاس لا يختلف كثيراً عما كان عليه من حيث الهيكل العام فإننا نلاحظ أن عدوة القرويين تضم معظم مقومات الإقتصاد والثقافة والاجتماع ففيها القيسارات والحرف والمدارس والزوايا والفنادق ويبلغ عدد أحيائها إثني عشر مقابل نصفها في عدوة الأندلس و ١٧ حماما عوض ستة و ٩٦ كتاباً قرآنيا بدل ٢٤ وست مدارس بدل اثنتين.

وتبلغ الأسر الأندلسية التي هاجرت إلى فاس عام ٢٠٢ هـ ـ ٨١٨ م أربعة آلاف حسب عبد المالك الوراق وثمانية آلاف (روض القرطاس ص ٢٥) ودوزي: تاريخ مسلمي الأندلس ١٩٣٢ ج ١ ص ٣٠١) أو ثمانمائة (هنري طيراس ـ «تاريخ المغرب» ج ١ ص ١١٨)، بينما بلغ عدد الأسر الإفريقية التي جاءت من القيروان عام ١٩٨ هـ ثلاثمائة، ويظهر أن عدد الربضيين تراوح بين اربعمائة وثمانمائة اعتباراً للغلط المحتمل الناتج عن إضافة صفر للعدد ونظرا للتوازن الديموغرافي بين العدوتين، وقد تحدث المقري في النفح (ج ١ ص ٣١٨) عن الوقعة التي أدت إلى طرد الأندلسيين، فذكر أن الحكم بن عبد الرحمن الداخل انهمك في لذته فخلعه العلماء بقرطبة فأجلاهم عن الأندلس ولحقوا بفاس والإسكندرية ومنها إلى جزيرة اقريطش.

هذا وإن جامع القرويين الذي أسس عام ٢٤٥ هـ مع شبيهه جامع الأندلس على يد أم البنين وأختها مريم الفهرية القيروانيتين لم يكن يثير الانتباه بفن جديد نظراً لعدم اختصاص بنائيه القرويين عدا تصميمه الغريب الذي تتوازى بلاطاته مع القبلة على غرار مسجد الشرفاء الإدريسي وجامع ابن طولون بالقاهرة وجامعي بعلبك ودمشق، وقد أضاف إليه الناصر الأموي عام ٣٤٥ أي بعد مرور قرن كامل على بنائه، إثني عشر بلاطا جديداً، وحول المنارة إلى مكانها الحالي مُغَشياً بابها «بصفائح النحاس الأصفر» مع «لبة صغيرة» محلاة «بتفافيح مموهة بالذهب - «زهرة الآس ص ٣٧» -، وبذلك انبثقت النواة الأولى للفن الأندلسي المغربي البارز في مسجد قرطبة ومدينتي الزهراء حيث امتزج العنصر السوري بالفارسي والبيزنطي، ولعل عهد الناصر الذي ازدهرت فيه الفلاحة والصناعة والتجارة والفنون والعلوم بالأندلس - «ابن حوقل طبعة كوج ج ٢ ص ٧٧» - كان عهد تحول وانقلاب في تاريخ الحضارة المغربية التي بدأت تتخذ بالعاصمة الإدريسية سمات جديدة في شتى المجالات لا تقلّ مع ذلك روعة وفخامة عن أصولها بقرطبة إذا اعتبرنا المضافات الأموية بجامع القرويين، وقد انتشرت بدائع هذا الفن في حواضر إدريسية كالبصرة وأصيلا أصبحت تنافس مدينة فاس.

* * *

ذكر ليفي بروفنصال أن الأندلسيين نقلوا معهم إلى المغرب فن البستنة وكذلك تجربتهم للحياة الحضرية كالبناء والصناعة التقليدية «فاس قبل الحماية» (Le Tourneau p.47) وقد لاحظ لوتورنو (ص ٢٠٥) أنه إذا كان العرب قد نقلوا إلى فاس مظاهر نبلهم فإن الأندلسيين قد نقلوا رقتهم والقيروانيين مهارتهم واليهود حيلهم والبربر صمودهم «وقد أعطانا الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب في كتابه «بساط العقيق» صورة عن حضارة القيروان حيث تحدث عن سماطها (يوجد شبهه بفاس وهو سماط العدول إلا أنه أصغر منه) وحماماتها العمومية (٤٩ حماما) ومصانع الزربية (ذات الطابع القيرواني الخاص رغم أصلها الفارسي) والزجاج والبلور والورق ودار الطراز.

وكان قاضي القيروان شيخا للإسلام في تونس أو قاضياً للجماعة كما في فاس وقد لاحظ الأستاذ التونسي في رسالة بالفرنسية أن الطبقة المتمدنة الغنية من الأندلسيين قد نزلت مدينة تونس، واختلطت بأهلها وقلدهم الحفصيون الذين هم فرع عن الموحدين. وقد ذكر المقري عن ابن غالب (نفح الطيب ج ٢ ص ٧٦٤) أن أهل الأندلس تفرقوا في المغرب الأقصى مع أفريقية فمال أهل البادية إلى ما اعتادوه فاستنبطوا المياه وغرسوا الأشجار وأحدثوا الأرحى الطاحنة بالماء، وعلّموا أهل البادية أشياء جديدة.

ومعلوم أن الأندلسيين كانوا يحتكرون ببلادهم - حسب سرفانطيس مؤلف «دون كيشوط» تجارة الأغذية ويضعون يدهم على المحاصيل عند نضجها ولا يشترون العقارات حفاظا على حرية رواج أموالهم.

* * *

من الصعب أن نتعرف على العناصر الحضارية والمصطلحات التي تسربت إلى فاس في القرن الثالث الهجري وإن كنا نعرف مما كتبه مؤرخون عرب أمثال الحُمَيْدي صاحب جذوة المقتبس وابن غالب صاحب التاريخ والروض المعطار للحميري والنفح للمقري، الكثير من ذلك بالنسبة للأندلس حيث اكتملت مظاهر المدنية في الإدارة والقضاء والشرطة والاقتصاد والصناعة والفلاحة والاجتماع والعمران، وأول ما يبده الباحث حتى بالنسبة للأمويين هو امتزاج العناصر الحضارية بسبب تداخل الاختصاصات وعدم فصل السلط حيث يندرج كثير من مقومات الدولة ضمن البلاط، كالجامع والصدقات والأعشار والأموال المرسومة على المراكب الواردة والصادرة والرسوم الموظفة على بيوع الأسواق والمكوس والمشرف أي أمين المال وقد استعملها الموحدون «زهرة الآس ص ٨٢». أو الأمين، ودار السكة وخزانة الطب والحكمة.

إذا ما حاولنا أن نقارن بين مصطلحات هذا العصر والتعابير المغربية دون تحديد لإطلاقها الزمني فإننا نلاحظ أن أغلبها متقارب عدا كلمات لم يعرفها المغرب مثل: صاحب البنيان وصاحب البيازرة والاسجال الخراجية وصاحب

القطوع (أي الجبايات المرسومة على الإقطاعات) وصاحب الرد (رئيس قسم الشكايات بالقصر الملكي) والكور المجَنَّدة والجند المُتدَوَّن (أي المسجل في الديوان) وفحص السرادق (أي مكان تقام فيه حفلة البروز لتوديع البعوث العسكرية وعقد الألوية) والمهرجان (عيد موسمي منه العنصرة التي تعرف بالمغرب).

على أن معظم أسماء الحرف موحدة وكذلك أسماء الأزهار والاعشاب والمصنوعات اليدوية وغيرها - راجع الملحق -، واستمر هذا الاقتباس طوال قرن ونصف قرن بدافع من بني زيري وخلفاء المنصور بن أبي عامر إلى أن أصبحت الأندلس جزءاً من العدوة الجنوبية تحت حكم المرابطين الذين استدعى زعيمهم يوسف بن تاشفين رجال الحرف القرطبيين لإقامة المساجد والسقايات والحمامات والفنادق بفاس - راجع زهرة الآس ص ٨٧ وجذوة الاقتباس ص ٢٧ - ودار الأمة بمراكش بينما استعان نجله علي بن يوسف بمهندسي الأندلس لمد قنطرة «تنسيفت» الإدريسي - مقتطعات من «النزهة» التي طبعت باسم «وصف أفريقيا الشمالية والصحراء» - طبع الجزائر ١٩٥٧ ص ٦٩ - وقنوات الماء وبناء دار الحجر بمراكش (الاستبصار) (ترجمة فغنان ص ١٧٩).

وكان لوحدة افريقية والمغرب الأقصى حينئذ أثرها في ضم الآثار القيروانية إلى المدد الأندلسي غير أن من الصعب تمييز الأثرين بوضوح لأن جامع القيروان نفسه دخلت فيه مواد أندلسية كالمرمر والآجر والجبس عند تجديده على يد محمد ين حمدون الأندلسي عام ٢٥٢ هـ، ولم ينس المرابطون الصحراويون إقامة القصبات والحصون في عمرانهم العسكري الذي تعزز بتسوير الحواضر أيام علي بن يوسف يايعاز من ابن رشد الأندلسي، وإذا أردنا دليلا على مدى انسجام الصحراويين المغاربة مع روح العصر واستساغتهم للفن وأساليبه ومصطلحاته، فإن ذلك يتجلى بوضوح في الروائع الجديدة التي أضيفت لجامع القرويين الذي اتخذ حينذاك شكله الحالي بمنبره

المصنوع من « الصندل والأبنوس والعُنّاب والعاج » - زهرة الآس ص ٤٢ - وقبته التي كشفتها عام الحفريات عام ١٩٥٢ كأنموذج للفن في أروع مجاليه.

وهكذا فالفعلة الأندلسيون الذين انتقلوا إلى المغرب في العصر المرابطي كانوا إذن أكثر اختصاصاً من سلفهم وإن كان عملهم لم يتجاوز نطاق هندسة المساجد وبعض المآثر العسكرية لأن بداوة الملثمين وتقشفهم حالا دون تقبل عناصر حضارية طريفة زخرت بها آنذاك قرطبة وإشبيلية كموسيقى « زرياب » الذي أحدث في الأندلس ثورة جذرية في العادات فكان بحق « مشروع أسبانيا العربية »، كما يقول دوزي. وظلت المرأة المغربية بدوية الطبع رغم سفورها حتى الأميرات لم يكن يتحجبن مما حدا المهدي بن تومرت إلى نقد سياسة البلاط الدينية للنيل منه سياسياً.

ولم تتفتح المرأة للثقافة عدا القليلات أمثال زينب النفزاوية زوجة يوسف ابن تاشفين والبطلة الموحدية قانو، وأم هانىء بنت القاضي عبد الحق بن عطية، وحفصة الركونية أستاذة نساء دار المنصور[١] بل أستاذة عصرها[٢]، وأم عمرو بنت أبي مروان بن زهر طبيبة النساء في البلاط الموحدي، وورقاء الفاسية الأديبة الشاعرة[٣]، وزينب القرقولية أستاذة القراءات السبع بمراكش وأغمات، وزينب بنت يوسف بن عبد المؤمن التي ربيت بالأندلس فكانت صاحبة الرأي في البلاط والشفوف في المجتمع، وإزاء هذه الندرة من المثقفات في المغرب، كانت نساء غرناطة يشهدن الحفلات العامة سافرات ويسبغن بوجودهن عليها روعة وسحرا ويتمتعن بقسط وافر من الحرية الاجتماعية، (Prescott. Ferdinand and Isabelle p. 192) كما كان بالربض الشرقي لقرطبة وحده مائة وسبعون امرأة كلهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفي الذي اتخذ في هذا العصر أشكالاً خاصة بالمغرب.

---

(١) « الدر المنثور في طبقات ربات الخدور » ص ١٦٥.

(٢) الاحاطة لابن الخطيب.

(٣) « جذوة الاقتباس » لابن القاضي ص ٣٣٥.

فإذا استثنينا مثلاً الخط الحجازي فإن ترتيب الحروف تختلف بين الشرق والمغرب ابتداء من الزّاي فهي عندنا:

ط ظ ك ل م ن ص ض ع غ ف ق س ش هو لا ي.

بينما هي في الشرق:

س ش ص ض ط ظ ع غ ف ق ك ل م. ن ه و لا ي.

والمغاربة يعجمون الفاء والقاف بِنَقْطِ الأول بنقطة من أسفل والثاني بنقطة واحدة من أعلى، كما أن صور الأرقام في المغرب عربية أصيلة ليست منقولة عن الرسم اللاتيني، وقد أبرز ذلك الاختصاصيون في المؤتمر الذي انعقد بتونس عام ١٩٦٣ حيث أكدت الجامعة العربية عزمها على إصدار تعليماتها إلى الدول الاعضاء لاعتبار الأرقام المغربية هي الأصل والاقتصار عليها في العد والترقيم.

غير أن الموحدين قفزوا بالفن إلى مستويات راقية بالرغم عما أبدوه في البداية من روح التزمت، وقد أمر المنصور الموحدي «بقطع اللباس الغالي من الحرير والاجتزاء بالرسم الرقيق الصغير ومنع النساء من الطرز الحفيل والاكتفاء منه بالساذج القليل وأمر باخراج ما كان في المخازن من ضروب ثياب الحرير والديباج المذهب فبيعت...» (البيان المعرب لابن عذارى ج ٤ ص ٨١).

ومع ذلك ففي زمن المنصور والناصر الموحديين كان عدد الأطرزة بفاس: ٣٠٩ ودور الصابون ٤٧ ودور الدباغة ٨٦ والصباغة ١٦١ وتسكيك الحديد والنحاس ١٢ والزجاج ١١ وكوش الجير ١٣٥ وأفران الخبز ١١٧٠ وأحجار صنع الكاغد (أي الورق وهي كلمة فارسية تركية) أربعماية ودور الفخارة ١٨٠ (زهرة الآس للجزنائي ص ٣٣) وقد بلغت الأرحى بفاس ٦٠٠ في القرن السابع (حسب ياقوت المتوفى عام ٦٢٦ هـ في معجمه ج ٦ ص ٣٣١).

فأضافوا بهذا روائع جديدة إلى المآثر الأموية تجلت في المنارة الخالدة بأشبيلية (جيرالدا) Geralda وجامع حسان بالرباط والكتبية بمراكش

والقصور الفخمة والحدائق الغناء (على غرار مَسَرّة المرابطين المعروفة الأن بالمنارة ونضرب مثلاً لهذه الروعة بمنبر الكتبية الذي يرجع إلى عبد المومن (المسند الصحيح الحسن ص ٦٥ سنة ٩٢٥ هسبري والذي قارنه ابن مرزوق بمنبر جامع قرطبة واعتبره طيراس وباسي (Terrasse et Basset) « أجمل ما أبدعه الغرب الإسلامي بل العالم الإسلامي » ولعل الوحدة السياسية التي حققتها الدولة البربرية في المغرب الكبير قد تجلت خاصة في تجديد الاتصال بين الفن المغربي الأندلسي والفَنّيْن المصري والعراقي السائديْن في بجاية ومهدية وتونس الخضراء - وليم مارسي في كتابه حول تاريخ الفن الإسلامي - وقد تعززت بذلك الوصلة الحضارية بين جناحي العروبة واندرجت في المجتمع المغربي مصطلحات كانت عصارة الاحتكاك الموصول طوال خمسة قرون وبذلك يكون في وسعنا اعتباراً لهذه المعطيات أن نستخلص بعض الاتجاهات الاجتماعية والاقتصادية من خلال أسماء الحرف التي ظلت إلى القرن الحالي الصناعة الأساسية لنصف سكان الحواضر[٤].

فمصطلحات الحرف بمراكش كانت تحتوي نظراً لقرب العاصمة من الصحراء على كلمات بلدية أو حضرية معدودة[٥] مثل بعدي (أي إسكافي بدوي) وخطاطري (حفار الخَطَاطِر أي السواقي الصحراوية) وتكموتي (صائغ) وقراشلي (حلاّج) في حين كانت تزخر بالألفاظ العربية التي حرف بعضها تسهيلاً للنطق بها مثل:

بامهاود (أي حَكَم يتدخل بين الناس للمهاودة) ومواكني (مصلح المنجانات) وغواسلي (بائع الغاسول) وظل معظمها مما ينيف على المائة في قالبه

---

(٤) راجع إحصاء قام به ماسينيون عام ١٩٢٣ - ١٩٢٤ (الحناطي الاسلامية - باريس ١٩٢٥ ص ٣٨) وقد كان نظام الحناطي (أي النقابات العمالية (يتسم في جميع العصور بطابع الحرية حيث ظل المخزن أي الحكومة يحترم مبدأ الحرية التجارية والاقتصادية قبل صدور ظهير ١٩١٧ القاضي بتنظيم البلديات. وكذلك كتابنا « معطيات الحضارة المغربية ج ٢ ص ٧٨.

(٥) الجاحظ يسمي العامية لغة المولدين أو البلديين (البيان والتبيين ج ١ ص ١١١).

العربي الفصيح مثل التبان (بائع التبن) والحرار والحراث والحمار والحمائمي (بائع الحمام) والخراط والرحوي (صاحب الرحى المائية) والطاحوني (صاحب المطحنة أو المطاحن التي تدار بحركة بغل أو حمار) والرخايمي (صانع الرخام) والزيات والسفاط (صانع الاسفاط أي السلال) والعشاب والقطارني (بائع القطران) واللباد (صانع اللبد) راجع الملحق في آخر الكتاب ـ.

* * *

أما مصطلحات الحرف والمؤسسات العمومية وغيرها بفاس فإذا استثنينا بعض الدخيل فإن الكلمات البربرية أقل بينما تظهر ألفاظ خاصة مثل:

مقدم الحومة ودار المعلمة (وهي مدرسة لتعليم الخياطة والتطريز للبنات) وشيوخ الفرحة (وهم خبراء في الشؤون الزراعية من أصل أندلسي) ودار العميان والمرقطان وسوق الفرش (أي صنع المخاد والحشايا) ومعاصر الزيت وكعب غزال (فارسي) والبَلاجة (صانعو الاقفال) وصناع الأسلحة الاختصاصيين مثل الجَعايبِيَة (لصنع جعاب المسدسات) والسْرايرية (لصنع مقابضها) والجَوَابِين (لصنع الأغمدة) والصقالة والذهابين والسكاكين والْبَراوْلِيَة (باعة خيوط الحرير) والزّرادخِيَة (باعة القماش من نوع الزردخان) والنيارة (صانعو نول النساج) وإذا أخذنا مثلاً لباقي المدن المغربية في شخص أصغر مدينة وهي ميناء «أزمور» لاحظنا وجود معظم هذه الحرف عدا التنويع في النسيج وحرف جديدة كحرفة البَغّازة وهم بائعو السمك بالجملة والشّراحة وهم مجففو الحوت).

وهنالك ألفاظ مغربية أندلسية مبتكرة مثل: القبال والقابض بدل الجمركي والجائبي وقد استند السيد محمد كرد علي لهاتين الكلمتين للتدليل على أصالة الإبداع اللغوي في المغرب والأندلس (عجائب اللهجات ـ مجلة مجمع اللغة العربية ج ٧ ص ١٢٨ عام ١٩٥٣) ويلوح لأول وهلة من مقارنة نوع المصطح في عاصمتي الشمال والجنوب مدى تأثر فاس بالحضارة الأندلسية حيث بدأت

تظهر مؤسسات اجتماعية واختصاص أدق في بعض المرافق الصناعية بالعاصمة الإدريسية ولا بدع في ذلك إذا أعتبرنا أن مدينة فاس أصبحت في عصر الموحدين «حاضرة المغرب» الفكرية اجتمع فيها علم القيروان وقرطبة («المعجب في تلخيص أخبار المغرب» - طبع بسلا عام ١٣٥٧ هـ - ١٩٣٨ م- ص ٢١٣ - ٢٣١ - لعبد الواحد المراكشي). «ولا يوجد في الدنيا أكثر مرافق وأوسع معايش وأخصب جهات منها» - كما يقول المراكشي بشيء غير قليل من الغلو

على أن الفن بفاس أصبح مزيجاً للكثير من العناصر العربية فإذا ضربنا مثلاً بالزليج الذي عرف في الشرق بالفسيفساء لاحظنا أنه نوع من الترصيع الخزفي أصله من الأندلس كان يصنع منه بالأندلس نوع من المفضض المعروف في الشرق بالفسيفساء (النفح نقلاً عن ابن سعيد ج ١ ص ١٨٧) والترصيع هو التكفيت (كلمة تركية لها مرادفات منها التلبيس والترحيب والتزبل أصحها عند العرب في العهد العباسي التطبيق وفن الترصيع سوري في أصله يعرف بأوربا إلى الآن بالفن الدمشقي، Damasquinage وقد دخل الفن العربي إلى إيطاليا وبعد الحروب الصليبية غزت المنسوجات العربية الأقطار الأوربية حتى أضطر أحد ملوك فرنسا إلى تحديد إيرادها «أعراف المسلمين وعاداتهم» ص ٢٤٧).

وقد شمل التعريب معظم المواد والآلات والأجهزة والأدوات التي استعملها الصانع المغربي إلى العصر الحديث ويكفي إلقاء نظرة على معجمنا «الأصول العربية في العامية المغربية» للتعرف على مدى فصاحة الاستعراب في هذه المفردات التي نجد منها في الصفحات الأولى للمعجم ألفاظا كالأشفي (مخرز الاسكافي) والبريمة والبرمة والبرميل والبوطة والبلور والتبان والترس وتفصيلة الثوب وتكريشه (تقبيضه) والتكة والتنجرة والتومة (القرط) والثلج والحَنْبل (لفظة يمنية) والحَنُوط والخرقة والخَميرة والخنجرة.

ثم إن الفكر العلمي الأندلسي الذي حماه البلاط الموحدي بمراكش لم يكن ليخلو من مظاهر اجتماعية تمثله مثال ذلك البيمارستان ـ نفس المصدر ص ١٧٧ ـ الذي احتوى بمراكش على «النقوش البديعة والزخارف المحكمة» وغرست فيه «الأشجار المشمومات والمأكولات» وأجريت فيه «مياه كثيرة تدور على جميع البيوت زيادة على أربع برك في وسط إحداها رخام أبيض» وما له من «الفرش النفيسة من أنواع الصوف والكتان والحرير والآدم» وتزويده بالأدوية والصيادلة «لعمل الأشربة والأدهان والأكحال» مع ثياب الليل والنهار للمرضى ومجانية العلاج ورعاية المنصور الموحدي الشخصية له بزيارة أسبوعية لتفقد حال المرضى وقد أشاد مؤرخ فرنسي معاصر بهذا المستشفى الذي بذ في نظره مستشفيات باريس في عنفوان القرن العشرين ـ «الموحدون للسيد ميليه ـ طبعة ١٩٢٧».

وقد بلغ المصطلح العلمي أوجه في هذه الفترة التي آوى خلالها العرش المغربي في ظلال مراكش الحمراء أقطاب الفكر الأندلسي الذين مهدوا بكشوفهم العلمية في شتى الميادين عهد النهضة والإنبعاث بأوربا حيث ظلوا أساتذتها المرموقين طوال قرون.

★ ★ ★

أما المرينيون الذين كانت لهم أرقى المقومات الملكية بالمغرب وأغناها وأحقها بتبني التراث الموحدي في إفريقية والأندلس فإن مغربهم الزاهر كان منطلق الإشعاع في مجموع الشمال الإفريقي[٦]، حيث تبلورت مدنيتهم الحضرية في أروع ما عرفه المغرب الكبير من حواضر ومساجد ومعاهد وقبب وفنادق ومدارس وملاجيء وحمامات وقناطر وحصون وخاصة في عهد أبي الحسن

---

(٦) مارسي (Marçais) في كتابه (L'Art dans L'Islam) الفن في الإسلام ص ١٣٤ وقد ظهرت في هذا العصر نتيجة للتأثير الغرناطي الموسيقي الأندلسية بمصطلحاتها، وبعض التعابير القانونية، مثل الظهير بمعنى المرسوم الملكي (صبح الأعشى) للقلقشندي ج ١٠ ص ٢٩٩).

المريني (١٣٣١ - ١٣٥١) الذي يعتبره الغربيون أقوى عاهل في القرن الرابع عشر وقد كان لتزاوجهم الحضاري مع غرناطة النصرية وارثة الاندلس ذيول عززت التراث المشترك الذي ما لبث أن انتقل بكامله مع رجال المهجر إلى المغرب ليشكل الحضارة المغربية الأندلسية الموحدة.

وقد أسهم العلماء والأدباء في الصناعة والتجارة مما أكسب الكثير من المصطلحات طابعاً فصيحاً ومنها محمد الغساني الذي كان تاجراً بقيسارية «أسفي» يدير حانوته بعد الفراغ من تدريس الموطا والسيرة والنحو والآداب واللغة، وهو من رجال القرن السابع (توفي عام ٦٦٣ هـ (الذيل والتكملة) ومنهم كذلك العلامة محمد بن عبد الله معن الذي كان يتمعش (كلمة مغربية معناها يتعيش) بمعمل دود القز بفاس (نشر المثاني في ترجمة علماء القرنين الحادي عشر والثاني ج ١ ص ١٩٧).

وقد ظهرت في الحقل الاجتماعي لأول مرة مدارس هي عبارة عن أحياء جامعية مجانية للطلبة في مختلف المدن كفاس وتلمسان والجزائر، علاوة على قصور فخمة تجلت فيها مهارة المهندسين والفنانين في تصميم معماري محكم، ويمكن أن نقدر من خلال وصف لأحد هذه القصور[٧]، حيث أشار ابن مرزوق إلى وضع تصميم معماري لهذا القصر وصفه بأنه رسم في كاغد لتقدير الساحة (أي المساحة)، ومدى تطور المصطلح الفني والأنواع الجديدة من أرباب الصناعات كالبنائين والنجارين والجباسين والزليجيين والرخامين والقنويين والدهانين والحدادين والصفارين «والجدران المنقوشة بالجبس والزليج والأرز المحكم التجارة والصناعات المشتركة (كالتوريق والتسطير أي على شكل أوراق وسطور) مع فروش الرخام والزليج وطيافير (فسقيات) المرمر والقبب والخوخ (أي الأبواب) والخزائن بنحاسها المموّه بالذهب والحديد المقصدر.

---

(٧) نخب من «المسند الصحيح الحسن في مآثر أبي الحسن» لابن مرزوق.

غير أن هذه المظاهر الحضارية لم تتجاوز المدن لأن البادية (أي الأرياف والسواد) ظلت نسبياً في معزل عن تياراتها بسيطة في سكنها ومطعمها وسلوكها قد حفظت تراثاً لغوياً أصيلاً ما زالت الحواضر تطعمه تدريجياً إستجابة لمقتضيات العصر، وسنرى كيف أن قبائل عاشت في أرباض عواصم كرباط الفتح، ظلت عالقة إلى عهد حديث بتراثها اللغوي الجاهلي الخالي من أبة شائبة، الأمر الذي أسفر عن نوع من الخلل بين المصطلح الكلاسيكي القديم ومولدات العصر الحديث.

وقد توفرت هذه المجالي الحضارية ولوازمها اللغوية العربية التركية في العصر السعدي عندما اقتبس المغرب بعض الأنظمة العسكرية العثمانية كما دخلت إلى المغرب أفواج المهاجرين الاندلسيين[٨].

وبلغت في مدن كتطوان أربعين ألفاً فيهم الأديب والعالم والفنان والعامل المختص والتاجر والفلاح وإذا كانت هذه المظاهر تنعكس على العادات الإجتماعية والمآثر العمرانية، فإننا نلاحظ في خصوص الأزياء مثلاً أن سكان حواضر إندلسية مثل فاس وتطوان والرباط، أصبحوا يضعون على رؤوسهم قلانس حمراء قد لفت عليها عمامة تتوسطها شوشة زرقاء (أي نوّاسة) بعد النفي العام أوائل القرن السادس عشر الميلادي، لأن الشوشة الزرقاء لم تكن معروفة بالأندلس قبل عصور التفتيش الصليبي (Inquisitions)، حيث أجبر الأسبان العرب المُمَسّحين على التميز بشارة زرقاء.

---

(٨) في عام ١٠١٩ هـ هاجرت ألوف الأندلسيين إلى فاس وألوف الى تلمسان وجهورهم من تونس فتسلط عليهم الأعراب ونهبوا أموالهم في تلمسان وفاس وسلم أكثرهم في تونس وتطوان وسلا وفسحة الجزائر ووصل جماعة إلى قسطنطينية العظمى ومصر والشام (نشر المثاني عن النفح ص ١٠١).

ولباس البياض[٩] وكان في مناسبات وفصول خاصة، هو أيضاً عادة أندلسية حيث كان هؤلاء يخلعون الثياب الملونة ويلبسون البياض إبتداء من يوم المهرجان، أي ٢٤ يونيه وذلك إلى أول أكتوبر خلال ثلاثة أشهر متوالية (النفح ج ٢ ص ٧٥٢).

* * *

أما في الحقل العمراني فإن «قصر البديع» الذي استغرق بناؤه زهاء العشرين سنة (٩٨٦ هـ - ١٠٠٢ هـ)، يبرز لنا مدى التطور الحاصل في الفكر الحضاري ولغته، فقد ظهرت مع فنون طريفة مصطلحات جديدة كالرخام المجزع والزليج الملون والقباب الخمسينية، كتبت في أبهائها الأشعار بمرمر أسود في أبيض تذكرنا بروائع الأندلس:

وهي التي فيها خمسون ذراعاً بالعمل، أي بالنقش وكانت الجدران تحلى أحياناً بأنواع التطريز ومنه النوع الفاسي الذي هو سوري الأصل، وفي سلا نماذج من أصل فارسي أو شامي ويلاحظ في تطريز الرباط تأثير الأنسجة الأوروبية، وكذلك في أزمور التي يرجع تاريخ نماذجها الاسبانية الايطالية إلى القرن العاشر الهجري (مجلة هسبريس Hesperis ج ٢١ عام ١٩٣٥) ويوجد بفاس تطريز علجي الأصل أدخلته إلى المغرب النساء التركيات أو الجركسيات اللواتي تسرى بهن أهل فاس أما التطريز التطواني فهو من أصل بلقاني.

فمن شعر أبي فارس عبد العزيز الفشتالي يصف فنَ تلك الروائع المعمارية:

فكأنها والتبرُ سال خلالها ... وشيٌ رفضةُ تُربِهَا كافور
وكأن أرض قراره ديباجة ... قد زان حسن طرازها تشجير

---

(٩) وكان لباس الحزن في الأندلس (الإحاطة جـ ٢ ص ١١٣) وأول من اتخذه الأمويون (محاضرة الأوائل ص ٢٥) ولبست بغداد أيضاً البياذن في الحزن) تاريخ ابن العزات جـ ٤ ص ٦٤).

وكأنّ موجَ البِركتين أمامه حركات سُحْب صافحته دبور
صفت بضفتها تماثل فضة ملك النفوس بحسنها تصوير

وقد كتب بجدران المصرية المطلة على الرياض:

باكر لدي من السرور كؤوسا وأرض النديم أهله وشموسا

والمصرية هي الغرفة الواقعة في طبقة عليا ولعل لوجود طبقات في الأبنية منذ القديم بمصر أثراً في هذه التسمية وقد ذكر ابن جبير في رحلته، أن دور القاهرة كانت في القرن السادس مثل دور الاسكندرية، من طبقات تصل إلى الثمانية، أما في الفسطاط فإن الطبقات كانت تبلغ الأربع عشرة حسب الرحالة الفارسي ناصر خسرو الذي زار مصر في القرن الخامس، بينما ذكر المقريزي أنها من ثماني طبقات فقط (الخطط ج ١ ص ٣٦١).

وكان هذا الإطار العمراني الرائق مسرحاً لحفلات شعبية بمناسبة حفلات ذكرى المولد النبوي يجري خلالها إعذار أبناء المعوزين ويتبارى الشماعون في تطريز شموع يحملها صحافون - كما يقول الفشتالي في «مناهل الصفا» - محترفون بحمل خدُور العرائس عند الزفاف وهي على رؤوسهم كالعذارى، تتبعها الأطبال والأبواق وأصحاب المعارف والملاهي، حتى تستوي على منصات بالديوان الشريف حيث يقعد السلطان على أريكته وعليه حلة البياض شعار الدولة، وأمامه شموع بيض كالدمى، وحمر جلّيت في ملابس أرجوان وخضر سندسية في حَسَك (أي شمعدان) ومباخر، ترنم خلالها نوبات منشدي المولِديات وأشعار الصوفية، وتتلى قصائد شعراء الدولة بغزلها ونسيبها ومديحها للرسول عليه السلام، وللسلطان وولي عهده في تراتيب يتقدمها قاضي الجماعة ثم الإمام المفتي ثم الوزير ثم الكتاب المخزنيون ويختم الحفل بنشر «خوان الأطعمة والموائد» «وتوزيع الأعطيات».

وكأن هذه القصور الباذخة في فرشها الحريرية ونمارقها المصطفة وأستارها وكللها وحجالها المخوصة بالذهب وحائطياتها ووصفاتها وأعلاجها بأقبيتهم المخوصة (الخوص ورق النخيل) ومناطقهم المرصعة وحزمهم المذهبة - صور

حية لفخفخة استمرت معالمها في القرن العشرين، في بلاط الملوك العلويين وقصور الأثرياء حيث استعيض عن القصاع المالقية البلنسية المذهبة، وعن الأواني التركية والهندية والطسوت والأباريق والصحاف ومباخر العنبر والعود الشرقية، بأوعية لا تقل روعة قد جلبت من مختلف أنحاء الدنيا شرقاً وغرباً، لتضفي هالة من الجمال والسناء على محافل نشرت فيها كالماضي «أغصان الريحان الغض وماء الزهر والورد» - كما استبدلت بنوبات المنشدين، نوبات الموسيقى الأندلسية الرائعة التي تسحر الألباب بنغماتها المشجية وتلاحينها الأخاذة وألوانها وطبوعها الخمسة والخمسين وتوشيحاتها التي تتردد في حنان وخشوع على ألْسِنَة الخاصة والعامة لتسهم في تحريك نبرات القلوب، وتوعية الروح وتأجيج الشعور وتوفير الثراء اللغوي في الدارجة والفصحى على السواء، فكم من تعابير تخللت الألحان كانت أرسخ في البواطن، وأملك للوعي! وكم من أغنيات ساحرة رددها الرضيع في حبوة وربة الخدر في حجلتها، كان أثرها أوقع في النفس، ولفظها أعلق باللسان من كل قصيد يلقن في الكتاب، أو درس لغوي يلقى في حلقات العلم!

★ ★ ★

وإذا كان عهد السعديين قد نضدت معالمه بالزخارف المعمارية والروائع الاجتماعية، فإن عهد العلويين الذي أقيمت فيه نفس القصور والبساتين، مثل دار الهنا والدار البيضاء والصالحة والزاهرة وجنان رضوان «وأجدال» بنفس البذخ قد اتجه إلى دعم الكيان بالقصبات والقلاع، ومن أروع ما يبدهك في قصر من هذه القصور، كقصر الرياض بمكناس عاصمة المولى إسماعيل، جمعه بين فخفخة البلاطات الملكية وضخامة التحصينات بأبراجها ومدافعها إزاء البرك الفياضة للتموين والإنبساط معاً في فلكها وزوارقها.

وكانت أهراء القصر تضم إثني عشر ألفاً من خيل الجهاد، وعشرات المستودعات زاخرة بمؤن تكفل للبلاد اكتفاء ذاتياً وميزاناً تجارياً متوازناً، وقد بدأنا، بالرغم عن أصالة اللغة العربية بالمغرب، نسمع في معماريات

العلويين وعمرانياتهم مصطلحات جديدة فيها الكثير من الدخيل، كالقنانيط (أي إلهياكل). المَقْبُوة في الأهراء والاصطبلات المسقفة بالبرشلة (وهي نوع من الروافد والعوارض Pigeon)، وسواقي الماء الدائرة (أي النوافير المائية) «والقراميد» علاوة على المولدات العسكرية والدبلوماسية واتخاذ الأشبار (أي حفر الخنادق الحربية) وصنع البارود والكور والبنب (أي القنابل والقذائف) ونصب المهاريس والكراريص (أي المدافع المجرورة والضوبلي أو المدفع المزدوج) لتحرير الثغور المحتلة وبعث «الباشدورات» إلى «طواغية» (جمع طاغية) الأصبنيول أو البرتغال أو «النجليز» لإحكام الصلح» ومفاداة الأسرى البلوط بالبلوط واليكانجي باليكانجي والبحري بالبحري دعماً للطبجية (أي المدفعية) والبحرية المغربية بغلائطها (سفنها الحربية) وفراكطها (أي حراقاتها) (Frégates) ومراكبها القرصانية.

استعمل الناصري في تاريخ المغرب هذه المصطلحات التي بدأ يستعملها آنذاك سلفه من المؤرخين، وقد استعرض الناصري (ص ٢٢٤) النظام العسكري عند الأتراك، فلاحظ أن أهم ما يمتازون به هو العزوف عن العادات الأجنبية والمصطلحات العجمية، حيث «عمت المصيبة في عسكر المسلمين بالتخلق بخلق العجم، وإذا كان أصل العمل مأخوذاً عن العجم فليجتهد المعلم الحاذق في تعريبه». (راجع الاستقصا الجزء الرابع).

ودخلت إلى المعجم المغربي بجانب ذلك عشرات المفردات مثل الكشينة والباصبورط (الجواز) والطنبور والكرنتينة (المحجر الصحي) والمحلة (أي المعسكر) وصاكة الأمشار (أي رسومها) وصقالة (أي برج) والتوافل (الرماح) وتفرقع البنب (أي انفجار القنابل) والبستيون التي ظهرت هي وسنجق في عهد السعديين - وأنواع النقود كالبندقي في أربعين أوقية من الذهب والضبلبون (Doublon) في اثنين وثلاثين من الريال (الريال Real فيه عشرون أوقية والبسيطة (خمس أواق) والموزونة (ربع الدرهم الرباعي أي نصف القرش) والسنجق وبقسماط (بسنكويت) وكل تلك مظاهر للعجمة التي

بدأ المجتمع المغربي يتسم بها، كما يقول الناصري[٩] حيث اتخذ ذوو اليسار المراكب الفارهة والكسى الرفيعة والذخائر النفيسة، ونأنقوا في البنيان بالزليج والرخام والنقش البديع، لا سيما بفاس ورباط الفتح، ولاحت على الناس سمة الحضارة الأعجمية» التي تعززت مع ذلك بمقتبسات غربية صالحة مثل فابريكة (أي مصنع) السكر «وفابريكة تزديح البارود» بمراكش «وبرج الفنار» (لتوجيه السفن في البحر) بأشقار قرب طنجة «وبابور البر» (القطار الحديدي) والتلغراف إلى غير ذلك.

وهكذا بدأت تتجلى في الأفق المغربي على عتبة القرن العشرين مصطلحات استعملها المغرب في قالبها الإفرنجي دون تعديل، وسنرى، بحول الله خلال حديثنا عن تطور هذا الدخيل خلال الحماية وبعد الاستقلال، كيف تمت وحدة نسبية بين جناحي العروبة، عندما ظهرت الصحافة المغربية، وأشرأبت الأعناق إلى ما برد من الشرق العربي، وخاصة من الشام ومصر حيث انبثقت حضارة طريفة ضمت إلى جوهر الإسلام ومعطياته، جوانب من الفكر الغربي الحديث.

---

(٩) الاستقصا جـ ٤ ص ٢٣٣ يصف الوضع بالمغرب عام ١٢٩٠ هـ (أي في عهد نابليون الثالث) بنماذج من إنتاجه كالسروج المذهبة والمناطق المزخرفة والقطائف المنمقة والزليج القاسي والمعلمين الذين يباشرون ترصيفه (الاستقصا جـ ص ٢٣٣).

تطور الفكر واللغة من خلال الثقافة

١ - اللغة والأدب:

لعل أول انطلاقة أدبية بلغة الضاد في المغرب الأقصى هي خطبة طارق بن زياد المشهورة التي أنذر فيها الجيش البربري الفتي بأنه أصبح في الأندلس «أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام» وهي خطبة حماسية أقرب إلى صرخة عسكرية بألفاظ نارية، ومر نحو القرن (٩٢ هـ ١٨٨ هـ) بين انطلاق الفاتح البربري نحو الأندلس، واعتلاء إدريس الثاني العرش، خلا المغرب في غضونه من أي جو أدبي لأن العربية نفسها كلغة ظلت تتعثر، فلذلك كانت خطبة العرش الإدريسية هي الانتفاضة الأدبية الثانية، ألقاها وهو ابن إحدى عشرة سنة، وكان راشد مولاه هو الذي أقرأه القرآن وهو ابن ثماني سنين ثم علمه الحديث والسنة والفقه والدين واللغة ورواية الشعر وأمثال العرب وحكمها (الاستقصا ج ١ ص ٧٠).

وقد ورد فيها بعد الديباجة المألوفة:

«إنَّا قد ولينا هذا الأمر الذي يضاعف للمحسن فيه الأجر وللمسيء الوزر، ونحن والحمد لله على قصد جميل، فلا تمدوا الأعناق إلى غيرنا، فإن ما تطلبونه من إقامة الحق إنما تجدونها عندنا».

وما لبث أن والى خطبه الرائعة كالتي ألقاها عندما فرغ من بناء فاس حيث قال:

«اللهم إنك تعلم أني ما أردت ببناء هذه المدينة مباهاة ولا مفاخرة ولا سمعة ولا مكابرة وإنما أردت أن تعبد فيها ويتلى كتابك وتقام حدودك».

فهاتان الخطبتان وإن كانتا عاديتين في أسلوبهما، فإنهما مع ذلك ترمزان إلى مدى نفوذ العربية خلال القرن الثاني الهجري في المغرب، ولا سيما وأن المولى إدريس كان لا يزال شاباً يافعاً قد تربى في بيئة بربرية، غير أن الوسط الضيق الذي عاش فيه كان عربياً في روحه ولغته قد دعم بمئات من الحرس القيسي واليمني علاوة على أدباء أمثال وزيره عمرو بن مصعب الأزدي وقاضيه عامر القيسي تلميذ الإمام مالك وكاتبه عبد الله الخزرجي.

وبدأت منذ هذا العصر أفواج المغاربة تتجه نحو الشرق للحج، فتقطع الفيافي طوال شهور مجددة الصلة بالعلماء والأدباء، من الجزائر إلى مصر إلى اليمن والحجاز، لدعم أسانيد الغرب بأسانيد الشرق في التفسير والحديث والفقه والتصوف واللغة والأدب، وكان البعض يستقر في حواضر شرقية فترة تقصر وتطول حتى تقوى ملكته في الأدب واللغة، فإذا عاد إلى المغرب كان إسهامه أوفر وأبلغ في تحقيق التروج الفكري بين جناحي العروبة والإسلام غير أن الفكر الأدبي في هذه الفترة، كان لا يزال في مخاض قد طغت عليه الاتجاهات الدينية والفقهية والعقائدية، فسمكو المدراري بسجلماسة قد سمع من عكرمة في نفس الوقت الذي أخذ محمد القيسي عن مالك وسفيان.

وحمل أبو جيدة الفاسي في أوائل القرن الثالث التفاريع المذهبية فكان التبادل محدوداً بين الشرق والغرب، عدا عن طريق الأندلس، إلى أن انبثق العهد البربري حيث بدأت رحلات رسل الفكر تتوالى من الشريف الإدريسي إلى ابن جبير وابن رشيد والعبدري وابن بطوطة وابن خلدون والحسن والوزان ومئات الآخرين[1] الذين أثاروا إعجاب زملائهم في العواصم الإسلامية بما أنتجته قرائحهم وأبدوه في مناظرتهم من عمق في الإدراك وبعد في النظر ودقة في التحليل، في أسلوب كلاسيكي أمسى موحداً حتى ليعسر على القارىء أن يتبين بوضوح جنسية الكتاب والقصيد والخطاب لتناسق المصطلحات وتجاوب الدلالات.

(١) راجع بحثنا «رسل الفكر بين المغرب والمشرق» (معطيات الحضارة المغربية جـ ١ ص ٧٢).

وإذا كانت هنالك فروق نسبية في منهجية التفكير وألْوان التعبير فهي تكمن خاصة في الدراسات العلمية التي سنستعرض بحول الله جوانب منها من خلال الكشوف المستحدثة في الإطار المغربي.

وقد بلغ التجاوب مبلغاً، حدا بعض نقاد الفكر إلى التنظير بين أدباء وشعراء من الشرق والمغرب الأقصى والأندلس، فمنذ العصور الأولى حدثنا البكري عن محمد بن حبوس الفاسي، الذي نهج في منحاه الشعري نهج محمد ابن هانىء في «قصد الألفاظ الرائعة والقعاقع المهولة وإيثار التقعير»، بينما لقب ابن هانىء بمتنبي المغرب، وكان الشرق يتغنى بشعر المغرب، والمغرب يردد تلاحين الشرق، فهذا أبو هارون موسى بن عبدالله الأغماني الذي بلغ في جولته بلاد سمرقند يقول:

لعمر الهوى إني وإن شطت النوى ... لذو كبد حرى وذو مدمع سكب
فإن كنت في أقصى خراسان ثاويا ... فجسمي في شرق وقلبي في غرب

هذا المهدي بن تومرت يتمثل دوماً بقول المتنبي:

إذا غامرت في شرف مروم ... فلا تقنع بما دون النجوم

ومن شعره:

أخذت بأعضادهم إذ نأوا ... وخلفك القوم إذ ودعوا
فكم أنت تنهى ولا تنتهي ... وتسمع وعظاً ولا تسمع
فيا حجر السن حتى متى ... تسن الحديد ولا تقطع؟

وكأنك وأنت تسمع خطاب أحمد بن عطية لعبد المومن الموحدي، تتلمس نبرات شعر الحطيئة وهو يتشفع إلى عمر بن الخطاب في فلذاته:

وصبية كفراخ الورق من صغر ... لم يألفوا النوح في فرع ولا فَنَن
قد أوجدتهم أياد منك سابقة والـ ... ـكل لولاك لم يوجد ولم يكن

وإذا استثنينا محاولات نادرة فإن المغرب لم ينجب فحولا أمثال المتنبي والبحتري وأبي تمام، ولا أمثال ابن خفاجة الأندلسي في وصف الطبيعة:

* * *

ومن هذه المحاولات التي اكتفت بوصف حركات خارجية، دون استبطان الخواص الدقيقة واستكناه الخلجات، قول ابن مجير يصف خيل المنصور وكأنه يستعرض ما استعرضه الثعالبي في «فقه اللغة» من تراتيب وتدرجات في الألوان مع مجاز رقيق:

عرائس أغنتها الحجول عن الحلى ... فلم تبغ خلخالا ولا التمست وقفا
فمن يقف كالطرس تحسب أنه ... وإن جردوه في ملاءته التفا
وأبلق أعطى الليل نصف إهابه ... وغار عليه الصبح فاحتبس النصفا
وورد تغشى جلده شفق الدجا ... فإذا حازه دلى له الذيل والعرفا
وأشقر مج الراح صرفا أديمه ... وأصفر لم يمسح بها جلده صرفا
وأشهب فضي الأديم مدثر ... عليه خطوط غير مفهمة حرفا

وهذا التسراد اللغوي الذي لم يكن يخلو من روائع بديعية قد انعكس على لغة العامة في مزاولاتها اليومية، حيث دخلت في معجمها الدارج، أسماء عشرات الألوان كالأدكن والأبلق والأرقط والأشخم والأشقر والأشهل والأغر والمبرقش والخمري والبربش (أي مختلف الألوان)، وإننا لنقتصر على نماذج قليلة من معجمنا «الأصول العربية والأجنبية للعامية المغربية».

وتتسم خطب السياسيين المرابطين منهم والموحدين بالطابع الصوفي مع الضرب على نفس الأوتار، فمن قول عبد الله بن ياسين:

«إياكم أن تجبنوا وتفشلوا فتذهب ريحكم وكونوا ألفة وأعوانا على الحق وإخوانا في ذات الله وإياكم والمخالفة والتحاسد على طلب الرياسة».

ومن نداء وجهه المنصور الموحدي لجيشه بالأندلس يحضه على الاستماتة:

«شمروا عن ساعد الجد معاشر المسلمين في جهاد المشركين فمن مات منكم مات شهيداً، ومن عاش عاش غانماً مأجوراً حميداً».

ففي كليهما لون من المفاهيم وضرب من التعابير كاد يصطبغ بها الأدب في شتى مجاليه، فاستمع للقاضي أبي حفص بن عمر يتحدث عن علم القدماء:

« إياكم والقدماء وما أحدثوا فإنَّهم عن عقولهم حدثوا أتوا من الافتراء بكل أعجوبة وقلوبهم عن الأسراء محجوبة ».

ومما أمتازت به الإخوانيات عند أهل المغرب كون الخطاب فيها خطاب المواجهة مثل أنت وأنا... وربما خاطبوا الواحد بميم الجمع... قال ابن شيت في معالم الكتابة ولا يعرف ذلك لغيرهم (صبح الأعشى ج ٨ ص ١٤٨).

ومن الإخوانيات التي ضاهت أروع ما عرفه الشرق في العصر الفني للنشر، رسالة للقاضي عياض إلى الفتح بن خاقان جاء في مطلعها:

« عمادي أبا نصر مثنى الوزارة ووحيد العصر هل لك في منة تفوت الحصر تخف محملاً وتبلغ أملاً وتشكر قولا وعملا شكراً تَتَرَنّم به الحداة ثقلاً ورملاً... إلخ ».

وأخرى من ابن هانىء السبتي متنبي المغرب أجاب بها أبا القاسم الشريف عن قصيدة أهداها إليه جاء فيها:

« ...والآن لا ملهج ولا مبهج ولا مرشد ولا منهج، عكست القضايا فلم تنتج فتبلد القلب الذكي وعم الإفحام وغم الإحجام وتمكن الأكداء والأجبال، وكورت الشمس وسيرت الجبال وعلت سآمة وغلبت ندامة وارتفعت ملامة، وقامت لنوعي الأدب قيامة، حتى إذا ورد ذلك المهرق وفرع غصنه المورق، تغنى به الحمام الأورق، وأحاط بعداد عداته الغصص والشرق، وأمن من الغصب والسرق، وأقبل الأمن وذهب لإقباله الفرق... ».

ويلاحظ هنا استعمال ابن هانىء لكلمة مهرق وهو صحيفة بيضاء أو ثوب الحرير الأبيض يسقى الصمغ ويصقل ثم يكتب عليه، وقد قابل به مجمع مصر كلمة Stencil (ستانسل).

★ ★ ★

لم يكد يبزغ فجرُ العصر المريني حتى بدأ المزيج الأندلسي المغربي يتبلور، فظهر علاوة على ابن خلدون أمثال ابن الخطيب وابن زمرك وعشرات الشعراء والمؤرخين والأدباء الذين أذكت شعورهم نكبات الفردوس المفقود، وقد أفاد الأدب المغربي من هذا الفيض، الذي غمر العواطف وأنطق الألسنة وحرك الأقلام وأسال الشاعريات، ولعل من أروع ما نظم في هذا الباب، الملحون الذي نظم منه الشيء الكثير، أمثال الشيخ محمد ابن عبد الرحيم بن يجيش التازي، والشيخ المجاهد محمد بن يحي البهلولي الذي قرض إلى جانب ذلك أشعاراً وزجليات تترقرق عاطفة وحماساً.

وكان نحيب الشعراء ينسكب في مراثي محزنة كلما استولى العدو على مغنى من مغاني الأندلس، أو مربع من مرابعه، ولعل من أشد القصائد تأثيراً تلك التي نظمها شاعر مغربي أو أندلسي مجهول لم يعثر على اسمه حتى الآن، لما فيها من المعاني الجريئة وقوة الحماس ومرارة الوقع، وقد قيلت بعد سقوط طليطلة. منها:

لتُثْكَلْ كيف تبتسم الثغور ... سروراً بعد ما يئست ثغور
لقد خضعت رقابكن غلباً ... وزال عتوها ومضى النفور

إلى أن قال:

لا تهنوا وسلوا كل عضب ... تهاب مضاربنا منه النحور
أنترك دورنا ونفر عنها ... وليس لنا وراء البحر دور؟
رضوا بالرق يالله ماذا ... رآه وما أشار به مشير

وقال الإمام السهيلي عندما خرب العدوُّ مسقط رأسه سهيل:

يا دار أين البيض والآرام ... أم أين جيران علي كرام
راب المحب من المنازل أنه ... حي فلم يرجع إليه سلام

وكان أبرز ما يُمتدح به الملوك إباؤهم وسهرُهم الدائب على حفظ كيان الوطن ولو أدى بهم إلى تقلد الحسام والاستشهاد، فقد قال أبو بكر محمد بن

صاحب الصلاة عندما قام خطيباً في وفد الأندلس أمام الأمير عبد المؤمن الموحدي:

هم الألى وهبوا للحرب أنفسهم وأنهبوا ما حدث أيديهم الصفدا

وقد كان لأمثال هذه الحماسيات أثر بليغ حيث أذكت نفوس الجماهير وألهبت إحساسهم وأهابت بالملوك لنجدة الأندلس المهدد، حتى قال ابن الخطيب موجهاً مديحه لسلطان المغرب أبي عنان المريني:

والناس طرا بارض أندلس لولاك ما وطنوا ولا عمروا
وجملة الأمر أنه وطن في غير عليائك ماله وطر

وقد آوى ملوك المغرب لاجئي الأندلس، ومهدوا لهم سبل الحياة الناعمة حتى قال أبن زمرك متشكراً للسلطان أبي سالم المريني:

كم من طريد نازح قذفت به أيدي النوى في الفقر رهن سفار
بلغته ما شاء من أمواله فسلا عن الأوطان بالأوطار
صيرت بالاحسان دارك داره متعت بالحسنى وعقبى الدار

ومدحه ابن الخطيب بقوله:

ودُمْ والمنى تدني إليك قطيفها ميسر أوطار ممهد أوطان

وكان الشعراء يرسلون زفرات على انتثار عقد الأندلس الذي ظل منتظماً نحواً من ثمانية قرون حتى صاح بعضهم حيرة وتحرقاً:

كيف السبيل إلى احتلال معاهد شب الأعاجم دونها هيجاءها؟

وقد قال أبو البقاء صالح بن شريف الرندي من قصيدة رائعة تناقلتها الألسن:

لمثل هذا يذوب القلب في كمد إن كان في القلب إسلام وإيمان

وقال أبو المطرف بن عميرة المخزومي بعد سقوط بلنسية:

يحن وما يجدي عليه حنينه إلى أربع معروفها متنكر
ملاعب أفراس الصبابة والصبا تروح إليها تارة وتبكر

إلى أن قال:

وبالجبل الأدنى هناك خطى لنا ... إلى اللهو لا تكبو ولا تتعثر
كذاك إلى أن صاح بالقوم صائح ... وأنذر بالبيت المشتت منذر
وفرقهم أيدي سبا وأصابهم ... على غرة منهم قضاء مقدر

وقال الكفيف وهو من فحول الزجالين بزرهون يمدح السلطان أبا الحسن المريني بقصيدة ملحون منها:

عسكر فاس المغيرا الغرا ... ويـن سارت بوعزايم

وقال آخر يمدح السلطان:

أما الجهاد فقد أحيي معالمه ... وقام منه بمفروض ومسنون
وأقام مفروض الجهاد بعزمه ... تركت بأفئدة العداة فلولا
والله ما أدري وقد حضر الوغى ... أحسامه أو عزمه مصقولا
حطت البلاد ومن حوته ثغورها ... وكفى بسعدك حامياً لذمار

وقال:

فما رؤوس الكفر إلا حصائد ... بسيفك سيف الله تجني وتقطف

وقال:

فاق الملوك بسيفه وبسيبه ... فبعدله وبفضله يتمثل

وقال القائد محمد بن يحيي أجانا يخاطب مولاي محمد بن الشريف على لسان الشيخ ابن زيدان:

يا ملكا سعدت به أوطانه ... فيما مضى وزها بهِ المستقبل
نادى بك النصر العزيز لمغرب ... ولكم على فاس الجديد الكلكل

فأجابه محمد بن الشريف بقصيدة من انشاد محمد بن سودة الفاسي:

ما من مليك ذاق لذة راحة ... إلا تجلى له الهوان فيسفل

إلى أن قال:

وانض غبار الذل وانفض ثوبه ... يزداد وجهك بهجة ويهلل

وهي من الشعر الجريء الذي يذكرنا ببعض حماسيات شوقي التي كتبها حيث كان منفياً في باريس ألهب بها شعور مواطنيه.

★ ★ ★

وهكذا زخر الأدب المغربي بعبارات وألفاظ حماسية: كالعضب ومضارب النحر والسبي والحزن والتحول والرق والوطن والنزوح والاحتلال والأصفاد والعزم والعثور وقطف الرؤوس والنصر وغبار الذل، ومئات أخرى تكاد تتفجر إيماناً وحيوية، ولعل هذه النبرات هي من أغنى الآداب العربية في الحقل القومي نظراً لتتابع الويلات على الأندلس، وما كان لهذا اللون من الحماسيات أن يتفتق بمثل هذه القوة في الشعر العربي بالمشرق إلا أيام الحروب الصليبية وعند احتلال نابليون لمصر.

وكانت الصدمة ورد الفعل الوطني قويين، لأن المغرب ظل منذ فجر الإسلام محتفظاً بكيانه واستقلاله، ولم يخضع حتى لدار الخلافة العثمانية التي بسطت نفوذها على جل أقطار الشرقين الأدنى والأوسط وبقاع شاسعة على طول الضفة الأوربية للبحر المتوسط، ولم ينج من نفوذ آل عثمان حتى المغربان الأوسط والأدنى، فكان من الطبيعي أن تتمخض في المغرب على أثر محاولات الاعتداء الأجنبية في القرن التاسع حركة وطنية وطيدة أفاد منها تراثنا الفكري كنزاً أدبياً يكاد يكون فريداً في بابه.

وقد عرف المغرب ألواناً أخرى للشعر انطبعت بالملق للملوك وأحياناً بعمرانيات رقيقة واكبت الأدب الشرقي في عصره الكلاسيكي الذي حفل بالكليشيهات المتحجرة.

فمن ذلك قول أبي الفشتالي ينوه بفتح السودان:

جيش الصباح على الدجا متدفق ... فبياض ذا لسواد ذلك يمحق
وكأنه رايات عسكرك التي ... طلعت على السودان بيضا تخفق

وعلى لسان قصر البديع الذي شاده المنصور بمراكش:

سموتُ فخر البدر دوني وانحطَّ ... وأصبح قرص الشمس في أذني
وصغت من الإكليل تاجاً لمفرقي ... ونيطت بي الجوزاء في عنقي سمطا
ولاحت بأطواق الثريا كأنها ... نثير جمان قد تتبعته لقطا

وللقاضي أبي القاسم بن علي الشاطبي في مجلس المنصور:

ما بال طيفك لا يزور لماما ... ويمنحني الأحشاء ضربت خياما
أيعيش فيك عواذلي لسلوهم ... وأموت فيك صبابة وغراما

ولمحمد بن علي الهوزالي المعروف بالنابغة عند إبلال المنصور من مرضه:

تردى أذى من سقمك البر والبحر ... وضجت لشكوى جسمك الشمس والبدر
وبات الهدى خوفاً عليك مسهداً ... وأصبح مذعور الفؤاد الندى الغمر

إلى أن قال:

لئن صدئت بيض المعالي لقد غدت ... تسيء الكماة البيض واللدن السمر

وأنشد محمد بن علي الفشتالي عند فتك المجاهدين بالعدو في سبتة أيام المنصور (عام ٩٩٦ هـ):

هذه سبتة تزف عروساً ... نحو ناديك في شباب قشيب
وهي بشرى وأنت كفؤ اللواتي ... كافأت بعلها بفتح قريب

وقال ابن القاضي عند تحرير أصيلا:

يا أيها المنصور أبشر بالعلى ... فالله أبلغ في العدا المأمولا
أنضاكم سيفا لحتف عداته ... وبكم غدا سَيْف الردى مفلولا

وفي عهد السلطان الغالب بالله السعدي، زار وزيره وابن أخيه محمد بن عبد القادر مدينة فاس صحبة عالمين هما قاضي الجماعة عبد الواحد الحميدي وأحمد المنجور، فلما تبدت لهم معالم المدينة ارتجل الوزير:

أخلائي هذا المستقى وربوعه ... وهذي نواعير البلاد تنوح
وذاك المصلى مطرح الشوق والأسى ... وتلك منازل الديار تلوح

فاجاب الحميدي:

وتلك القباب الخضر شبه زبرجد ... بهن غوان طرفهن جموح
يمس كأملود من الروض يانع ... شذاهن من حول الديار يفوح

فعقب المنجور مرتجلاً:

ويرفلن في الحالات يختلن في الحلى ... وفيهن أنواع الجمال وضوح
يبادرن ترقيع الكوى بمحاجر ... لإقبال حب طال منه نزوح

ومن شعر السلطان زيدان بن المنصور يتغزل في السوالف والخدود:

فَتَنَتْنَا سوالف وخدود ... وعيون مُدْعَجات رقود
ووجوه تبارك الله فيها ... وشعور على المناكب سود
أهلكتنا الملاح وهي ظباء ... وخضعنا لها ونحن أسود

ومن روائع النثر ما كتب به المنصور الذهبي إلى الشيخين البدر القرافي والزين البكري المصريين:

« هذا وإنه اتصل بعلي مقامنا كتابكما الذي صدحت على أفنان البلاغة سواجعه، وعذبت في موارد المحبة الصديقية مناهله ومشارعه، ولطفت في كل معنى من المعاني أفانينه ومنازعه، وتألفت على الإجادة في كل مقصد من المقاصد مواصله العذبة ومقاطعه، وأينعت بأزهار العناية الربانية أباطحه الفيح وأجارعه... »

وكانت بعض الألقاب والنعوت تتسرب من المشرق فتثير نقداً لاذعاً لدى علماء المغرب مما حدا ابن الحاج الفاسي إلى القول:

« يتعين على العالم أن يتحفظ من هذه البدعة التي عمت بها البلوى، وقل أن يسلم منها كبير أو صغير، وحد ما اصطلحوا عليه من سميتهم بهذه الأسماء الغريبة العهد بالحدوث التي لم تكن لأحد ممن مضى، بل هي مخالفة للشرع الشريف وهي فلان الدين والعالم أَوْلَى من يتحفظ على نفسه من هذه الأشياء، ويذب عن السنة في حق نفسه وفي حق غيره... »

ومن نماذج النقد اللغوي ما كتبه الإجدائي حول التوشيح والوشاحين معلقاً على بيت ابن الزقاق المغربي:

على عاتقي من ساعديها حبائل وفي خصرها من ساعدي وشاح

«حيث استعمل هذا الوشاح في معنى النطاق وهو ما تديره المرأة على خصرها، والوشاح ما تتقلده على عاتقها فيكون منها في موضع حمائل السيف من الرجل، وقد خطىء أبو تمام في قوله:

من الهيف لو أن الخلائل صورت لها وشاحاً جالت عليه الخلاخل

لأنه استعمل الوشاح في الحقاب، وإنما وصفوا الوشاح بالفلق والحركة، لأن ذلك يدل على رقة الخصر وضمور البطن»...

★ ★ ★

وقد ظل أقطاب الفكر ينتجعون الشرق لاستتمام المعارف وتبادل الإجازات، كما كان المشارقة يتوقون إلى مبادلة علمائنا وجوه النظر، وقد عرف الشرق كيف يقدر المغرب في شخص أفذاذه أمثال ابن سليمان الروداني والمقري وابن الطيب الشرقي ويحيى الشاوي واليوسي وأحمد بن ناصر وأحمد القادري ومحمد (فتحا) الفاسي ومحمد بن الطيب العلمي المتوفى بالقاهرة، وأحمد بن الخياط الذي مكث طويلاً في القاهرة أيضاً، وأحمد الهلالي الذي ترك لنا وصفاً شيقاً لرحلته العلمية هذه، لأن أساليب الشرق والغرب كانت تتكامل كما أن عناصرها الحيوية يتمم بعضها بعضاً في هيكل موحد رصين.

ولعل ما لاحظه المقري - وقبله ابن خلدون - من فروق بين الشرق والمغرب في الاتجاهات الفكرية والمناهج العقلية قد ظل على ما كان عليه، إذ بينما كان الشرق مطبوعا بالعمق في ملكة العلوم النظرية، طفق المغرب يوغل في البحث اللفظي مع تحقيق ما احتوت عليه بواطن الأبواب وتصحيح الروايات وبيان وجوه الاحتمالات، والتنبيه على ما في الكلام من اضطراب الجواب واختلاف المقالات مع ما انضاف إلى ذلك من تتبع الآثار، وبينما

غلب على تآليف المشارقة الإيجاز (عدا البعض كالغزالي والفخر الرازي) مع انحصار في الموضوع سواء في التصنيف أم التدريس إذا بالمغاربة من القيروان الى القرويين بوغلون في الاستطراد.

وإذا كانت صناعة التأليف قد انتهت في علماء المغرب على صناعة أهل المشرق في شخص ابن البناء المراكشي، فقد عللوا ذلك (ببراءة نسبه من البداوة)، غير أن الأمر لم يبلغ الحد الذي زعمه ابن خلدون في المائة الثامنة من انقطاع ملكة التعليم على طريق النظار، لأن التحقيق العلمي ظل طابع الكثير من علماء عهد الشرفاء. هذا مع تحفظات منها نوع من التجمد في المنهج، وإيغال في استظهار النصوص حيث أدى الحال في بعض نواحي المغرب إلى تطرف في الاستظهار تجاوز المتون إلى معاجم اللغة.

ولكن هذا الأسلوب الذي كان يحجر الفكر أحياناً عند من لا يستطيع أن ينسّق بين واعيته وملكته التصورية، قد ضخم ـ على العكس عند البعض ـ السليقة العربية، ولا أدل على ذلك من وفرة أعداد الأدباء والشعراء في سوس حيث لا يزال التحقيق اللغوي خاصة بارزة، ولا يَعْزب عنا أن ابن القزاز البربري هو الذي صحت عليه اللغة بالأندلس بعد أبي علي البغدادي وأن أهل شنقيط أقرب إلى الفصحى من باقي عناصر الشعوب العربية بفضل تلك الروح الاستظهارية البسيطة.

وإذا أردنا أن ندرك نوع المعارف التي كانت سائدة في ذاك العصر والتي احتكرت نشاط رجال الفكر، فما علينا إلا أن نستعرض زمرة ممن شملهم العهدان العربيان، أمثال البوسعيدي والاغلالي والنمنارتي وميارة والمرغيثي واليوسي والعياشي وآل الفاسي والغساني والحلبي وابن زاكور والوالي وأحمد ابن ناصر وغيرهم، فستتضح لنا خطوط ذلك الإطار الذي انحصر فيه النشاط الفكري.

فمن عالم يكدح في خمول موزّعاً يومه بين التدريس والعبادة، إلى مصنف لا يعدو شرح النصوص الفقهية أو جمع تراجم الصوفية أو وضع لوائح مطولة

عن شيوخه واجازاته، الى فقيه انصرف للقضاء أو الفتيا، فاحتكره حديث النوازل والأقضية والخصام والشجار.

ولكنك تجد إزاء هذا النزوع الفقهي والوجهة الصوفية، اتجاهات من نوع جديد تضفي على المجتمع الفكري ألوانا طريفة، فإنك تعثر في هذه الفترة على دواوين شعرية وتحريرات تاريخية، إلى جانب كتابات في الحساب والفلك والطب، فهذا عبد الرحمن النمنارتي يتولى الفتيا والقضاء ويقرض الشعر العالي ويؤرخ لسوس العالمة في فهرسته القيمة، وهذا المرغيثي يدلي بدلوه في كثير من شعب المعرفة، بعد أن أقام في زاوية الدلاء محفل الآداب والعلوم، فيكتب في الرياضيات والهيئة ويجمع معلومات شيقة عن مجتمع عصره، مازجاً ذلك بفوائد مختلفة تتراوح بين التنزلات الروحانية والوصفات الطبية والشوارد الأدبية، وقد استقى الأفراني، مادة تاريخ المجتمع السعدي عن أمثال هذه المصنفات.

وهنالك نوع آخر من التصانيف يتجلى في كتاب (الدر الثمين) لميارة حيث نجد، إلى جانب الذيول الفقهية والتعاليق الصوفية، طرائف عن الحركة الفكرية المعاصرة، وبرحلة العياشي يظهر أسلوب جديد في البحث، يحاول أن يتجاوز النطاق المغربي المحدود الى ذلك الفضاء الواسع الذي يمتد الى الشرق الأدنى، حيث المناهج الدراسية تختلف نوعاً ما عنها في المغرب، وحيث طرائق التصنيف ومواضيع التأليف تتسم بميزات من طراز جديد، فنرى العياشي يحاول أن يدرس خصائص الشرق ليقارنها بالحالة المغربية، مخللا ذلك بنظرات تاريخية وتلويحات صوفية واستطرادات أدبية، فهو يحدثنا عن شراب البن في الشرق مشيراً الى انعدامه اذ ذاك بالمغرب، كما يصف لنا يوم المحمل بمصر، ثم لا يلبث أن ينتقل الى الطرقية ومناكر المواسم، معرّجاً على جزئيات، كتطويل اللحية وحكمها وعدد العوالم، ثم يدرج فوائد طريفة، كاستيناس المصريات المترفات بشراء ريال من الازهار كل يوم، ولا شك أن شيوع هذا النوع من التآليف في الوسط المغربي يحدث أثره السريع.

وقد أغرق العلماء في التصنيف حتى بلغت تآليف بعضهم المائة والسبعين، وهذه الوفرة من أبرز ميزات العهد العلوي، يضاف اليها التنوع حيث تجد الرجل الواحد يؤلف في الطب والهيئة والفقه والتاريخ والتراجم والآداب، ولكن اذا كانت بعض المصنفات صورة صادقة لذلك العصر، كمحاضرات اليوسي، فان الكثير يمتاز بموضوعية متطرفة لا تترك مجالا لانبثاق ذاتية المؤلف مما يفقدها الروح والمتعة، فالمحاضرات تصور لك الحركة بكيفية تثير في النفس حب التطلع وروح الانسياق مع المؤلف حتى ليخيل للقارىء أنه يعيش في ذاك العصر، وهل هنالك لوحة تاريخية أبلغ من تلك الصور المتتالية، التي يرسمها اليوسي فيشخص فيها الأدباء في مساجلاتهم، والصوفية في حضراتهم، والملبسين في دعاويهم، والعوام في خرافاتهم، وتشبه الرحلة اليوسية رحلة أحمد بن ناصر من حيث الإفاضة في الحديث عن الشرق.

★ ★ ★

ثم ينبثق القرن الثاني عشر فيتسع نطاق النشاط الفكري ويتضخم التنوع فيظهر أمثال الزياني والوزير الغساني والشريف العلمي.

فالزياني مؤرخ دقيق الملاحظة يخطو بأسلوب البحث والتحقيق خطوات، ويوسع موضوعه فيكشف عن الحياة في جزء من القارة الاوربية، وينطبع أسلوبه التاريخي بمنزع جديد لأنه يحاول مزج وصف الأحداث بنظرات عن نظام الحكم والحالة الفكرية، أما رحلة الغساني الى أسبانيا فانها وثيقة عرفت أدباء المغرب اذ ذاك بأساليب الحياة في بلدان مسيحية، ووصفت المجتمعات الأوروبية وحياة البلاطات والطبقات الأرستقراطية الإسبانية.

وتجد الشريف العلمي يفرد أدباء وشعراء بتأليف خاص، فيتجه بالتصنيف اتجاهاً فنياً يهدف الى النقد والتحليل والتنظير من خلال محاورات أجراها مع اثني عشر من معاصريه، كالحلبي وابن زاكور ومسعود المريني والغزال والبوعصامي، غير أن هذا (الأنيس المطرب) جاء رغم ذلك موسوما بالطابع العام الذي كان يصطبغ به التصنيف في القرن الثاني عشر، وهو

الانتشار وعدم التزام الموضوع، وقد شبهه بعضهم من هذه الناحية «بقلائد العقيان» للفتح ابن خاقان أو «المنتقى المقصور» لابن القاضي، فنحن نجد الى جانب هذا البيت الذي هو من نظم المؤلف نفسه يخاطب به المولى إسماعيل:

أمولاي أمنت البلاد وأهلها فلله رب الناس ثم لك الشكر

قصيدةً للحلبي مطلعها:

يا رب اني ضعيف ها لتي الوجل ما حيلتي يوم هول العرض ما العمل

وأخرى لابن زاكور (وحيد البلاغة وفريد الصياغة) صدّرها بقوله:

اتق الله ما استطعت فإن ...الله ربي مع الذين اتقوه

هذا مع أن للحلبي مقامات عارض بها الحريري، ولابن زاكور (عنوان النفاسة في شرح الحماسة) و (مقياس الفوائد في شرح ما خفي من القلائد) و (الصنيع البديع) و (شرح المقصور والمدود) و (شرح لامية العرب) و (المعرب للبنين) وغير ذلك.

وهذه النزعة الصوفية نجدها عند معظم شعراء هذا العصر فالشاعر مسعود الريني (واعظ المدينة المرتدي بالوقار والسكينة) الذي له تآليف في التصوف وقصائد عارض بها ابن الوفا وطاول ابن الفارض، يقول في مطلع قصيدته:

يا رب إنك موجدي ومكوّني ومُدبّري ومُصوري ومشكّلي

وفي أخرى:

سهام الموت راشقة النبال ونحن مع البطالة لا نبالي

ولكنه يقول أيضاً:

طيف الخيال تعرضا أخذ المقام وأعرضا
وأثار وجدا كان في طي الأضالع أجهضا

ويقول في رسالة التزم فيها السين محتذيا بابن الخطيب:

سلام كنسمة مسك سرت لأنفاسكم بنسيم سحر
لساحتكم ساقه مستهام سباه سنا حسنكم وسحر

ومن شعراء العصر أيضاً محمد بن العربي الشرقي «شاعر الأوان الذي لم يشتملْ على مثله ديوان» القائل في حقيقة الشاعر: (إن اسم الشاعر لا يطلق إلا على من وقف في حرم المعاني بكل المشاعر، أما من سلك طريقة واحدة فآراؤه فاسدة وبناؤه على غير قاعدة)، ولعل هذا التعريف صورة لذلك العصر الذي كان شعراؤه يستوحون من أرواحهم المضطلعة بأوار التقوى، وفي ذلك الحوار الذي دار بين هؤلاء الشعراء والشريف العلمي، ألوان شتى وضروب مختلفة للآداب والفنون التي كانت رائجة في ذلك العصر.

وبعدما يذكر العلمي شعراء معاصرين آخرين أمثال أحمد عمور، نراه يعوج على كتاب العصر كالمهدي الغزال القائل في وصف راقصة:

قامت بكاس الراح راقصة بين الغواني رقصها طرب
كأنها والكأس في يدها بدر تبدى حوله كوكب

وفي وصف بستان:

أنظر الى الروض وقد نشرت عليه أوراق من الياسمين
يحكي بساطا ناعما صيغ من زبرجد يعلوه در ثمين

ولكنه يقول أيضاً متأثراً بنزعة العصر:

الموت لا شك آت وكل آت قريب
فَثُبْ وَثِبْ قبل أن يعتريك منه وثوب

ومنظم عمر الحراق القائل في ديوانه يفاخر بمسقط رأسه شفشاون:

ما شعب بوان ما مرج دمشق وما نيل بمصر وما العاصي لدى حلب
في جنب شفشاون الغراء إن فخرت بتينها وبزيتون وبالعنب

ومنهم أحمد دادوس (صاحب التعاريض في الضروب والأعاريض) الذي رثى وغزل وجد ما شاء وهزل، والأديب البوعصامي (بليغ مصره وإمام الأدباء في مغربه وعصره رحل الى المشرق، وطلع عليه كالبدر المشرق) القائل:

محا بدمع كالعقيق محاجري شوقا لطيبة والعقيق وحاجري

ولهذا الشاعر باع طويل في ترتيب النغمات الثمان التي عليها مدار الغناء والألحان.

ومنهم أيضاً الشاعر عبد القادر بن شقرون القائل:

إسقياني كؤوس بنت الدّوالي إنْ عراني السقام فهي الدَّوا لي

الى أن قال:

كم ليال قطعتها في نعيم حفظ الله عهد تلك الليالي
بين راح وشمعة ومغن وظباء قنصتها باحتيال

ولكنه ينفعل (لنزعة العصر) فيقول:

ربّ يسر لعبدك الفتح واشرح صدر من صدره من العلم خال

ومنهم الكاتب محمد بن سليمان (شاعر مطبوع... وأديب هماّم) القائل:

عذيري من هوى غصن رطيب أراني البدر من فوق القضيب
أمليح فاتر الألحاظ طفل صبوت لحسنه بعد المشيب

ومنهم الحاج علي مندوصة الذي كلامه (يغار منه امرؤ القيس ويحن اليه جميل بثينة وقيس) القائل:

الى كم فدتك النفس ترمي فؤادنا بسهم نضي اللحظ أرياشه هدب

الى أن قال:

فدرتكم ربات قرط خريدة مفوفة هيفاء هام بها الحب
مبرقعة لمياء غصة بضة سوى أنها عذراء ناهدة عرب

ومنهم محمد بن يعقوب (صاحب الأبيات السهلة العبارة اللطيفة الإشارة).

ومن تلك النماذج تدرك أن شعراء العصر العلوي الأول مراتب من بينهم فحل (يتصرف في فنون الكلام كثيرُ الإغراب لا يُعلم له مراد ولا يَفهم من أبياته إلا أفراد).

وهناك شعراء وكتاب آخرون لم يذكرهم الشريف العلمي في أنيسه أمثال عبد الواحد البوعناني مفتي فاس الذي هنأ المولى إسماعيل على تحرير العرائش بقوله:

ألا أبشر فهـذا الفتـح نـور قـد انتظمـت بعـزكم الأمـور

وقد وصف اِشْرئباب أعناق المدن المختلفة إلى التحرر على يد السلطان فقال:

ووهـران تنـادي كـل يـوم متى يـأتي الإمـام متى يـزور

وقال قبله:

إذا مـا جـاء سبتـة في عشي تنـاديـه إذا كـان البكـور

ومنهم عبد السلام بن حمدون جسوس القائل:

رفعـت منـازل سبتـة أقـوالها تشكو إليكم بـالـذي قـد هـالها
مع بـادس وبـريحة فتعطفـوا وتنبهـوا كـي تسمعـوا تسـآلها
فلقـد قضيتم للعـرائش حـاجـة مع طنجـة فـاقضـوا الذي آمـالها
وارفـع لهذا الغـرب رأسـا إنـه في الضعف مـا دام العـدا إنـزالها

وقال عبد السلام القادري:

علا عرش دين الله كـل العـرائش وهـد بنصر الله قصر العـرائش

تلك ألوان خاصة من الشعر الوطني الذي يحاول فيه الشاعر التعبير عن آلام الشعب وآماله.

وعندما قام المشاغب أبو حفص الوقاش يدعي المُلكَ قائلاً:

أنا عمر الموصوف بالبـأس والِدي أنا عمـر المذكـور في ورد الجفـر

أجابه ابن بجة الريفي بقصيدة منها:

في صفحة الدهر قد خطت لنا عبر منهـا ادعـاء الحمار أنـه بشر

وهذا لعمري أبدع في فن الاقذاع.

وفي هذا العصر كانت زاويـة شرقـاوة في نـاحيـة تـادلا محفلا للآداب والفنون وقد خلفت زاوية الدلاء فشملت بعطفها كثيراً من الأدباء الذين وجدوا في ربعها المقام الرحب، كالأفراني الذي بدأ حياته التصنيفية بشرح بديع لتوشيح ابن سهل الأندلسي وهو نموذج للنثر (الفني) في ذلك العصر. أما الزاوية الناصرية فقد احتفظت بإشعاعها في الجنوب، وفي (الدرر المرصعة) لمحمد المكي الدرعي، صور ناصعة لآثار هذه الزاوية في العلم والآداب، والكتاب ينطوي على معلومات أدبية قيمة وقصائد رائعة، منها مقطوعات كلها تفجع على أهل الدلاء كقول العربي الفاسي:

أدار بذات السدر في الجانب الشرقي سقاك الحيا ما دام صوب الحيا يسقي

أما «درعة» فقد قيل فيها بين ما قيل:

ألم بـدرعـة واختر للنـزول بها «زاوية الفضل» مأوى المجد والكرم

وهناك مقطوعات منها للهاشمي الشكلنطي الرباطي:

يـا حـاديـا أسرع بـذات الزمـام وارع رعـاك الله حـق الذمـام
فـإني أمسيـت ذا قلـق من شدة الشوق وفرط الغرام

وقال:

ورشـا مـن آل يـافـث لحظه بـالسحـر نـافـث
يخطـأ السين الى ثـاء المثـاني والمثـالـث
قلـت جُـدلي بـوصـالي قـال دع عنـك الوثـاوث

وتذكرني هذه الأبيات بالبيتين اللذين ساقهما الجاحظ في «البيان والتبيين»

والتثـغ رأيتـه يفعـل مـا لا ينبغـي
قلـت لـه أنـت بـري قـال بـلى أنـا بغـي

ويمكن القول بأن تلك النهضة الأدبية الرائعة التي عمت بلاد سوس في العهد العلوي حتى تفتحت القرائح عن بعض ما أنتجه الفكر المغربي، إنما يرجع فضلها للحركة الناصرية التي نشرت العلوم والفنون إلى تخوم الصحراء.

* * *

وهذه العجالة تضيق عن استعراض النماذج المختلفة للحياة العقلية في العصر العلوي ولعل في كتاب (نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني) لمحمد القادري مادة وافية لمن أراد أن يقف على ألوان الحركة الفكرية بالمغرب خلال قرنين.

وقد ضرب الملوك الأدباء بسهم وافر في هذه الحركة فحفظ السلطان محمد ابن عبد الله «الأغاني» للأصفهاني مع صحاح الحديث وأمهات الكتب تركيزاً للملكة العلمية، وكان في ذلك بعث جديد للغة العربية وأصولها وآدابها وفي هذا العصر ظهر محمد بن الطيب الفاسي أستاذ الشيخ مرتضى الزبيدي المصري الذي ألف أكبر موسوعة لغوية في العصر الحديث، هي تاج العروس في شرح القاموس، للفيروزابادي والذي كان يصحح من إملاءاته معاجم اللغة، كما فعل ابن القزاز البربري في العصور الأولى.

وقد قال الزبيدي في شيخه هذا: «ورأيت شرح شيخنا الإمام اللغوي أبي عبد الله محمد بن الطيب بن محمد الفاسي المتولد بفاس سنة ١١١٠ والمتوفى بالمدينة المنورة سنة ١١٧٠ وهو عمدتي في هذا الفن والمقلد جيدي بحلي تقريره المستحسن» (التاج المطبعة الخيرية - مصر ١٣٠٦ ص ٣).

أما القرن الثالث عشر فإنه لا يكاد يختلف في مجموعه عن سابقيه فقد امتدت إلى أوائله حياة رجلين هما محمد التاودي ومحمد المنالي الزبادي اللذان مات كلاهما عام ١٢٠٩، وكانا أنموذجا جديداً لعلماء يحرصون على إنتاج الشرق للتبحر في علوم لم تكن منتشرة في المغرب إلا عند الخواص، وقد

كان العالمان رسولين من المغرب إلى الشرق في هذه الفترة للاقتباس من الفكر العربي هناك وخاصة في القاهرة حيث تبلورت معطيات الحضارة الإسلامية في الأزهر الشريف.

وممن نبغ في هذا القرن من رجال الفكر ابن عَجيبة الذي يحتوي فهرسه على معلومات حول الحالة الفكرية في تطوان، وسليمان الحوات الذي جمع في «البدور الضاوية» إجازات الدلائيين ومراسلاتهم ومقتطفات من أشعارهم، والشيخ حمدون بن الحاج الذي ترك لنا ديوانا حافلاً بمدائح المولى سليمان الذي حركت مآثره المشاعر حتى قال محمد بن إدريس الفاسي:

بسليمان قد سلمنا وسرنا ... فالعلى منزل له والعلاء
كفه كفت الفساد وكفت ... كل عاد فمالكم أكفاء

وبلغ صدى المفاخر السليمانية تونس الشقيقة فتحركت شاعرية فحلها الهمام إبراهيم الرياحي الذي نظم في أبي الربيع قصيدته الخريدة التي مطلعها:

إن عز من خير الأنام مزار ... فلنا بزورة نجله استبشار

ومنها:

هذا الذي رد الخلافة غضة ... وسما به للمسلمين منار

ومن شعر ابن إدريس يستنفر الشعبَ لحرب إيسلتي مشيراً إلى زحف الصليبية نحو المغرب الشرقي وضد الإسلام:

يا أهل مغربنا حق النفير لكم ... إلى الجهاد فما في الحق من غلط
فالشرك من جنبات الشرق جاوركم ... من بعد ما سام أهل الدين بالشطط
فواتح المكر تبدو من خوائمه ... فعنده المكر والمكروه في نمط
من جاور الشر لا يعدم بوائقه ... كيف الحياة مع الحَيات في سَفَط

وقد تعزز النشر «بالمطبعة الحجرية» التي أسست بفاس في منتصف القرن الماضي فصدرت عشرات المصنفات القيمة التي زخرت بها مكاتب المخطوطات، وقد اتصل حبل الأدب على الطريقة التقليدية في النصف الأول لهذا القرن، كما تواصلت حلقات التصنيف في نطاق محدود على غرار القرون

السالفة، مع إيغال في الاقتصار على الجمع والتنسيق بكيفية تجرد عالم التأليف من كل روح.

ومن الصعب التمييز استناداً إلى منهجية التعبير وحده بين مصنفات يتأرجح تاريخ انبثاقها بين قرون، ذلك أن أسلوب الأدباء واللغويين ظل في كلاسيكيته المتحجرة في منأى عن الاهتزاز لكثير من النبرات الجديدة المتفاعلة مع لوازم البعث الحضاري المتجدد. وإذا كانت اللغة كائناً حياً بندرج في مراحل النمو بين الطفولة والهرم، ثم الانبعاث في طفرات جديدة، فإن اللغة العربية بالمغرب الأقصى خاصة قد احتفظت بطابع أصيل خلال خضم الأحداث السياسية والحضارية، وإذا كان هنالك عامل منطقي لتعليل هذا التحجر فهو أن الكثير من أدبائنا ولغوبينا ظلوا عالقين بأبراج عاجية، في حين أن لهجة التخاطب كانت قد درجت في المجاري الحية الفياضة، وبذلك اتسعت الهوة بين الفصحى والعامية بتسرب الدخيل الأجنبي.

وقد تجلت روح التجديد عند أدباء أو في مراسيم ومراسلات رسمية، فظهرت بدلا من مصطلحات معربة في قالب رصين، ألفاظ عامية على حساب اللغة الأصيلة تكثر وتقل تبعاً للحاجة الملحة في ضبط الوقائع وتدقيق الماجريات وإن كانت خطابات ووثائق سياسية أخرى قد احتفظت بأسلوبها الكلاسيكي الرنان على حساب الدقة والوضوح.

أما في صحراء شنقيط فقد نشر الشيخ أحمد بن الأمير الشنقيطي نزيل القاهرة مصنفه القيم «الوسيط في تراجم أدباء شنقيط» منذ عام ١٣٢٩ هـ - ١٩١١ م في الوقت الذي انبثقت الثورة من أقصى الجنوب بزعامة «ماء العينين» لتحرير المغرب من الزحف الصليبي، فاتحفنا بصور رائعة عن الفنون من الشعر الرفيع أبدعته قرائح الصحراويين المغاربة في قلب الفيافي القاحلة، مجددين بذلك عهد الجاهلية الأولى في نصاعة الأسلوب وجزالة اللفظ ورقة المعنى وفخامة المبنى، وكانت ضروب القول لا تتعدى الإطار التقليدي من

مفاخرة ومهاجاة ومديح وغزل نسيب، وقد برز عشرات الشعراء والناشرين الذين خلدوا اللغة في أصالتها وروعتها الأولى.

فمن شعر أبي محمد بن محمود يصف فيها مرافق الصحراء:

حملنا الخيام وأنضادها وسرنا جميعاً ثقالا بطا
فجر العجاف رويدا لئلا تخب فتبهر أو تثلطا

ومن الأزجال العامية التي أصبحت تسير مسرى الأمثال عند الجماهير قصائد «الملحون» للفقيه الشاعر الهادي بن محمد (المتوفى عام ١٣١٩ هـ).

مذمن علال معدود أفأ عيال
أفكل آنول أسر من حنش

مذ أي ماذا وعلال فعال من العل يعني الذي يحلب نوق الناس بعد أن تذهب للري من عند أهلها، وهو عندهم وصف في غاية الذم ومعدود اعيال، أي معدود في العيال أي على الناس، والآنول بيوت من الشعر، وأسر من حنش أي أكثر من الحنش سرى.

ومنها يذم قبيلة بأسلوب عربي لاذع:

مافَم انْمَغفيرْ وبْلاَخَيمْ اكْبيرْ

فم أصله ثم، وهي لغة والتمغفير التخلق كالتعدد، أي التشبه (بمعد بن عدنان) بأخلاق بني مغفر، ومغفر قبيلة بناحية فاس، والخيم هو حسن السجية، وهو الخلق كما عند ابن سيده في المحكم (فارسي معرب) ومعنى البيت أن هؤلاء القوم مجردون من كل الأخلاق المغفرية ومن السجايا الحسنة.

★ ★ ★

أما الصحافة فقد ظهرت في المغرب منذ أزيد من مائة وأربعين سنة ولكن بلغات أجنبية خاصة في سبتة وطنجة إلى عام ١٨٦٨، حيث برزت جريدة أسبوعية بثلاث لغات (العربية والفرنسية والأسبانية) تحلل أحداث العالم

وماجريات المغرب، وفي عام ١٨٨٩ صدرت أول جريدة عربية، اسمها «المغرب» وتنافست المفوضيات الأجنبية فصارت كل واحدة منها تصدر صحيفة باللغتين الأصلية والعربية لمهاجمة الحكومة المغربية تمهيداً للحماية.

ولم تكن تصل إلينا آنذاك سوى جريدة «الأهرام» المصرية التي كان المغاربة يتهافتون على قراءة الأعداد القليلة الواردة منها، ثم توالت الصحف العربية في أوائل القرن العشرين فظهرت «الفجر» و «لسان المغرب» و «السعادة». وانصرف الفكر المغربي طوال ثلاثين سنة لتعزيز المقاومة المسلحة، فلم تظهر أول دورية وطنية إلا عام ١٩٣٢ وهي مجلة «مغرب» التي ما لبثت أن تعززت بصحف أخرى، مثل مجلتي «السلام» و «المغرب الجديد» وجريدة «الحياة» تعضدها في المساجد محاضرات تكونت في حلقاتها نخبة واعية شكلت الأطر الوطنية الأولى للخلايا التي انبثت في البلاد تركز لغة القرآن وتقرأ بتلهف ما يتسرب خفية إلى المغرب ضمن الحركة الشرقية للتأليف والنشر من الصحف والمجلات، وأهمها مجلة المنار للشيخ رشيد رضا التي كانت قليلة، حتى اضطر بعض رجال الفكر من المغرب إلى التوجه للجزائر للاطلاع عليها.

★ ★ ★

وبدأت روح جديدة تتفتق في أسلوب حماسي رائع يستمد أواره من النهضة القومية بالجناح الشرقي للعروبة، وخاصة بمصر والشام فظهر شعراء لمع نجمهم، وبدأ الشعرُ يُعنى بالقضايا الاجتماعية والسياسية في الوطن العربي، ويتخلص تدريجياً من وطأة المفاهيم الكلاسيكية حول الغزل والتشبيب والمدح والهجاء متفتحاً لمعطيات طريفة أكثر صلة بمستحدثات العصر ومتطلبات التطور ومع ذلك فإن هذه الفترة لم تكن خالية من تخضرم كمرحلة انتقال بين عهد برز فيه جيل ما قبل الحماية وجيل التوثب الجديد الذي أشاد به الأستاذ علال الفاسي في مخطوط سمّاه «وادي الجواهر»، فمنهم محمد غريط صاحب «فواصل الجمان» حيث ترجم لأزيد من ثلاثين من «وزراء وكتاب

الزمان» كان ينظر إلى قيمتهم الأدبية بمقياس جديد، فقد تحدث عن أديب «استكتب في وزارة الخارجية إلى أن شالت نعامته ووسدت في التراب هامته، في عام نيف وعشرة وثلاثمائة وألف»، ثم حاول تعريف قطاع وزاري جديد في أسلوب قانوني ينم عن اهتمامات العصر في الحقلين الدبلوماسي والسياسي حيث قال:

«وزارة الخارجية عبارة عن الاستقلال بمباشرة دعاوى أهل الحماية وتنفيذ ما تعلق بها من عزل أو ولاية، والوساطة بين السلطان وبين سفراء الدول وكبرائها، وكتابة الرسائل لملوكها ووزرائها».

ومن الرائق نشيد مدرسي نحا فيه منحىً طريفاً بين التوشيح والتخميس في معان جديدة، قال:

يا بني الدهر أجيبوا ... داعي النصح المنير
واستجدوا ذكر قطر ... كان ذا صيت شهير
جددوا للغرب مجداً ... واركبوا كدا وجدا
واقدحوا للعلم زنداً ... والبسوا للحزم برداً
وابتغوا هديا ورشداً ... تسمعوا شكرا وحمدا
وتروا رعياً جميلاً ... من ذوي القدر الخطير

ومنهم أحمد البلغيتي الذي يعتبر أنموذجاً للعالم المبرز والفقيه الضليع والمفتي البارع الذي يحقق قضايا القانون في مصطلح دقيق يستجلي بواطن المعضل إلى جانب شاعرية فياضة، جمعت بين الصفاء والجزالة، ومن نظمه:

بدت لي ترنو بالعيون الفواتر ... ولكن لها في القلب وقع البواتر
بدت لي وفي قلبي المعنى بحبها ... لواعج أشواق كحر الهواجر

أما عبد الله الفاسي نائب السلطان مولاي حفيظ بطنجة وسفيره بباريس، فهو خطيب واعظ وناقد قانوني، ومن شعره:

ليس التمدن ما يلهيك عن عمل ... يرقي البلاد ويعلي الفكر والنظرا
ليس التمدن في عيب الذين مضوا ... بل التمدن في إجلال من غبرا

وقال في قصيدة أخرى يصف بعض ما ظهر آنذاك من طائرات وسيارات وقطارات وبواخر وغواصات:

هذي المناطد فوق الجو تنشدنا هذه المآثر والآثار في الدول
هذي المراكب تطوي الأرض تتحفنا قرب المزار وبمن السير والنقل
هذا القطار يخد الأرض ممتطياً متن البسيطة في سهل وفي جبل
هذي البواخر في عمق البحار وفي أعلاه تفعل فعل الفارس البطل
هذا التمدن هذا الفضل فاعن به ليس التمدن بالألحان والغزل

ومن بين من برز من الشعراء في هذه الفترة، محمد السليماني الذي تمخضت رحلته إلى الشرق العربي الناهض عن ثورة في إحساسه ومنهجيته، ومن نفثاته التي يواكب فيها شاعر الكنانة حافظ إبراهيم قوله:

ولست إلى النسيب أهش كلا فإن وراءه لمع السراب
ولا وصف المجالس يزدهيني ولاجس المثاني والرباب
أليست أمتي فقدت حجاها وهذا عزها وشك الذهاب
وهذا صبحها يحكي مساء غزالتها توارت بالحجاب

وقد وصف، في دقة وروعة، جانباً من المآسي الاجتماعية التي توالت على المغرب المحتل، مشيراً إلى نكبة العربية وتقلص ظلها وسياسة التفقير والتجهيل التي نهجها الاستعمار:

رضينا العيّ حتى لا فصيح إذا ما قال سرك في الجواب
ولا أحد من أهل العلم منا يقيم لسانه عند الخطاب
مصانعنا ألم بها فساد فأصبحت الصنائع في اضطراب
وساد على تجارتنا كساد فرأس المال منخرم الحساب
وزاحم في فلاحتنا أناس جنوا من ريعها عجب العجاب
ونحن إزاءهم فقراء نلقي بأنفسنا بأحضان المرابي

ويجدر هنا مراجعة «الأدب العربي في المغرب الأقصى»، لصديقنا الأستاذ محمد بن العباس القباج.

وقد كانت الدعوة إلى التجديد في نطاق الروح الإسلامية هي شعار العصر يتردد في كل قصيدة، فمن ذلك ما قاله السليماني:

فكل زمان له حلة فألق دلاءك بين الكرام

وعبد الله الفاسي:

وألبس لكل زمان حل حلته فالشهم من يعرف الأدوار والعصرا

وقد اتجه القريض خاصة لوصف مظاهر حضارية مستحدثة كمناظرة الشاعر محمد بو عشرين بين الكهرباء والماء حيث يقول:

قد سبح الماء في أنبوبة سحرا فقطب الضوء كالمزور من غضب
الكهرباء أراها قوة جبلت على الحرائق والاسراف والعطب
ضوء الزيوت وضوء الشمع قد محيا من آية الليل إذْ أشرقت عن حجبي

إلى أن شبه هذه المناظرة الطويلة برواية شخصت أدوارها في أسلوب جذاب واستعمل فيها تعابير طريفة حيث قال:

تلك الرواية عن تعبير نادرة تشخيص أدوارها من أبدع الخطب

وقد ردد المغرب في تلهف وحنان أصداء الشرق المتنائي الذي حالت دونه حجب وعوائق مترسماً خطاه في كل شاذ وقاذ، فقد عبر محمد بن اليمني الناصري عن حرقة الأدباء في فجيعتهم بالمنفلوطي، حيث قال مشيراً إلى فن الفقيد وألوان بديعه:

ما للمعارف ترسل «النظرات» نحو الثرى وتسلسل «العبرات»
فالمغرب الأقصى يعزي مصر في ذاك الأبي مذلل العقبات
يا مصطفى وليت عنا لابساً حلل الثناء موفق الخطوات
قد كنت قينا مرشداً ومهذباً ومشذبا بالخير خير نبات

* * *

وطفر المغرب طفرته الرائعة بزعامة الأستاذ علال الفاسي ورفاقه الأحرار، عام ١٩٣٣ عند مطالبة الشعب بتخليد الذكرى السنوية للعرش

المغربي كعنوان الوطنية الصادقة التي أظهرها جلالة المرحوم محمد الخامس، وقدمت الكتلة الوطنية في العام التالي برنامجاً مركزاً للإصلاح برهن بالإضافة إلى روحه التحررية عن الخطوة الجريئة التي قطعتها اللغة العربية في فترة وجيزة، أصبحت خلالها قالباً حياً لمفاهيم جديدة ومصطلحات طريفة رددها الشعب في شعاراته، مثل «إلغاء الحكم المباشر» و «فصل السلط» و «تشكيل مجالس وطنية منتخبة» و «إقرار الحريات العامة» و «حق الاضراب» و «توحيد التعلم» و «ضمان الملك العائلي» و «توسيع القرض الفلاحي» و «محاربة سياسة الادماج» و «تكوين الأحزاب» و «فتح المجال للبعثات العلمية إلى الشرق العربي» و «حماية الصناعة الوطنية» و «ضمانة السكن الصالح للجميع».

وتعززت هذه المطالب بحركة «تضامن» بين تونس والجزائر والمغرب، وانعقدت «مائدة مستديرة» بين الكتلة الوطنية وإدارة الحماية، وصدرت صحف عربية جديدة «كالأطلس» فقطع المغرب بفضل هذه الانتفاضات، خلال نصف قرن، ما لم يقطعه في آماد عريضة حيث تقاربت الأحاسيس، وتجاوبت العواطف بين الشعوب العربية، واتحدت مجالي التعبير بعربية حية تساوقت مصطلحاتها وتجانست مفرداتها في الصحافة والإذاعة، في عواصم الشرق والغرب العربيين، وانبثقت إلى جانب هذه الثورة نهضة فكرية انعكست صورها على مجالات ودوريات، مثل «رسالة المغرب» التي أصبح عنوانها رمزاً لمدرسة القاهرة الناهضة في شخص «رسالة» حسن الزيات ورفاقه من الاخصائيين العرب الذين بذروا في روعنا الإيمان بقدسية العربية كلغة العلم والحضارة في العصر الحديث، فكان للمفاهيم الجديدة وتعابيرها الطريفة صدى عميق في نفوس نخبة حية من المثقفين المغاربة ما بين مزدوجي الثقافة وموحديها.

ولإعطاء صورة عن «رسالة المغرب»، التي تبلور فيها الانتاج الفكري الرصين في المغرب، قبل منتصف القرن الحالي، نأخذ العدد الأول من

السلسلة الأسبوعية الجديدة (لعام ١٣٦٨ هـ - ١٩٤٩ م) حيث نستشف من عناوين الأبحاث والدراسات الموجهة الجديدة في الأدب والثقافة في المغرب الناهض، فهناك دراسات حول «الأنانية» و «معجزة الإسلام المعاصرة» و «زهراء مجدولين أو تنازع العوامل» و «العبقرية شذوذ» و «التثقيف الذاتي» ورثاء شاعر مصر علي الجارم، وقصيدة الشاعر المرحوم عبد الكريم ابن ثابت الذي قضى شطراً من حياته في مصر و «وجهك الباسم» وهي من بواكير الشعر الحديث جاء فيها:

وجهك الباسم لي نعمى وروح وهناء ورجاء لفؤادي كلما عز الرجاء
وشفاء لجراحاتي وسلوى وعزاء ونعيم ذكرتني نفحة منه الخلود
حين كنا نجهل الدنيا وآلام الوجود تملأ الفرحة روحينا وتبدي وتعيد
وكلانا يا حبيبي مثل أنفاس الصباح مثل همس السحر النائم في ضوء القمر
يتغنى بالأبدية

نلاحظ أيضاً في هذا العدد فراغاً أبيض هو عبارة عن جزء مقال قصّته رقابة الحماية لانطوائه على عنصر لم يرقها، وكثيراً ما كانت المجلات والصحف الوطنية تصدر بيضاء حسب الرقابة الاستعمارية.

ونقرأ في الفهرس العام لسنة ١٩٥٠ فسيفساء من الدراسات يعطي مجرد عنوانها لمحة عن اتجاه المصطلح العربي في المغرب منها: الشعور والانفعال - عصامية الأدب - صلاتنا الثقافية مع مصر - الفكر الاجتماعي والفكر النقابي، ورسالة الشعر، وإرادة الشعوب، وكياننا الروحي، ودفاع عن اللغة العربية، والنزف الثقافي، والعلم والشاعرية، وثقافة هذا الجيل، ومركب الكمال، وشرقية الحضارة المغربية الخ...

ونستشف من خلال نماذج شعرية اتجاه الفكر المغربي الحديث، فللأستاذ الكبير علال الفاسي:

مضى الشطر من عمري وإني دائماً حليف هوى مغرٍ وخدن أذى معدي
وأطمح لروحي كبلسم جرحها فتأبى سوى صدّي وتأبى سوى ردي

واطلب عقلي منجداً في كفاحنا ولكنها تطغى على العقل في الحد
تجاذبني أهواءها وتمد لي ظلالها من الألوان لامعة المد

وتحت عنوان «رؤيا» قال الشاعر الأستاذ محمد الحلوي خريج جامعة القرويين بفاس:

أي دنيا أنت يا دنيا الرؤى يا ملاذ الروح يا نبع النبي؟
سبحة من سبحات الروح في أفقك السحري عمر ذهبي
ونسيم عطر منسكب منك في قلب وجيع متعب
نسمة تخلق من آلامه عبقرياً مبدعاً للعجب
في مجاليك استقيت الفن من نبعه الفياض صافي المشرب
وتلقى قلبي اللحن الذي يتلقى مثله كل نبي
سال في روحي شعاعا حالما غاب في قلبي وروى أدبي

ومن شعر الأستاذ عبد المجيد بن جلون خريج جامعة القاهرة.

يا نديمي اسق نديمك زده نعمى وشعورا
زده صفوا وسرورا وخيالا وشعورا

يا نديمي اسقِ نديمك

فاملأ الأقداح خمراً يندلع منها الشعور
ثم قل كون كبير أو فقل كون صغير

أو ليس الكون سرا؟

الليالي والعصور في محيط تتقلب
إنها حمقاء تصخب والزمان الفظ يلهب

ظهرها وهي تدور

ومن شعر الأستاذ عبدالله ابراهيم رئيس الحكومة سابقاً:

سر كرعش الكهرباء افشته ألسنة القضاء
فأنا هنا قوى اندفاع ليس يحكمها ذكاء

فسل النجوم لو النجوم تجيب في لغة الضياء
وسل الصخور الجائعات بدون بأس أو رجاء
وسل العباب الضخم يزحف في انخفاض واعتلاء
وسل الرياح الهوج تبدو بين عنف والتواء
يا ليت شعري ما القضاء وكيف أفشاني القضاء؟
أمصير أتعاب الشعوب وما بنته إلى الفناء؟

ومن شعر إدريس حسن العلمي من قصيدة طويلة بعنوان «الصفاء»:

لدى منبع النور مهد السناء زها الفجر رونقه والسماء
وفي صفحة النهر ناعمةً بلمس النسيم ورقص الضياء
وبين الخمائل أطيارها تطربها بلذيذ الغناء
وعند المروج وعطر الزهور وعند الهضاب وسحر المساء

نشدت لروحي الرضى والصفاء

ومن شعر عبد ربه عبدِ العزيز ينْعَبد الله في صباه:

النور بدد ما اعتكر لما بدا ضوء القمر
والأرض في جنباتها عرف الربيع قد انتشر
وانساح في الروض المُنمْنَم خده موج البشر
متناثراً متزاوجاً مستمرئاً حلو السمر
فالجو يغشاه السناء ببرقة تجلو النظر
والقلب يخفق نشوة فيشع بالزهر البصر
والنفس نبع فيضها فتزاحمت فيها الفكر
والطير يشدو زاهياً من فوق أفنان الشجر
نبراته رقراقة مثل الزلال بلا وتر
وجداول فوارة يطفو بصفحتها الزهر
والورد بلل خده قطرات أنداء السحر
في مثل حبات الجليد البيض أو سقط الدرر

تلك نماذج من نتاج الفكر المغربي في مختلف العصور وخاصة في الحقبة الحديثة، تعطينا صورة عن تطور الفكر في ألوانه الطريفة الخاصة وانعكاساته - التي تُشْرِق وتَخْفُتْ - على التعبير اللغوي الذي واكبَ - رغم تنائي الديار - تطور الفكر العربي ضمن الوحدة الكبرى!

ب ـ اللغة والدين:

كان تعليم القرآن والفقه هو الانطلاقة الأولى لتعريب الجهاز الديني في المغرب الأقصى، حيث أناط طارق بن زياد بسبعة وعشرين من العرب رسالة تلقين مبادىء الشريعة الإسلامية إلى الجيش البربري، ثم عزز ذلك عمر بن عبد العزيز على رأس المائة الثانية بإرسال وفد إلى المغرب يتركب من عشرة أفراد لنفس الغاية، وما لبثت الدعوة أن تقلصت بسبب الإضطرابات السياسية بين الأمويين والعباسيين، فظهرت في الميدان فرق الخوارج التي نقلت آراءها التحريرية معززة بالقرآن والحديث، ولعل انتشار الفكر القرآني في الوسط البربري هو الذي حدا مؤسس النحلة البرغواطية إلى وضع قرآن بالبربري في ثمانين سورة، وقد توثقت الصلة بين المغرب والشرق منذ عصر التابعين حيث ارتحل العالم سمكو بن واسول والد أمير سجلماسة المدراري إلى المدينة لأخذ العلم وربما العقيدة الخارجية عن عكرمة مولى ابن عباس وقد ذكر ابن خلكان أن عكرمة كان بربرياً يرى رأي الخوارج.

تعززت دولة الصفرية الخارجية في الصحراء المغربية إلى منتصف القرن الرابع حيث استحالت في عهد الناصر لدين الله إلى إمارة سنية تخضع للمذهب المالكي الذي انتشر في مجموع أصقاع المغرب إذا استثنينا فلولا معدودة من الفرق ظلت تنافس الخوارج كالشيعة الموسويين بأغمات والروافض بالأطلس الكبير، حسب ابن حوقل وهم أتباع موسى الكاظم الذي أخذ له ولده جعفر الصادق البيعة بعد وفاة ابنه إسماعيل (الإمام السابع للاسماعيلية)، وقد رفضت البيعة لموسى فعرفت بالرافضة التي وجدت

بالأطلس الكبير حسب البكري، والبجليين أتباع على بن عبد الله البجلي بماسة ونارودانت بسوس وقد استأصل المرابطون في صراعهم ضد البرغواطيين شأفة هذه الطوائف التي أسهمت نحواً من ثلاثة قرون في نشر العربية ضمن دعاويها العقائدية.

وكانت فاس ملتقى لشتى المذاهب السنية فقد عرفت مذهب الأوزاعي ومذهب أبي حنيفة قبل أن يستقر فيها مذهب إمام دار الهجرة، وكان الأوزاعي إمام أهل زمانه - كما يقول مالك - انتشر مذهبه في الشام نحو مائتي سنة، كما في خطط الشام لمحمد كرد علي، وكذلك في الأندلس قبل الأمويين «مدارك القاضي عياض» (ج ١ ص ٦٦)- إلى أن رحل إلى مالك قرعوس وشبطون زياد بن عبد الرحمن الذي أدخل الموطأ إلى الأندلس وغيرهما، فألزم هشام بن عبد الرحمن الأموي الناس بمذهب مالك حوالي ١٧٠ هـ، أي في حياة مالك، حيث كان شيخ الأندلس صعصعة بن سلام تلميذ الأوزاعي وإمام مذهبه قد أدخل كتب الحديث إلى الأندلس، (جذوة المقتبس الحميدي طبعة ١٩٥٢ ص ٢٢٧)، وقد لاحظ محمد كرد علي (مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق مجلد ٢٠ ص ٣٢١) أن بعض المذاهب كمذهب الأوزاعي لم تكن تقل عن غيرها شأناً غير أن الملوك لم يعضدوها، ولم يهم بها الخاصة والعامة، وللأوزاعي كتاب رد فيه على أبي حنيفة في خمس وثلاثين مسألة حربية، أي من القانون الدولي العام، وانتصر الشافعي في كتابه «الأم» (ج ٧) لأكثرها.

أما أبو حنيفة فقد ظهرت نظرياته بأفريقية إلى آخر القرن الرابع ومنها دخل إلى الأندلس وفاس حيث لم يحتد الصراع بين المذاهب لانصراف المغاربة إلى المذهب المالكي، على أن الإمام أبا جيدة الفاسي المتوفى حوالي ٣٦٠ هـ (سلوة الأنفاس لابن جعفر الكتاني ج ٢ ص ٩٢. طبعة فاس الحجرية) قد حمل معه من الشرق وثائق شافعية بالإضافة إلى تضلعه في التفاريع المالكية بينما لم يقدر ذلك للمذهب الحنبلي بالرغم عما أشيع من دخول

أحمد بن حنبل نفسه إلى المغرب [1]، وكذلك للمذهب الظاهري الذي تزعمه ابن حزم بالأندلس في القرن الخامس [2]

أما مذهب الإمام مالك فإن منطقة نفوذه تجاوزت البصرة والحجاز إلى الأندلس والجزر المتوسطية كصقلية وأفريقيا، حيث امتدت من مصر إلى تونس والسودان والمغرب الأقصى [3] وإذا كان هذا المذهب قد تعزز بالأندلس بفضل يحي بن يحي الليثي الذي كان مكيناً عند الأمويين وفي أفريقية بفضل سحنون صاحب المدونة (جذوة المقتبس ص ٣٦٠) فإنه تركز عندنا لأسباب شتى منها أن الأدارسة ساندوه لمساندة مالك بيعة العلويين وتقديس البربر لمدينة الرسول عليه السلام، ولعاداتها التي اعتبر مالك العمل بها دعامة لمذهبه، مع إقرار المصالح المرسلة وتحكيم الأعراف التي لا تصطدم مع روح الشريعة، وأبى المولى إدريس إلا أن يسند القضاء لتلميذ مالك وسفيان الثوري محمد بن سعيد القيسي (جذوة المقتبس ص ١٣).

وقد نشأت جامعة القرويين عام ٢٤٥ هـ في أحضان هذا المذهب كجامع تركزت فيه دراسة علوم الدين وعلوم الآلة مثل سائر المساجد التي تعتبر معبداً ومعهداً يأوي إليها الغريب ويجتمع في حلقاتها طلبة العلم ولكن هذا الجامع ما لبث أن أصبح في القرن الرابع مهبطاً لرواد الفكر والفقه والسنة، وكان جامع الأزهر [4] يؤدي نفس الرسالة في الجانب الشرقي لإفريقيا

---

(١) كما ورد ذلك في الاعلام للزركلي (ج ١ ص ١٩٢) وفي شعراء بغداد للخاقاني (ج ١ ص ٣٨٦) ومجلة اللسان العربي (عدد ٣ عام ١٩٦٥).

(٢) لاحظ أحمد أمين (ظهور الإسلام ج ٢ ص ٧) أن الإجتهاد انحصر منذ القرن الرابع في أربعة مذاهب وأبطل كما قيل نحو خمسمائة مذهب.

(٣) «الديباج المذهب في علماء المذاهب» لابن فرحون المطبعة الحجرية بفاس (ص ١٧)

(٤) بنى جامع الأزهر جوهر السقلي عام ٣٥٩ هـ أو ٣٦٠ م في حين تأسس جامع الزيتونة سنة ١٤١ هـ (٧٥٨ م) (صفوة الإعتبار بمستودع الأنصار والأقطار للشيخ بيرم ج ١ ص ١٢٢).

الشمالية بينما ظلت جامعة الزيتونة بتونس العاصمة تتنافس مع القيروان ثم مع بجاية في القرن السابع.

وكانت للعوامل السياسية يد قوية في الاختبارات العقائدية، إذ ما كادت مثلاً مخطوطات «إحياء علوم الدين» للغزالي تنتشر بالمغرب حتى انبرى خصوم المهدي بن تومرت من المرابطين يدعون إلى تحريقها لما شاع آنذاك من اتصال الرجلين، وأكد ملاقاة ابن تومرت والغزالي ابن الخطيب في الحلل، واليوسي في المحاضرات والزركشي في تاريخ الدولتين، والزبيدي، ولم يجزم ابن خلدون في تاريخه، ولا صاحب المعجب، وقطع بنفيه ابن الأثير في الكامل، والصواب في نظرنا التوقف لعدم وجود الدليل على هذا اللقاء.

وكان لتسرب المفاهيم والتعابير الفلسفية الغزالية أثرها في أوساط الفقهاء الذين ما لبث المهدي بن تومرت أن حملهم على عقيدة الأشعري السلفية من تأويل متشابه القرآن والحديث استناداً إلى ضروب المجازات مما يتلاءم وروح الشرع ويعضده العقل والطبع، وحظر المنصور الموحدي التقليد في الفروع وحمل الناس على الرجوع للأصلين على طريقة الاجتهاد المطلق، وأحرق كتب المذهب المالكي بعد تجريدها من الحديث والقرآن كمدونة سحنون، وأول من أدخلها إلى فاس دارس بن اسماعيل المتوفى عام ٣٦٢ هـ، وكتاب ابن يونس ونوادر ابن أبي زيد ومختصره وتهذيب البرادعي وواضحة ابن حبيب مستعيضاً عنها بأحاديث اقتبست من المصنفات العشرة على غرار ما نسقه ابن تومرت من أحاديث الطهارة، فصار المنصور يمليها بنفسه كما سيفعل السلطان العلوي محمد بن عبد الله في القرن الثاني عشر الهجري [٥]

وقد انتشرت هذه المجاميع وحفظها الناس من العوام والخواص [٦]، ومعلوم أن الأشعري لم يكن يؤمن بقدرة العقل المطلقة في البحث عن البراهين

---

(٥) إلا أن هذا السلطان كان ينهى في نفس الوقت عن تدريس الأصول إذ لم يبق في نظره اجتهاد (الاتحاف لابن زيدان ج ٣ ص ٢١٣).

(٦) «المعجب في تلخيص أخبار المغرب» لعبد الواحد المراكشي طبعة سلا عام ١٣٥٧ - ١٩٣٨ ص ١٧٧.

للدفاع عن الدين ولكنه لم ينكر أيضاً قيمة العقل فلذلك هدف إلى إبراز «موافقة العقل الصريح للشرع الصحيح» وهذا عنوان كتاب للحافظ ابن تيمية وقد ثار أبو بكر بن العربي في كتابه (القواصم والعواصم) ضد ما أصاب العلماء في عهد المرابطين من جمود على تفاريع المذهب وضد طريقة التعليم التي تدرجت آنذاك من تلقين القرآن إلى الأدب ثم الموطأ فالمدونة فوثائق ابن العطار فأحكام ابن سهل،

ولم تكن هذه الانتفاضات الموحدية خلواً من دخيل سياسي، كالمهدوية الشيعية التي عزز بها ابن تومرت نظام دولته.

★ ★ ★

تروى في قصة المهدوية أحاديث وآثار وأخبار أوصلها ابن أبي نعيم إلى الأربعين وأضاف إليها السيوطي المصري ما نماها وحللها فراجت في المغرب وأثارت موجة من الادعاءات حملت ابن خلدون على نقضها وتفصيل القول في مناكرها ومع ذلك ظهر متنبئون كابن هود الماسي وحاصم الغماري وابن أبي محلي ووجد الكهان مجالاً واسعاً لمخاريق أسندوها إلى حسابات «الجفرية» وهي جداول منسوبة إلى جعفر الصادق إمام الشيعة محشوة بالتنبؤات عن ماجريات المستقبل بارقام ومربعات أصبحت لغة للكتبة المشعوذين وخاصة في الأطلس الصغير.

ذاع صيت المغاربة شرقاً لاستبحارهم في علوم الطلاسم والتنزلات الروحانية التي تخللت تعابيرها حروف سريانية وعبرية وتداخلت هذه المعطيات مع أسرار التنجيم التي خيرها فقهاء ومتصوفة أدرجوا معها خواص الأسماء وكان لذلك أثره في تعقيد التأويلات القرآنية، وخلق مصطلحات جديدة، أورد بعضها ابن خلدون الذي علل لنا ببراعته بعض عناصرها، مشيراً إلى تكهنات مالك بن وهيب فقيه المرابطين ضد ابن تومرت الذي استغل في دعاويه هذا الاستعداد الفطري في نفوس العامة فبدأ بتأسيس رابطة للعبادة جمع فيها طلبة

القبائل ولقنهم تعاليم التوحيد بكتابة «المرشدة» باللسان البربري، ولقب أنصاره بالموحدين ووصم خصومه بالتجسيم وهب لقتالهم باسم الدين.

ومهما يكن فإن سوق القرآن والحديث نفق فظهر أول تفسير للقرآن لابن عطية اقتبسه من «كشاف» الزمخشرية مجرداً من عناصر الاعتزال كما تتلمذ للشرق محدثون مغاربة. منهم ابن سمجون اللواتي الطنجي الذي أقام يقرر الحديث في المشرق ولم يدخله حتى حفظ - كما يقول ياقوت - أربعة وثلاثين ألف بيت من شعر الجاهلية (معجم البلدان ج ٢ ص ٦٢) ومحمد الجياني البغدادي الذي روى عن الطبري وجلب من تآليفه أحكام القرآن وأصول الفقه والرد على ابن حنبل. توفي عام ٥٤٦ هـ (سلوة الأنفاس ج ٣ ص ٢٦٧)، وميمون بن ياسين الذي قرأ على الطبري صحيح مسلم وجمال الدين البغدادي الشافعي الذي ولد بقصر كتامة بشمال المغرب وعمر بن الطوير المراكشي الذي عرف في مصر بأبي الخطاب السوسي، وأدخل إلى المغرب مسائل الخلاف وحفظ البرهان لإمام الحرمين، توفي عام ٦٢٢ كما في الذيل والتكملة، ومحمد بن المنذر المراكشي تلميذ إمام الحنابلة الشيخ مولاي عبد القادر الجيلاني، وقد درس الحديث والفقه ببغداد (الأعلام للمراكشي ج ٤ ص ٣٨٣). ومحمد بن الخضار السبتي الذي سمع من ابن الصلاح في علوم الحديث «توفي بدمشق عام ٦٣٤ هـ درة الجمال ص ٢٨٢». وعلي الحرالي الذي كان ابتدع في التدريس منهاجاً «يتنزل في التفسير منزلة أصول الفقه في الأحكام» علاوة على تبريزه في المنطق والطبيعيات والإلهيات حتى كان ينقض النجاة لابن سينا «نيل الابتهاج للسوداني ص ١٨٧». ومحمد بن عمران الشريف الكركسي الفاسي شيخ المالكية والشافعية في الديار المصرية والشامية قال فيه تلميذه القرافي إنه تفرد بمعرفة ثلاثين علما وحده وشارك الناس في علومهم (الديباج المذهب لابن فرحون ص ٢٨٦). ويونس بن طربية القصري الذي وُلي التدريس بدار الحديث الكاملية بالقاهرة سنة ٦٤١ هـ.

وبذلك أعطى المغرب الأقصى الدليل الناصع على أهلية كاملة لتحمل

رسالته الروحية الخالدة في العالم الاسلامي وبرزت فصحى هذا الشق النائي من جناحي العروبة كابلغ ما تكون العربية في أصالتها وجزالتها ودقة مصطلحاتها في الخلاف العالي والتفاريع الفقهية وبذلك يمكن القول بأن الانتاج المغربي قد اتحد مع الشرق في هذا المجال مبنى ومعنى على أن نزعة الإصلاح والتجديد لم تقتصر على الطب والصيدلة والكيمياء والفلسفة بل شملت حتى علوم الآلة كنظرية ابن مضاء قاضي قضاة قرطبة أيام الموحدين حول إنكار العامل في النحو. كما ذكر أحمد أمين (ظهور الإسلام ص ١١٨) حيث لاحظ نقلاً عن ابن جني «أن الحركات من الرفع ومن النصب والجر والجزم إنما هي للمتكلم نفسه لا لشيء غيره... وأن ضرب انتهت بمجرد النطق بها فلا يمكن أن تكون عاملاً في زيد أو عمر...».

وقد أصبحت فاس آنذاك بجامعتها حاضرة المغرب وملتقى علمي القيروان وقرطبة «المعجب للمراكشي ص ٢٢١».

وتركزت في القرويين بالإضافة إلى علوم التفسير والحديث والأصول والفقه والعلوم التقليدية كالنحو والبيان والمعاني والبديع والمنطق والعروض والكلام والتوحيد والتصوف واللغة والأدب والتصريف وكذلك الطب والرياضيات (وهي الحساب بالمغرب) والجغرافية والتاريخ. وقد وصف هذه الدروس الرحالة البلجيكي اكلينار الذي زار المغرب عام ٩٤٨ هـ (١٥٤٠ م) وكتب رسالة باللاتيني عن القرويين وعوائد الطلبة وأوصل عدد مدارس فاس إلى المائتين ولعله يعني الكتاتيب القرآنية.

وتزايدت أفواج الطلبة الواردين على فاس من مختلف الأقطار الإفريقية والغربية مثل جيربير Gerbert الذي عين بعد ذلك على رأس الكنيسة باسم البابا سلفستر الثاني Sylvestre II عام ٩٩٩ م وأدخل الأرقام العربية إلى أوربا. وقد عززت دولة بني مرين هي الأخرى نظامها السياسي بتكتيل الطلبة تحت شعار السنة وبناء المدارس ومساندة الصوفية وتشجيع الزوايا والأضرحة

التي نفق فيها سوق جديدة بعاداتها وتقاليدها ودسائسها ومناطق نفوذها وأدبها الخاص ولغتها ومصطلحاتها.

وكان مفضل العبدري صاحب الشرطة والحسبة بفاس أول من سن سنة بناء المدارس (جذوة الاقتباس لابن القاضي ص ٢٢٠) وقام ضد بنائها محمد الأبلي العبدري شيخ ابن خلدون ملاحظاً أن ملكة العلم اندرست مع بناء المدارس وأيده ابن باب السوداني (نيل الابتهاج ص ٢٤٦) وقد بلغ عدد المدارس بفاس أربعة عشر هي عبارة عن أحياء جامعية أي مساكن للطلبة تحتوي على غرف.

* * *

ورغم تصارع الأفكار في هذا الخضم من البدع التي غزت السنة في عقر دارها فإن العلم بالمغرب ظل محاطاً بسياج من القداسة بالرغم عن فقدان الملكة والتحقيق العلمي - كما يقول ابن خلدون (نشر المثاني للقاري ج ٢ ص ٩٧)، وغلبة الاستظهار حتى قال علي بن ميمون الذي زار الشرق فوازن بين فاس وحواضره في الشام ومصر من حيث الأصالة العلمية فقال: «ما رأيت مثلها (أي فاس) ومثل علمائها في حفظ ظاهر الشرع العزيز بالقول والفعل وغزارة الحفظ لنصوص إمامهم مالك وحفظ سائر العلوم الظاهرة من الفقه والحديث والتفسير وحفظ نصوص كل علم مثل النحو والفرائض والحساب وعلم التوقيت والتعديل والتوحيد والمنطق والبيان والطب وسائر العلوم العقلية..» كان موسى بن زيري الهكوري المعروف بالبخاري يحفظ كتاب سيبويه عن ظهر قلب (درة الحجال - طبعة الرباط ١٩٣٤ ص ٣١٤).

وقد تابع مئات العلماء رحلاتهم إلى الشرق نذكر منهم كنماذج لنوع التبادل بين الجناحين:

تاج الدين محمد بن إبراهيم المراكشي (٧٠١ - ٧٥٢ هـ) الذي أعاد بقبة الشافعي بالقاهرة، وولي تدريس المسرورية ودار الحديث الأشرفية حيث

خلفه تقي الدين السبكي (الدارس في تاريخ المدارس للنعيمي ج ١ ص ٤٥٨).

وابن المواق أحمد النجيبي الذي استظهر الموطأ بمصر فضرب شيوخ المالكية الطبول على رأسه. توفي عام ٢٢٥ هـ (السلوة ج ٣ ص ٢٤٤).

والمحدث الفقيه التاودي بن سودة الفاسي شيخ مرتضى الزبيدي (راجع مادة سود في شرح القاموس للزبيدي).

وابن زكري الفاسي الذي عقد علماء الأزهر مجلساً لمناظرته في القضايا الفقهية كشرب الدخان. سلوة ج١ ص ٨٢).

ويحي بن موسى الرهوني الحافظ الأديب المنطقي الذي تولى التدريس في المنصورة والخانقاه الشيخونية بالقاهرة. توفي عام ٧٧٤ هـ (درة الحجال ص ٤٩٠).

وجمال الدين محمد بن موسى المراكشي الذي سمع من شيوخ مصر والشام والقدس واليمن حيث ولي مدرسة الناصر. مات عام ٨٢٣ هـ (الأعلام الزركلي ج ٤ ص ٥٠ وذيول طبقات الحافظ).

والكمال بن أبي البركات المكناسي شيخ المحدث الحافظ ابن حجر العسقلاني (الإصابة ج ٤ حرف م) ومحمد تقي الدين الفاسي الذي وافق ابن حجر في السماع بمصر والشام واليمن (نيل الابتهاج ج ١ ص ٣١٨).

وابن الخضري المراكشي المصري الذي ذكر المقريزي أنه كان يحفظ العمدة والألمام لابن دقيق العيد والشاطبيتين والطوالع في أصول الدين، وابن الجلاب والرسالة في الفقه والحاجبية والملحة، وغالب ألفية ابن مالك والتلخيص وقد طارح الأدباء وقرض الشعر وشارك في اللغة والطب والهيئة وولي الفقه في مصر بجامع الحاكم والقرانسقرية والحسنية والحديث بالفاضلية والإفادة بالكاملية والمنصورية، وتوفي عام ٨٧٢ هـ (الإعلام ج ٤ ص ١٢٥).

وعبد الرحمن سقين الذي أخذ الحديث عن القلقشندي وزكرياء الأنصاري والبخاري بمصر وعن ابن فهد بمكة (السلوى ج ٢ ص ١٦٠).

وإدريس العراقي الفاسي الذي كان له ـ كما يقول صاحب السلوة ـ فضل على محدثي مصر حيث استدرك أحاديث كثيرة على الجامع الكبير للسيوطي تنيف على الخمسة آلاف وكان احفظ من ابن حجر. (السلوى ج ١ ص ١٤٢).

ومحمد بن محمد سليمان الروداني الفاسي الذي وصفه صاحب «خلاصة الأثر» بأنه «فرد الدنيا في العلوم» حصلت له بعد التطواف بمصر والحجاز والشام وبلاد الروم الرياسة العظمى في علوم خاصة كالطبيعي والأهي والرياضة والارتماطيقي والمساحة والرمل والحروف والسمياء وله كتاب جمع فيه كل مصنفات الحديث ضمن مقارنات علمية رائعة (طبع باسم مجمع الفوائد في مجلدين. توفي عام ١٠٩١ ـ «الأعلام للزركلي ج ٤ ص ٣٣٤» ـ).

ومدرسة الشيخونية كانت أكبر مدرسة بمصر [٧] انضم إليها علماء مغاربة برزوا في شتى العلوم والفنون وقد قامت على أكتاف الفنان عبد الكريم الفاسي ـ كما يقول تيمور في كتابه حول التصوير عند العرب ـ نهضة متواضعة في صناعة الخزف بمصر في القرن الماضي حيث كان يصنع ألواح القاشاني (يسمى نوع منها الحائطيات بالمغرب) لتغطية جدران العمائر وتوجد الآن نماذج منها في دار الآثار العربية بالقاهرة.

★ ★ ★

ولم يحظ المغرب الأقصى في مختلف العصور من علماء المشرق إذا استثنينا الوافدين في عهد المنصور السعدي (اي أوائل القرن الحادي عشر الهجريّ) من الحجاز وفلسطين ومصر والشام والعراق والهند وقد سبق لصلاح الدين الأيوبي أن بعث وفداً إلى المنصور الموحدي عام ٥٨٥ هـ يطلب منه إمداده بأسطول لمحاصرة عكا وصور وطرابلس الشام وأوفد إليه أبا الحرث عبد الرحمن بن منقذ مع رسالة من إنشاء القاضي الفاضل وقصيدة من نظم ابن منقذ مطلعها:

---

(٧) نيل الابتهاج ص ٨٤ و ٩٦ وقد كان بمصر في آخر القرن الماضي (عام ١٨٩٨ م) نحو ١٥٠٠ مغربي (الوثائق المغربية ج ١١ عام ١٩٠٧).

فأشكر بحراً ذا عباب قطعته إلى بحر جود لأخراه ساحل

وكل من الرسالة والقصيدة لا تختلفان في معناهما ومبناهما عن اللون العادي المتحجر الذي وسم الأدب العربي في هذا العصر شرقاً وغرباً والذي جعل مصطلحاته متناسقة موحدة.

هذه اللائحة طويلة استهدفت من سرد أسمائها إعطاء صورة عن إتجاه علماء المغرب الجديد في إعطاء الأسبقية للعلوم الإسلامية لا سيما منها التفسير والحديث والفقه مما أضفى على دراساتهم - رغم كلاسيكيتها وتفاريعها الاستطرتدية المملة - طابعاً خاصاً جعل منها مرجعاً هاماً في تاريخ التشريع الإسلامي وتاريخ تطور اللغة.

وإذا كان الرحالون المغاربة من العلماء قد تضاءلوا في القرن الماضي بسبب الحواجز الاستعمارية التي أقيمت في طريق الحجيج بالجزائر منذ عام ١٨٣٠ م فإن المغرب ظل مع ذلك يتتبع بتلهف جميع حركات التجديد المنبثقة من الشرق ويوالي بعث وفود رسمية تحمل دورياً هدايا وصلات لرجال الفكر وأرباع الأوقاف المرصودة لإعانة الطلبة.

وقد حبس السلطان محمد بن عبد الله مصنفات شتّى على مكاتب القاهرة والإسكندرية وجلب كتباً من الشعر ورتب لأهل الحجاز واليمن مائة ألف مثقال ذهبي كل عام (الاتحاف لابن ريدن ج ٣ س ٢٥١) والمثقال الذهبي قد عوض الدينار بالمغرب وضرب نوع منه بالرباط عام ١٧٠٧. وكانت قيمته أقل من الدينار.

وجدد عصر الموحدين بالدعوة إلى السلفية ودراسة الحديث وأمهات الكتب تنمية الملكة العلمية بدلاً من الانكباب على المختصرات التي حجرت الفكر وضرب لذلك أمثلة حية بتصنيف نماذج رائعة كما أصدر نجله السلطان سليمان رسالة نحا فيها منحى السلفية الصحيحة بالتحذير من الحياد عن المذهب السني وعدم التغالي في المراسيم الصوفية وكان كتاب عبد الله بن سعود قد وصل آنذاك إلى تونس وفاس يحلل أسس الدعوة الوهابية (أي المذهب السلفي كما يراه محمد بن عبد الوهاب) فتصدى للجواب عنه عالم فاس الشيخ حمدون بن

الحاج باسم السلطان وحمل الجواب إلى الحجاز نجله الأمير إبراهيم في وفد من العلماء لمناظرة الوهابيين.

وهكذا برهن المغرب دوما عن روح إسلامية فياضة أهلت الشمال الإفريقي لاحتضان التراث الأندلسي ولربط أمجاد الماضي والحاضر والسهر على معطيات الفكر الإسلامي في سلفيته الحق ولطبع الأجيال المتوالية بميسم المثالية في نطاق الوحدة الإسلامية وكانت هذه الروح تذكي حتى المرأة في خدرها بالرغم عن الدور المحدود الذي اسهمت به في تركيز التكوين الفكري في المجتمع المغربي نظراً لانتشار الأمية بين النساء وإذا كانت المرأة هي المدرسة الأولى للحياة والنواة الجوهرية لدعم الوعي الديني داخل الأسرة فإن حصافة المرأة المغربية قد جعلت منها ـ بالرغم من ثقافتها المحدودة ـ مربية بارعة تضرب المثل الحي برصانة تفكيرها وحسن تدبيرها على أن ثلة من النساء قد نبغن ـ على قلتهن ـ في مختلف المجالات الثقافية وخاصة في العلوم الإسلامية كخيرونة الفاسية والشيخة أم قاسم الأسفية وأم هانىء العبدوسية.

وقد توالى بناء المدارس الدينية حتى بلغ عددها المائتين في سوس وحدها وانتشرت آلاف الكتاتيب القرآنية على نطاق واسع في السهل والجبل كروافد للكليات والمعاهد «الأصلية» التي انطلق منها الإشعاع الديني بلغة القرآن وقد ظلت جامعة القرويين طوال مدة الاحتلال الاستعماري منبثقاً للأحرار الذين أججوا نار الثورة ووثقوا الصلة مع زعماء الإسلام في الشرق أمثال الأفغاني وعبده ورشيد رضى ـ بعدما أوهنتها دسائس الاستعمار.

★ ★ ★

نستجلي من هذا الاستعراض لتطور الفكر الإسلامي في المغرب الأقصى صوراً لوحدة اللغة وتناسق مصطلحاتها مع الشرق العربي بفضل جهود دائبة ما فتىء يبذلها رسل الفكر طوال ألف عام من الاستقلال إلا أن المغرب الأقصى ربما انفرد بلون خاص يرجع لانتشار حفظ القرآن والحديث والمتون الفقهية والنصوص النحوية وحتى المعاجم اللغوية (في شنقيط وسوس) مما فسح المجال لمئات المفردات العربية الخالصة التى طعمت لغة الخاصة والعامة، وكان

للحلقات العلمية التي تعقد يومياً ويحضرها الجمهور في مختلف المساجد (وما أكثرها بالمغرب، حيث بلغت بفاس وحدها في عهد الموحدين زهاء خمسين وسبعمائة.

أثر في توعية الشعب وتفصيح لسانه حتى أصبحت الآية القرآنية والأحاديث النبوية والحكم الصوفية تتردد على كل لسان وأمسى القرآن «معجم المساكين» - كما يقول المثل العامي - يصححون منه اللغة، وإذا قصرنا التنظير بجزء يسير مما ورد في كتابنا «المعجم الصوفي من القرآن» فإن حرف الألف منه يبلغ المائة، منها كلمات الاخلاص وأرذل العمر والاستدراج والاستغاثة والاستغفار والاستقامة والاسراب والأصنام والاطلاع على الغيب والاعتصام والاقتصاد واقشعرار الجلد والألواح والأمان والأمانة والامتثال والانابة وأنباء الغيب والإنذار والأنصاب والإنفاق والأوثان والأولياء والإلحاد والأئمة والإيمان.

وقد دخلت كثير من التعابير القرآنية في لغة العامة مثل قولهم «قتل كيف قدر» (أي مات حسب العامة، طبقاً لما قدر في الأزل) وقاتلهم الله وخذوه فاقتلوه (وهي كناية عن فعل الشيء باستعجال) وبالله وتعال (بمعنى تعال وائت) وقل باسم الله أو توكل على الله (أي أشرع في العمل) والصلاة على النبي (إشارة إلى النهاية أو الكفاية خبراً أو إنشاء) ولا الضالين (كناية عن الموافقة بدلاً من نعم وبالتي هي أحسن (أي بالمهل إلى غير ذلك).

ومن المصطلحات التي تسربت إلى الفصحى والعامية عن طريق الحديث النبوي الشريف قولهم: حج فلان (أي بلغ الغاية) وصلى عليه صلاة الجنازة (أي يئس من خيره وشره واعتبره كأنه مات) وكفر عليه (أي اغتاظ منه) وفلان حال وأحوال (أي كثير التغير)، وقد استعملت مثلا لفظتان في المغرب بمعنى خاص طبقاً لمفهوم حديثين شريفين وهما: «المطاهر» بمعنى المراحيض (وتسمى أيضاً الميضاءات) طبقاً للحديث الذي رواه مكحول عن معاذ مرفوعا: «اتخذوا على أبواب مساجدكم المطاهر» وكذلك لفظ «البيت» بمعنى الجزء الصغير من الدار كلها فعن أحمد بن حنبل أن زوجة أبي

حميد الساعدي قالت: «يا رسول الله إني أحب الصلاة معك» قال: «قد علمت أنك تحبين الصلاة معي وصلاتك في بيتك خير من صلاتك في حجرتك وصلاتك في حجرتك خير من صلاتك في دارك وصلاتك في دارك خير من صلاتك في مسجد قومك».

وأما كتب الفقهاء فقد دقت مفاهيمها وكتبت حول نصوصها ومتونها مئات الشروح التحليلية وأصبحت لغتها من أعمق اللغات دلالة ووضوحاً وقد وضعنا معجماً للفقه المالكي (باللغتين العربية والفرنسية) [٨] يعطينا صورة عن مدى تلك الدقة وقد اندرج معظم هذه الألفاظ في الحياة اليومية.

ونكتفي هنا بالإشارة إلى كلمات من حرف الألف كأبراء واتفاق العلماء وإثبات الدليل والإجبار والاجتهاد والإيجار والأجرة والأجل والاختبار والارتداد والإثراء والاستحقاق والاستحالة والاستماع والاشتراك والأصول والاعتصاب والإفناء والإقامة والحدود والإقرار وإقامة البينة والأمر بالمعروف وإمضاء البيع وإمارة المؤمنين والإنفاق والإنكار وأهل الحل والعقد.

وقد كان للروح الاستقلالية في التشريع بالمغرب مظهرها البارز في الإجتهاد داخل المذهب المالكي نفسه حيث فرضت فاس مثلا نظرها الخاص في قضايا قانونية وفقهية تجلت في العمل الفاسي «الذي نظمه الشيخ عبد الرحمن الفاسي وشرحه الشيخ السجلماسي».

وقد صنفت الآلاف من الكتب في الفقه والفتاوى والنوازل والأحكام بذت ما عرفه الشرق وحفلت بالتعريفات الدقيقة للمفاهيم والمدلولات التي تزخر بها تلك المصنفات حتى صار الدرس الفقهي في كراسي جامعة القرويين عبارة عن تحليل لتلك التعاريف [٩] التي كثيراً ما تنظم شعراً كقول ابن عاصم في تحفته:

«وما انتهت للجوف فهي الجائفة».

---

(٨) نشر في العدد الرابع من مجلة اللسان العربي (ص ١٢٥) مع المعجم الصوفي (ص ١٧٦).

(٩) عرفت تونس أيضاً شيئاً من ذلك يتجلى في تعريفات ابن عرفة.

وقوله:

والرتق داء الفرج في النساء كالقرن والعفل والإفضاء
والبضع بالبضع هو الشغار وعقده ليس له قرار
وسمي الضامن بالحميل كذاك بالزعيم والكفيل
والجنس بالجنس هو المراطلة بالوزن أو بالعد فالمبادلة

ولا تخلو بعض مصنفات الفقه في الشرق من هذا الإيجاز الغامض الذي حررت الملازم العديدة لحل ألغازه كمختصر الشيخ خليل المصري الذي أدخله إلى المغرب منذ القرن الثامن الهجري محمد بن الفتوح المكناسي المتوفى عام ٨١٨ هـ «درة الحجال ج ١ ص ٣٩٣»[١] والذي حفظه الطلبة وحتى العامة عن ظهر قلب وقد دخلت كتب الحديث واللغة إلى الأندلس ومنها الى المغرب على يد قاسم بن ثابت بن حزم وهو أول من نقل كتاب العين (تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي ج ١ ص ٢٩٤) كما نقل ابن الضابط عثمان بن أبي بكر الصدفي كتاب غريب الحديث للخطابي ومحمد بن ابراهيم التلمساني شامل بهرام وشرحه لمختصر خليل وحواشي التفتازاني على العضد وابن هلال على ابن الحاجب في الفقه (شجرة النووس ٢٥٤) أما في الادب والفلسفة فقد أدخل عثمان بن المثنى القرطبي (المتوفى عام ٢٧٣ هـ) شعر أبي تمام بعد أن قرأه عليه (ابن الفرضي ص ٢٤٩) وفرج بن سلام القرطبي كتاب «البيان والتبيين» باجازة مباشرة من الجاحظ (ابن الفرضي ص ٢٨٦) وأبو الحكم الكرماني رسائل إخوان الصفا (طبقات الأمم ص ٧١).

وبذلك، تكونُ العلوم الإسلامية قد أسْهمت بحظ وافر في تطوير لغة الضاد بهذا الجناح الغربي للعروبة.

غير أن التعليم الإسلامي ما لبث أن تقلص وتقلصت معه حركة الوعظ والإرشاد في المساجد وما تستتبعه من توعية شعبية عن طريق اللغة العربية وبدأت الإذاعة والتلفزة والصحافة تقدم يومياً للشعب حصيلة لا بأس بها من

(١) راجع كتابينا «المعجم الصوفي» و «المعجم الصوفي من القرآن».

مصطلحات العصر تعزز أحياناً بفتاوى دينية تصل بين ماضي هذا البلد المسلم المحافظ وحاضره المتأرجح بين مختلف التيارات ورأى حماة العربية من رجال القرويين وغيرهم في ذلك مأساة لمستقبل اللغة في روعتها الأصيلة فحدت خفارتهم اليقظة الجيل الجديد إلى الدعوة لعربية عصرية تستجيب لمقتضيات الحضارة الحديثة وللتقنيات الملحة في دقتها ووضوحها.

(ج) بعض عوامل تطوير الفكر واللغة:

التصوف المغربي قطعة حية من التصوف الإسلامي العربي لما تركته نظريات الصوفية المغاربة من آثار عميقة في الفكرة الصوفية الشرقية.

ونزعة فصل التصوف عن الروح العربية الإسلامية نزعة شبيهة بما حاوله بعضهم أمثال رونان Renan الذي قرر في كتابه (ابن رشد ومذهبه) (Averroes et L'Averroisme) من أن ما يسمونه فلسفة عربية ليس إلا مجرد محاكاة أو تقليد لأرسطو وضرباً من التكرار لآراء وأفكار اليونانيين كتب باللغة العربية (ص ٧) ولكنه تناقض مع نفسه حيث اعترف (ص ٨٩) (بأن العرب مثل اللاتين - مع تظاهرهم بشرح أرسطو عرفوا كيف يخلقون لأنفسهم فلسفة ملأى بالعناصر الخاصة والمخالفة جد المخالفة لما كان يدرس في الليسيوم) ولم يخف هذا التناقض على أحد معاصري روزن وهو دوكا الذي ذكر في مقدمة كتابه (تاريخ الفلاسفة وعلماء الكلام المسلمين) histoire des philosophes et Theologiens musulmans أنه لا يمكن لعقلية كعقلية ابن سينا إلا أن تنتج جديداً.

وقد ضربت مثلا بالفلسفة لما بينها وبين التصوف من وثيق الصلة وقد جنح أحمد بن عبد الله بن محمد الدزوم المراكشي نزيل القاهرة، جنح الى التصوف الفلسفي ونسخ الفتوحات المكيّة والتنزلات الموصلية فكان أبو حيان لذلك يرميه بالزندقة وصار هو يصف أبا حيان بأنه ظاهري حتى في النحو.

وكان أحمد بن ابراهيم بن احمد بن صفوان: مشاركاً في الفلسفة والتصوف كلفاً بالعلوم الإلاهية تلميذ بن عبد الملك المؤرخ وشيخ ابن الخطيب.

وقد قيل إن التصوف قطعة من مذهب الفارابي الفلسفي لا ظاهرة عرضية فيه كما يزعم كارادوفو صاحب (مفكرو الإسلام) وقد تأثر الفيلسوف المغربي ابن طفيل بالنزعة الصوفية في (رسالة حي بن يقظان) حيث وصف بطل القصة (ص ١١٤) بأنه (لما فني عن ذاته وعن جميع الذوات ولم يرفي الوجود إلا الواحد القيوم وشاهد ما شاهد عاد إلى ملاحظة الأغيار عندما أفاق من حاله تلك التي هي شبيهة بالسكر خطر بباله أنه لاذات له يغاير بها ذات الحق وأن حقيقة ذاته هي ذات الحق.. بل ليس ثمة شيء إلا ذات الحق) وقد ذهب الناس مذاهب شتى في تعريف التصوف حتى ساق ابن السبكي في طبقاته (ج ٣ ص ٢٣٩) ألف تعريف سهر على التقاطها من مختلف المصادر أبو منصور عبد القاهر البغدادي ورتبها تبعاً لأصحابها على حسب الحروف الهجائية.

ويلذ لي أن انقل لهؤلاء الذين يزعمون أن التصوف المغربي تأثر بالنزعة الصوفية المسيحية ـ لا سيما ما سينيون الذي زعم أن الشيخ ابن عربي الحاتمي استمد من نظريات الكنيسة ـ ما قرره المستشرق الاسباني أسين بلاسيوس من ان نزعات دانتي (Dante) الايطالي وأوصافه لعالم الغيب مستمدة من كتب محي الدين الحاتمي دون كبير تصرف وكذلك أكهارت الألماني أول الفلاسفة الصوفية الغربيين الذي نشأ في القرن التالي لعصر ابن عربي ودرس في جامعة باريس وهي الجامعة التي كانت تعتمد على الثقافة الأندلسية في الحكمة والعلوم وقد اقتبس ريموند من ابن عربي خاصة في كتابه (أسماء الله الحسنى) لأنه كان يحسن العربية وعاش بعد ابن عربي بقرن واحد وجعل أسماء الله الحسنى مائة وهي لم تعرف بهذا العدد في الديانة المسيحية قبل ذلك.

وسبينوزا اليهودي البرتغالي كان كلامه عن الذات والصفات نسخة من فلسفة المتصوفة المسلمين مع قليل من التحوير، والمسيحية تكاد تكون فارغة من الفكرة الصوفية كما اعترف بذلك ميشو بيلير في محاضراته حيث ذكر أنه

إذا استثنينا ما في بعض الأساطير من ذكر الكرامات وكذلك سيرة القديسة تيريز والقديس فرانسوا داسيز فإنه لا يبقى شيء بالمرة.

ويقول جامي في نفحات الأنس (ص ٣٤) بأن أول من تسمى صوفيا هو أبو الهاشم الكوفي المعاصر لسفيان الثوري ويرى السراج في اللمع (ص ٢٢) أن أهل بغداد هم الذين اخترعوا هذه الكلمة.

وأول من تكلم في بغداد في الحقائق الإلاهية والتوحيد سرى السقطي (تذكرة الأولياء ج ١ ص ٢٧٤) واول من حاضر الناس في التصوف يحيى ابن معاذ الرازي المتوفى سنة ٢٥٨ هـ (التذكرة ج ١ ص ٢٩٩).

وقد أصبح التصوف مذهبا منظما أثناء الجزء الأخير من القرن الثالث (نيكولسون ص ٢٨) ويلوح من ثنايا الرسالة القشيرية والتذكرة ونفحات الأنس أن صوفية هذا القرن اتخذوا القرآن والسنة ميزاناً لجميع ما يخوضون فيه من بحوث نظرية وما يحسونه من حالات وجدانية.

ولكن منذ ذلك العصر تسربت شوائب مريبة الى الفكرة الصوفية التي بدأت نقية طاهرة وقد ذكر عبد الله الأنصاري الهروي المتوفى سنة ٤٨١ هـ أن كثيراً من الأكاذيب انتحلت باسم أبي البسطامي مثل قوله صعدت الى السماء وضربت قبتي بإزاء العرش (نفحات الأنس ص ٦٣) وهو القول الذي بنوا عليه قصة معراج أبي يزيد التي يقصها فريد الدين العطار في تذكرته بتفصيل.

وانتظام هذا المذهب ليس معناه اتحاد وجهات نظر من دان به لأن تعاريف التصوف بلغت كما قلنا الألف ورد منها مائتان في الرسالة والتذكرة والنفحات وهذه التعريفات العديدة تدل على تعدد وجوه النظر في تصور الفكرة الصوفية (مجلة الجمعية الأسيوية سنة ١٩٠٦ ص ٣٣٠) فقد عرف

الكرخي التصوف بأنه الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق (الرسالة القشيرية ص ١٤٩) ووصفه أبو حفص الحداد بأنه تمام الأدب (التذكرة ج ١ ص ٣٦١) وذكر أبو الحسين النووي أن التصوف برقة محرقة (الرسالة ص ١٤٩) وقرر أبو سعيد بن العربي أن التصوف ترك الفضول (نفحات الأنس ص ٢٤٨) وقال أبو الحسن اليوشنجي: (التصوف ضعف الأمل ومداومة العمل).

اما الخانقاهات والرباطات الصوفية فقد بدأت تظهر قبل نهاية القرن الثاني الهجري وأول خانقاه أسس لمتصوفة المسلمين (على ما في النفحات ص ٣٤) كان بالرملة في فلسطين وذكر المقريزي في خططه (ج ٢ ص ٤١٤) أن الخانقاهات - أو الخانقات كما يسميها - وجدت في الإسلام في القرن الخامس الهجري.

والخانقاه أعمق في التزمت والرهبنة مما عرف بعد بالزوايا لأن الخانقاهات كانت مبنية في معظمها على نظام صارم من التبتل والرهبنة.

* * *

وتاريخ الحركة الصوفية جزء من تاريخنا العام الذي لا يشمل الجانب السياسي والاقتصادي والاجتماعي فحسب بل يتجاوزه الى الجانب الثقافي والروحي. على ان التصوف المغربي كان له كبير أثر في توجيه وتلوين جميع مرافق الحياة بحيث انتشرت شذراته في مصنفات لم يكن من المنتظر أن تحفل بـه، وتـوجد أخبار الصوفية وحياة الزهاد ووصف الحركات الطرقية التي قامت في المغرب في وقت مبكر - مبعثرة في كتب التاريخ والتراجم والمناقب والفهارس والرحلات، بل حتى كتب الفقه مثل «شرح ميارة على المرشد» و «معيار الونشريسي» الذي تحوي أجزاؤه نتفا متناثرة لو نسقت (تحصلتْ) مجموعة لا بأس بها في وصف التيارات المتعاكسة التي خلقها انبثاق الطرقية في المغرب.

ويغلب على ظننا أن الحركة الصوفية كانت أنشط في الجبل (لا سيما الريف) والقرى، منها في الحواضر، اللهم إلا بعض مدن الساحل التي كانت مهبطاً لصوفية الأندلس، كسبتة وأسفي وسلا، أو مدن داخلية كمراكش وفاس نظراً لإشعاعها الثقافي الذي تنجذب له النفوس.. ومهما يكن فإن أولى التراجم الصوفية إنما حظيت بها «مداشر» البادية ككتاب «المقصد الشريف والمنزع اللطيف في ذكر صلحاء الريف» لعبد الحق البادسي (في القرن الثامن) و «المعزى في ترجمة أبي يعزى» و «إثمد العينين» لابن تجلات في مناقب الأخوين الهزميريين اللذين عاشا ردحاً طويلاً في أغمات ثم حظي صوفية المدن بكتب منها «المنهاج الواضح» في ترجمة أبي محمد صالح (المتوفى عام ٦٣١) تلميذ أبي مدين الغوث (ومدينة أسفى نفسها إنما بنيت حول ضريح أبي محمد صالح كما قامت مدينة زرهون حول الضريح الإدريسي بعد بناء المولى اسماعيل لهذا الضريح عام ١١١٠ هـ وتأسيسه جامع الخطبة الكبير المتصل بالضريح وكذلك وزان) «والسلسل العذب الأحلى في صلحاء فاس ومكناسة وسلا» لمحمد الحضرمي الذي صنفه في القرن الثامن وكذلك «الموكب الوقاد فيمن حل بسبتة من العلماء والصلحاء والعباد».

ولعل من أقدم الرباطات المغربية رباط واجاج بن زلو اللمطي السوسي الذي كان يُسمى «دار المرابطين» وقد اتخذ مجمعاً لطلبة العلم وقراء القرآن حسبما ورد في التشوف (ص ٣٦) الذي نجد من بين رجاله الصوفية كثيراً من «المعلمين المنقطعين لتعليم كتاب الله، وهذا مظهر ثان لنوع ما كان يشتغل به الصوفية اذ ذاك وتطورت الفكرة الصوفية فانضافت الى التعبد بالقرآن تعبدات بالأدعية والأذكار.

وكان عدد الربط والزوايا في سبتة سبع وأربعون محاذية للبحر داخل المدينة والأرباض (اختصار الأخبار لمحمد بن القاسم الأنصاري هسبرس ج ١٢ عام ١٩٣١ ص ١٥٥)، وكان هنالك نوعان من الرباطات: رباط من الطراز الذي أشرنا أليه وكان يشمل المدينة بكاملها كرباط ماسة ورباط تيط

ورباط زرهون ورباط من نوع آخر هو عبارة عن «محلة» يرابط فيها المجاهدون وقد روي أن الضفة اليسرى لمصب أبي رقراق كان يرابط فيها نحو من مائة ألف من الغزاة الذين كانوا يتطوعون لمقاومة النحلة البرغواطية.

وبين هذه وتلك الرابطة التي ابتناها عبد الله بن ياسين في جزيرة قرب الساحل وتبتل فيها ثلاثة أشهر مع نفر من كدالة، في مقدمتهم يحي بن ابراهيم أمير صنهاجة، وقد توارد الناس على هذا الرباط حتى بلغ عدد المرابطين ألفاً من أشراف صنهاجة كانوا النواة التي قامت بتأسيس الدولة المرابطية، فكانت هذه هي الدولة الثالثة التي قامت في المغرب على أساس فكرة مذهبية بعد الدولة المدرارية في سجلماسة والدولة الإدريسية في الشمال وقد فسح استعداد المغاربة الروحي المجال لدعاة المهدوية مثل محمد بن تومرت الذي أسس دولة الموحدين، والعبيدي الذي قام بعده في جبل ورعة من أحواز فاس حيث تبعه كثير من قبائل المغرب أول عام ٦٠٠ هـ.

وكانت نفس الحركة ملحوظة كذلك في الاندلس أيام المرابطين حيث ذكر صاحب «لسان الميزان» (ج ١ ص ٢٤٧) أن أحمد بن قسي ابتنى مسجداً في بعض قرى شلب (بالبرتغال) وتحدث بالأباطيل، كما ادعى النبوة ابراهيم الفزاري الساحر.

وقد تسربت الى المغرب من الاندلس الطائفة المسرية التي لم ينتشر نفوذها لقيام العلماء بنقضه، وفي طليعتهم الإمام ابن حزم الذي لا نعرف نظريات ابن مسرة إلا من خلال انتقاداته، وهذه الطائفة وإن كانت لا تتسم بالطابع الطرقي إلا أنها من المذاهب التي ارتكز انتحالها على مذهب صوفي أساسه التأويل الرمزي للقرآن على طريق الاسماعيلية التي لعبت دوراً كبيراً في تبلور الفكرة الصوفية في الاسلام!...

ومنها الطائفة الأندلسية التي أسسها محمد الأندلسي تزيل مراكش وكان رجلا مولعاً بالطب والكيمياء فسب الايمة وأفتى فقهاء مراكش الحمراء بتضليله وزج به السلطان في غياهب السجن.

* * *

ظل المغرب خلال العصور الأولى بعيداً عن الطوائف الضالة وعن النظريات الشاذة التي كانت تعصف إذ ذاك بالشرق وقد شهد أبو بكر الطرطوشي الذي صنف كتاباً في البدع والمحدثات في رسالة وجهها من الاسكندرية إلى سلطان المغرب أن أهل المغرب هم المشار اليهم في الحديث الشريف « لا يزال أهل المغرب ظاهرين على الحق » لما لهم عليه من التمسك بالسنة والجماعة وطهارتهم من البدع والأحداث في الدين ».

فنحن لا نكاد نجد إثارة بدعة جافية في ربوع المغرب قبل القرن السادس ولا يمكن أن نعثر فيما صنف خلال القرون الأولى كالتشوّف على إشارة إلى شذوذ عند الصوفية أو صدور دعاوى نابية عنهم لأن التصوف كان إذ ذاك مطبوعا بالبساطة ولم يكن الصوفية يختلفون عن بقية الناس إلا بكثرة العبادة وتلاوة القرآن وسرد المأثور من الأدعية، وكانت الأذكار نفسها مقتبسة من الآثار الواردة في القرآن، من ذلك بعض الأحزاب لا سيما أحزاب الشاذلي التي تتألف مطالعها من سلسلة آيات، ولم يكن للبس الخرقة والمرقعة صفة لازمة للصوفي المغربي إلا إذا جاء ذلك عفواً عن طريق الزهادة في متع الدنيا، وكانت الرباطات عبارة عن مجامع لقراء العلم وتلاوة القرآن والجهاد، فإذا طالعت تشوف ابن الزيات وجدت أن كثيراً من رجاله كانوا « معلمين » أو « مدررين » يعلمون القرآن للصبيان!.

وكان الأمر على خلاف ذلك في الشرق حيث ترجع معظم المستحدثات الشاذة الى القرن الثالث كوحدة الوجود والحلول والتحدث بلسان الحقيقة المحمدية، والإيغال في لبس المرقعات واندساس الأدعياء في صفوف النزهاء

حتى كان القشيري ينشد اذا جلس اليه الصوفية وعليهم الهيآت والمرقعات أبياتاً منها:

أما الخيام فإنها كخيامهم وأرى نساء الحي غير نسائها

ثم يقول أما الهيئات والمرقعات فمعروفة وأما القلوب فمنكرة، وكان الجنيد ينشد:

أهل التصوف قد مضوا صار التصوف مخرقة
صار التصوُّف ركوة وسجادة ومذلقة

غير أن الفكرة الصوفية ما لبثت أن تشعبت فتسرب إليها الانحراف والشذوذ بعد القرن الثامن الهجري على أثر انتشار الطريقة، واندساس الأدعياء في الزوايا والرباطات، فانتحل الكثير المذهب الصوفي لأغراض لا تمت إلى الروح بصلة، وأصبح التصوف عرضة للافتيات، يستغله كل من يريد التوصل إلى أعراض الدنيا عن طريق الشعوذة والتدليس على العوام والدهماء، فتجردت الطرقية من شتى مظاهر الرواء والسمو والجاذبية والجمال.

وبدأت الفكرة الصوفية المغربية تتبلور من القرن الثامن محاطة بهالة من الشكليات المستحدثة، وما زال التراث الصوفي يتضخم ويتسع إلى أواخر القرن الثاني عشر حيث اتضحت الخطوط واكتملت الرسوم والحدود بفضل ذلك النبع الفياض من التآليف التي ترجمت للصالحين ومناقبهم وطرائقهم.

والحقيقة أن التصوف بدأ يتدهور منذ أصبح في متناول العوام تلوكه ألسنتهم في غير هدى ولا اتزان، ولن أضرب سوى مثل واحد وهو طريقة أبي محمد صالح دفين إسفي وتلميذ أبي مدين الغوث، فقد كان إماما ذائع الصيت يرد عليه الصوفية حتى من مصر للأخذ عنه، وانتشرت طريقته خلال

القرن السابع، فكثر تلاميذه في الشام وبلاد الكنانة حتى مدحه البوصيري بقصيدة طويلة مطلعها:

قفابي على الجرعاء من جانب الغرب ففيها حبيب لي يهيم به قلبي

غير أن طريقته هذه التي كانت سنية المعالم ما لبثت أن انحرفت مما دسه فيها الدخلاء والأدعياء وأصحاب الأغراض من الدجاجلة والملبسين.

* * *

في القرن الثامن ظهر ابن خلدون بكتابه «شفاء السائل» فرد الطرقية إلى أصولها، وحلل خصائص الصوفية الحقيقيين ليتميزوا عن الأدعياء.

وفي القرن التاسع برز محتسب الصوفية الإمام العقاد الشيخ زروق بكتابه «عدة المريد الصادق من أسباب المقت في بيان الطريق وذكر حوادث الوقت» وقد علل على انتشار المبتدعة والأدعياء بانتقاض الإيمان والجهل بأصول الطريقة واعتقاد أن الشريعة خلاف الحقيقة (وهذا عنده من مبادىء الزندقة) وحب الرياسة مع الضعف عن أسبابها، ثم أكد أن الصوفية الحقيقيين أنفسهم عرضة للخطأ وأن مقالاتهم يجب أن تعرض على الكتاب والسنة وأن الفقه والأصول شرطان في التصوف فلا تصوف إلا بفقه.

وقد تعرض إلى الأسس العلمية التي بنى عليها الطرقيون مددهم فذكر أنهم قرروا مخالفة النفس بكل وجه، وغلطوا في هذا الإطلاق لأن المقصود موافقة الحق بمخالفة النفس لا مجرد مخالفتها واستشهد بقول عمر بن عبد العزيز «إذا وافق الحق الهوى فذلك الشهد بالزبد».

وأنهم تجردوا عن المعتادات بدلاً من الأنس بها وتغالوا في بعض المظاهر كتوفير ما تحت اللحية وأدخلوا على أنفسهم المشاق، والأجر على الاتباع لا على قدر المشقة، وقد أشار إلى الفتنة التي وقعت في الأندلس في القرن الثامن

حول قضية اتخاذ المشايخ حتى تضارب الناس بالنعال وكتبوا إلى البلدان الإسلامية يستفتون المؤلف.

ولا شك أن شبوب تلك الفتن كان نتيجة مباشرة لانحراف التصوف عن الجادة وتدخل العوام في دقائقه، كما كان أبو المحاسن الفاسي ينهي عن ذلك مؤكداً أن كتب الحاتمي وابن الفارض «تسد على الناس باب الفتح» حسب تعبيره، ويدعو إلى الإدمان على حكم ابن عطاء الله، والشعراني نفسه كان ينهي مريديه عن قراءة كتب التصوف والتوحيد المطلق كمصنفات ابن عربي وغيره من «غلاة الصوفية» (البحر المورود ص ٢٧٤) وهذا لا يتنافى مع ما جاء في مقدمة اليواقيت والجواهر من الدعوة إلى كتب ابن عربي فإنه احترس هناك - كما يقول زكي مبارك - حين أقنع المريد بأن ما جاء في كتب ابن عربي مخالفاً للشرع إنما هو من وضع الدساسين.

ذكر الشعراني في تنبيه المغترين (ص ٧) أن بعض الناس دس في كتابه «البحر الورودفي المواثق والعهود» وفي مقدمة كتابه «كشف الغمة عن جميع الأمة» ما يخالف ظاهر الكتاب والسنة وأثار ذلك فتنة في الجامع الأزهر ولم تخمد الفتنة إلا بعد أن أرسل النسختين الأصليتين المجازتين من بعض مشائخ الإسلام إلى العلماء الأزهريين للاطلاع عليهما، وقد أشار الشعراني في كتبه إلى ما استحدثه كثير من مشايخ وفقراء عصره مما يخالف السنة حتى أصبحت أصول التصوف غريبة عند منتحلي الطريقة.

كما حمل اليوسي في محاضراته حملة شعراء على أدعياء الطرقية ورسم لنا صورة عما انتهى إليه التصوف المغربي بسببِ مَن اندس في حظيرته من مغرضين فقد قال:

«كم تظاهر بالخير من لا خير فيه من مجنون أو معتوه أو موسوس أو

ملبس فيقع به الاغترار للجهلة الأغمار. وقد يشايعه من هو مثله من الحمقى ومن الفجار».

ومن أغرب ما حكاه اليوسي أن رجلاً ورد على سجلماسة واتسم بالصلاح فأقبل عليه الناس ثم تبين بعد أنه يهودي.

وكانت البادية المغربية أكثر إيغالا في الابتداع وأشد انحرافاً عن الروح الصوفية لغلبة السذاجة على أهلها الذين كانوا يبلغون في التبرك بآثار الصالحين حد الشذوذ.

* * *

اختلت المقاييس وتشعبت الدعاوي واستفحلت النحل فأصبحت أفواج الناس يقصدون ضريح مولاي عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه كل سنة للوقوف به يوم عرفة ويسمون ذلك حج المسكين وتجد آخرين، يسمون أنفسهم بأهل الخواطر، يتجمعون بأحد مساجد عدوة الأندلس للتحدث عن الخواطر وعرضها على الشيخ وتأويلها، غير أن علماء الصوفية ظلوا حريصين على فضح الدجاجلة الذين يندسون في حظائرهم التماساً لأعراض الدنيا وحطامها، على أن دعاة السلفية أمثال الطرطوشي وابن العربي المعافري وأبي محفوظ راشد من المغاربة وابن القيم وشيخه ابن تيمية وابن الجوزي من المشارقة قد تشبعوا هم أنفسهم بالتصوف السني.

وإذا رجعنا بين المتأخرين إلى سيرة محمد عبد، وجدنا تلميذه مصطفى عبد الرزاق يؤكد في الكتاب الذي خصصه لترجمته أن الشيخ درويش أثر بتربيته الصوفية في الأستاذ، ويعلل هذا التأثير قائلاً: «إذا كانت التربية الحديثة تدعو إلى تهذيب الأذواق بفنون الجمال الحسي فإن التربية الصوفية تدعو إلى تلطيف السر بأنواع من الرياضة» وقد جاء في ملخص سيرة عبده المنشور في المجلد الثامن من المنار «أنه لكثرة الانهماك في الذكر والفكر والنظر في كتب التصوف والتنقل في أحوال القوم ومقاماتهم يخرج (أي

الأستاذ) عن حسه ويزج في عالم الخيال - أو عالم المثال كما يقول - فيناجي أرواح السالفين».

وقد كان التصوف والتفسير هما «قرة عين لأستاذ» على حد تعبير مصطفى عبد الرازق غير أن جمال الدين الأفغاني «خلع محمد عبده من التصوف بمعنى الدروشة والانقطاع إلى التحنث والرياضة إلى معنى للتصوف جديد وقد ترجم محمد عبده شيخه الأفغاني في صدر رسالة الدهريين فوصفه بأنه «حنيفي مع ميل إلى مشرب السادة الصوفية رضي الله عنهم».

وحمل زكي مبارك على الصوفية ما شاء له فكره الثائر وقلمه الجامع ولكنه عاد آخر الأمر فقال في كتابه «التصوف الإسلامي»: «الصوفية هم الناس ومن عداهم أشباح بلا أرواح» (ج ٢ ص ٢٠٥) وقال: «إن الصوفية أعقل من الأدباء وأشرف، سيلقى الصوفية ربهم راضين مبتسمين أما نحن فسنذهب إلى النار في ركاب امرىء القيس الذي أنذره الرسول» (ج ٢ ص ٣٢٢).

وقد قدر للمعاني الصوفية الرقيقة أن تستهوي جميع أصناف المثقفين في مختلف العصور ولكن كل طائفة نظرت إلى أسرار التصوف من خلال مزاجها واللون الخاص الذي تكيفت به روحها في الحياة، وقد لاحظ ذلك زروق في قواعده (القاعدة رقم ٥٩).

وإذا استعرضنا تاريخ الثقافة المغربية وجدنا أن أقطاب التصوف كانوا في نفس الوقت جهابذة الفنون وزعماء العلوم، وقد ذكر صاحب نشر المثاني أنه لولا ثلاثة لانقطع العلم من المغرب في القرن الحادي عشر، وهم: محمد بن ناصر رئيس زاوية درعة ومحمد بن أبي بكر المحامي رئيس زاوية الدلاء وعبد القادر الفاسي الذي تبلورت في عهده الطريقة الزروقية، وغالب فقها أفريقيا - كما قيل - تلاميذه، وقد قيل في العربي ابن أبي المحاسن الفاسي أن به ختم علماء المغرب وكذلك والده وعمه أبو زيد الذي أفاض أبو العباس المقري في وصف غزارة مادته لعلماء مصر عندما سألوه عن علماء المغرب فشبهه بالجنيد كما شبهه غيره بالسيوطي لوفرة علمه، وقد تمحض أبو زيد

لتربية المريدين وتلقين الأوراد على سعة علومه، وذكر صاحب الديباج أن محمداً المقري تكلم في طريق الصوفية كلام أرباب المقال ودوّن في التصوف « إقامة المريد » و « رحلة المتبتل » و « كتاب الحقائق والرقائق » الذي شرحه زروق.

وقد تمخضت الحركة الصوفية عن نمو الثقافة وازدهارها في ربوع المغرب لا سيما البادية ولا يخفي ما أسدته الزاويتان الناصرية والدلائية من أياد بيضاء في هذا الباب وقد كان في زاوية محمد بن سعدن السوسي تسعمائة طالب يكسيهم ويطعمهم من ماله الخاص وظل مستمراً على مبرته هذه أربعين سنة.

وكانت كتب التصوف تدرس إلى جانب كتب الحديث والتفسير، فهذا أبو المحاسن الفاسي يدرس قوت القلوب والإحياء والشريشية في آداب السلوك ويلتف حوله خلق كثير وفي آخر حياته نفض يده من سائر العلوم الأخرى واقتصر على التفسير والحديث والتصوف، وأبو المحاسن هذا كان إذا توجه من فاس إلى القصر تعطلت الأسواق أو كادت لخروج الناس لمقابلته.

وهذا النفوذ الذي كسبه الصوفية حدا المرابطين والموحدين إلى امتحانهم حيث استدعوا من الأندلس أو أفريقية أمثال ابن العريف وأبي الحكم بن بَرجان وأبي مدين الغوث.

وقد هدأت نوعاً ما حركة الامتحان في عهد المرينيين الذين لم يكونوا يخشون امتداد نفوذ الصوفية لأن الدولة كانت قوية الجانب، وقد انصرفت إلى إتمام صرح الحضارة المغربية التي بلغت في ذلك العصر ذروتها. لكن سقوط الدولة المرينية كان على يد الصوفية بسبب ما اتسم به بعض أمراء بني وطاس من ميع وانحلال.

فقد انتشرت شرارة الثورة السعدية من سوس فعمت البلاد ملتهمة ما تبقى من نفوذ الوطاسيين وأغرب ما في الأمر أن محمد الشيخ مؤسس الدولة السعدية ما لبث أن انقلب على الصوفية فقد امتحن أرباب الزوايا منذ سنة ٩٥٨

وذلك خوفاً على ملكه لما كان للعامة في أصحاب الطوائف من اعتقاد. وفي أيام زيدان تضعضع نفوذ السعديين واستقل المجاهد العياشي الصوفي بالأمر في كثير من النواحي وكانت شوكة الصوفية قوية وجانبهم منيعاً حيث بلغت الزاوية الدلائية عنفوانها.

وقد قام زيدان أحد الأدعياء المتمهدين وهو أحمد بن أبي محلى الذي توجه إلى «بلاد القبلة» ودعا لنفسه فاستخف قلوب العوام».

* * *

ولما استقل الملوك العلويون بالنفوذ في المغرب قضى مولاي رشيد على زاوية الدلاء بعد معركة دارت بينه وبين أهلها في بطن الرمان أوائل المحرم عام ١٠٧٩ هـ وهم السلطان المذكور كذلك بمحمد بن محمد بن ناصر وجهز «محلته» للزحف إلى زاوية درعة ولكنه عدل عن ذلك بعد أن تحقق صدق ولاية الرجل.

كما جدد المولى إسماعيل بعض الأضرحة التي لم تكن في ذلك العهد أكثر من مساجد تقام فيها الصلوات وترتل فيها آي القرآن والأذكار والدعوات فلم ير الملوك ما يدعو إلى استنقاصها بيد أن الاستعمار وصنائع الاستعمار أفسدوا جوانب من هذه الروح الطيبة التي كانت تسري في هذه البيوت الطاهرة.

ولعل من أبرز نماذج التصوف المغربي، أي الفلسفة الروحية والخلقية المغربية، رجلا تغلغلت مقالاته السيارة في قرارة النفوس فقومت أودها طوال أجيال متوالية وطبعت التصوف المغربي بميسم خاص أفرغت منه الحقيقة الصوفية في قوالب شرعية وروح التوكل في صورة السبب ولطائف الروح وأسرار النفس في أشكال مبسطة، وذلك الرجل هو سيدي يوسف الفاسي الفهري - ويمكن القول بأن نظريات هذا الرجل الخلقية والنفسية والإلهية تتركز فيها خلاصة النظريات المغربية في هذا الباب.

ومن نظرياته الطريفة أن الرجل قد يؤخذ عن العالم الأدنى ليرقى إلى العالم الأسنى وذلك عندما يتمحص صدقه وإخلاصه وتضمحل أنانيته فتنكشف في

باطنه حقائق وتختلج في سره دقائق وتعرض له أحوال وجدانية لا تنضبط ولا ترتبط بمعهود، وقد تسمو روحانية الصوفي فيتجرد عن بشريته ويتحد، أي في التوحيد، لأن الفناء هو اتحاد بلسان المجاز وتوحيد بلسان الحقيقة. وهذه الظواهر كلها ذوقية وجدانية (فمن ذاق - كما يقول الشيخ يوسف - عرف، ومن لم يذق فلا حرج إذا سلم واعترف وهذه لطائف تقصر عنها العبارة ولا تلحقها الإشارة إذ لا يفهم عنك إلا من أشرق فيه ما أشرق فيك).

وقد تجلى أبرز مظهر للتصوف الحقيقي في المغرب في إقرار التسامح والسلام في المجتمع وإسعاف طبقاته المعوزة وإجراء الإمدادات الموصولة لتخفيف وطأة البؤس، فهناك مذهب صوفي مغربي بحت يرجع الفضل في وضع أسسه ونشر دعوته لرجل من أهل القرن السادس هو أبو العباس السبتي الذي كان يرى أن لباب القوانين الشرعية هو الصدقة، فكان يجلس في الأسواق والطرق ليحض الناس على البذل والجود مردداً كلماته الخالدة:

(أصل الخير الإحساس وأصل الشر البخل) وقد اشتهر مذهبه أيما اشتهار حتى نعته معاصر، الحاتمي في فتوحاته المكية بصاحب الصدق في مراكش.

وجّه ابن رشد إلى مراكش عالماً قرطبياً لدرس نظريته التي لاحظ أنها مرتكزة على المبدأ القائل بأن «الوجود ينفعل للجود» وقد لاحظ التادلي في ملحق التشوف (الأعلام للمراكشي - فاس ١٣٥٥ ج ١ ص ٢٤٠) أنه «يرد أصول الشرع إلى الصدقة» وكان القرآن على طرف لسانه ولد سنة ٥٢٤ هـ ومات بمراكش عام ٦٠١ هـ وشيخه الفخار هو صاحب عياض «كان يجلس حيث أمكنه الجلوس من الأسواق والطرق فيحض الناس على الصدقة» وكان يعبر رفع اليدين للتكبير بالتخلي عن كل شيء والركوع بالمشاطرة والسلام بالخروج من كل شيء وأن سر الصوم الجوع وتذكر الجائع والزكاة التدرب على البذل).

وقد كان لهذه الدعوة أثرها فأسست الملاجيء في مختلف أنحاء المغرب حيث كان يأوي العجزة والفقراء والطلبة فيجدون الطعام السائغ والفراش الوديع، وقد تنافس الصوفية في هذه المظاهرات الإحسانية فاضطر الملوك إلى المساهمة فأسسوا الزوايا في الفلوات لإيواء عابري السبيل وأوقفوا لها الأوقاف الوفيرة.

* * *

ومن نماذج الأسلوب الأدبي الرائع في التصوف ما كتبه ابن خلدون في مقدمة كتابه «شفاء السائل» حيث قال:

«وقفني بعض الإخوان أبقاهم الله على تقييد وصل من عدوة الأندلس وطن الرباط والجهاد ومأوى الصالحين والزهاد والفقهاء والعباد يخاطب بعض الأعلام من أهل مدينة فاس حيث الملك يزأر وبحار العلم والدين تزخر وثواب الله يعد لأنصار دينه وخلافته ويذخر طالباً كشف الغطاء عن طريق الصوفية أهل التحقق في التوحيد الذوقي والمعرفة الوجدانية، هل يصح سلوكه والوصول به إلى المعرفة الذوقية ورفع الحجاب عن العالم الروحاني تعلماً من الكتب الموضوعة لأهله واقتداء بأقوالهم الشارحة لكيفيته فتكفي في ذلك مشافهة الرسوم ومطالعة العلوم والاعتماد على كتب الهداية الوافية بشروط النهاية والبداية كالإحياء والرعاية، أم لا بد من شيخ يبين دلائله ويحذر غوائله ويميز للمريد، عند اشتباه الواردات والأحوال، مسائله فتنزل منزلة الطبيب للمرضى والإمام العدل للأمة الفوضى».

ثم تحدث عن أغراض التصوف ومصطلحاته فقال: «فببيان هذه الاصطلاحات يتضح الكثير من هذا الغرض» فمن ذلك تحليله للكشف عند الصوفية بقوله: «وبيان ذلك أن المبصر إذا رأى شخصاً ثم غمضت الأجفان دونه بقي متخيلاً ثم إذا فتح أجفانه مرة أخرى رآه كما كان، فبين الحالتين كشف».

وقد تحدث بإسهاب عن هذه المصطلحات فقال: «اقتضى التعليم والمفاوضة في المجاهدة الخاصة المنفردة عن الجمهور الإنفراد باصطلاح خاص يكون لهم

في مفاوضتهم وألفاظ بمعان من طريقهم كالمقام والحال والفناء والبقاء والمحو والإثبات والنفس والروح والسر والبواده والهواجم والخاطر والوارد واللوامع والطوالع والتلوين والتمكين والفرق والجمع وجمع الجمع والذوق والشرب والغيبة والحضور والصحو والسكر وعلم اليقين وعين اليقين وحق اليقين والحاضرة والمكاشفة والمشاهدة والمعاملة والمنازلة والمواصلة وعلم المعاملة».

ولنشر إلى شرح هذه الألفاظ... وهنا بدأ ابن خلدون يستخلص من كل معنى تفاريعه الصوفية بعبارات لها مفهوم دقيق يدل على الإطار الخاص الذي استعملت فيه ومن هذه الألفاظ:

الإرادة والتوبة والتقوى والورع والزهد والقناعة والتوكل والخشوع والتواضع والشكر والصبر والمراقبة والرضى والعبودية والإستقامة والإخلاص والصدق والمحبة والشوق والانزعاج والرجاء والخوف والقبض والبسط والهيبة والأنس».

وهي كلمات قرآنية تحدد النطاق الصوفي ومدلوله الإسلامي في المغرب، ويدل اندراج معظمها في اللسان العامي في المغرب بنفس المفهوم على أن القرآن كان هو المصدر الأول الذي زود المعجم الصوفي بكلمات تفرعت عن بعضها كثير من الاشتقاقات وبذلك يكون القرآن قد أمد الفكر الصوفي بألفاظ لم يوفق ماسينيون في حصرها كالذكر والسر والقلب والتجلي والاستماع والاستقامة والاصطفاء والصدق والإخلاص والرضى والنفس المطمئنة والراضية واللوامة والأمارة والسكينة والتوبة واليقين والنور والحق».

وقد أغفل المستشرق الفرنسي مئات الكلمات كما يتجلى ذلك بوضوح من اللائحة الأبجدية للكلمات الصوفية المقتبسة من القرآن[1] يضاف إليها ما تطورت معانيه عن طريق النحاة كالضمير والملحق والإشارة والمجاز والاقتران، أو المتكلمين كالصقل والعدل والتوحيد والعرض والصفة والصورة

---

(١) راجع كتابينا «المعجم الصوفي» و «المعجم الصوفي من القرآن».

والقدم والثبوت والوجود، أو ما في الأثر والحديث كسبحات الوجه والدرة البيضاء والكبريت الأحمر والاسم الأعظم والديك الأبيض وعنقاء مغرب ومقلب القلوب وسبحات الجلال والقطبانية والغوثية والفردية والإبدال والأوتاد والنجباء والنقباء، أو ما تسرب إلى العربية من دخيل يوناني أو فارسي أو أرامي منذ صدر الإسلام أو العهد الجاهلي كالأفلاك والأكوار والأزياج والمهرجان والدستور والكناش والترياق والديوان إلخ.

غير أن هذه المصطلحات الصوفية المعقدة لم يدخل بعضها للمغرب إلا في عهد المرينيين ضمن التراث الأندلسي إذ أن كتب التصوف قبل القرن الثامن كانت أشبه بكتب السير محشوة بآيات الوعظ القرآنية والأحاديث والأذكار النبوية.

فمن ذلك ما عزز به التادلي الفكر الصوفي في كتابه «التشوف في رجال التصوف» (وقد شرع في تصنيفه عام ٦١٧ هـ اي آخر الموحدين) من آية قرآنية تصف التقوى والخشية والمعرفة الإلهية مثل قول الله تعالى:

«إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً» وقوله: «وعلمناه من لدنا علماً» (ومنه العلم اللدني) وقد روى أحاديث وفيرة لدعم نظريات الصوفية ومصطلحاتهم منها كلمة الإبدال في حديث أنس بن مالك عن الرسول عليه السلام وقد ذكر الإبدال فقال «كلما مات واحد أبدل الله مكانه من المؤمنين واحداً». ومنها التوسم في الحديث الذي رواه البزار عن أنس «إن لله عباداً يعرفون الناس بالتوسم» وقد انتشرت هذه اللفظة بالمغرب عوض الفراسة حتى قيل في العامية «فلان موسوم بالخير».

ومنها الحثالة في حديث مرداس الأسلمي «يذهب الأولياء الصالحون الأول فالأول وتبقى حثالة كحثالة الشعير أو الثمر لا يبالي الله بهم» (البخاري - كتاب الرقاق - باب ذهاب الصالحين).

وتحديد مفهوم «الولاية» نفسها مقتبس من الحديث فقد روى البزار عن ابن عباس: «قال رجل يا رسول الله! من أولياء الله؟ قال: الذين إذا رؤوا

ذكر الله» (سنن ابن ماجة كتاب الزهد باب ٤).

ومن مظاهر بساطة الأسلوب الأدبي في هذا العصر ما حدثنا به التادلي عن أبي زكرياء الرجراجي الذي كسر رجل قنفذ سهواً، بقوله: فربط رجله بجبائر وأدخله في خابية فكان يسقيه الماء ويطعمه التين والزبيب إلى أن انجبر فذهب).

وهذا النص صورة لبساطة أسلوب الأدب الصوفي في القرن السابع حيث لا يحتوي على أي لفظ تجفوه ألسنة العامة. وقد حفلت كتب الأدب، وحتى الفقه، بالتعابير الصوفية من خلال الأدعية والتوسلات والابتهالات فمن ذلك قول عياض:

«الحمد لله المنفرد باسمه الأسمى المختص بالملك الأعز الأحمى الذي ليس دونه منتهى ولا وراءه مرمى الظاهر لا تخيلاً ولا وهماً الباطن تقدساً لا عدماً وسع كل شيء رحمة وعلماً».

وورد من تسبيحات المهدي ابن تومرت:

«سبحان من أرسى مهاد الأرض الشامخات وارتفعت بقدرته السماوات ودبر الأزمان بالنور والظلمات وتدكدكت لجلاله القاسيات». الخ ومن مناجاة أبي العباس السبتي: «اللهم أفضلت فعم إفضالك وأنعمت فتم نوالك وغفرت الذنوب فتكامل إحسانك وسترت العيوب فتواصل غفرانك... إلهي كيف يحيط بك علم خلقته أم يدركك بصر أنت شققته الخ».

ومن أدعية سيدي عبد السلام بن مشيش شيخ أبي الحسن الشاذلي إمام التصوف بمصر.:

«اللهم صل على من انشقت له الأسرار وانفلقت الأنوار وفيه ارتفت الحقائق وتنزلت علوم آدم فأعجز الخلائق وله تضاءلت الفهوم فلم يدركه منا سابق ولا لاحق فرياض الملكوت بزهر جماله مونقة وحياض الجبروت بفيض أنواره متدفقة».

ومن أحزاب الشاذلي:

« اللهم إنك تعلم أني بالجهالة معروف وأنت بالعلم موصوف وقد وسعت كل شيء من جهالتي بعلمك فسع ذلك برحمتك ».

★ ★ ★

من الأندلسيين الذين عاشوا في المغرب وتأثروا بنسماته الصوفية، ابن الخطيب [1] السلماني الذي استجلى بروحه الوثابة الشاعرة مخابر الفن والجمال فقال:

الحب الحقيقي حب يسعدك ويرقيك ويخلدك ويبقيك ويطعمك ويسقيك ويخلصك إلى فئة السعادة ممن يشفيك.

أما في الشعر فقد سقنا في القسم الأدبي من عناصر تطور اللغة نتفاً رائعة لا يمكن فصلها عن الأدب العام. ومن شعر الإمام السهيلي الذي أصبحت الخاصة والعامة تلهج به:

يا من يرى ما في الضمير ويسمع ... أنت المعد لكل ما يتوقع
يا من يرجى للشدائد كلها ... يا من إليه المشتكى والمفزع
يا من خزائن رزقه في قول كن ... امنن فإن الخير عندك أجمع

وقول السلجماسي: [2]

طيب بذكر الله فاك فإنه ... لأجل ما فاهت به الأفواه
ما للفتى لا يرعوي وصباحه ... ومساؤه يعظانه بسواه
تلقاه تياهاً على من دونه ... ولسوف يعطشه الذي أرواه

---

(١) في كتابه المخطوط روضة التعريف بالحب الشريف وقد نشر المقري جزءاً منه في نفح الطيب في ترجمة ابن الخطيب (راجع كتابنا « الفلسفة والأخلاق عند ابن الخطيب » الذي نال جائزة « معهد مولاي الحسن » بتطوان عام ١٩٤٧).

(٢) الذخيرة السنة ص ٥٥ وقد انتشرت في المغرب الحكم العطائية وتداولتها الألسن وشرحها من المغاربة الكثيرون وأصبحت تجري حتى على ألسن العامة منها « من لا ينفعك لحظة لا ينفعك لفظة ».

وقول العلامة سيدي العربي بن السائح رضي الله عنه مشيراً إلى طريق الصوفية التي كنى عنها بالأتاي (وهو الشاي في لغة المغرب):

واصل شراب حليفة الأمجاد ... واترك مقال أخي هوى وعناد
صفراء تسطح في الكؤوس كأنها ... من عسجد عصرت بأعصر عاد
تدعى الأتاي وذاك رمز ظاهر ... يدريه من يدري من الأمجاد

وقد كنى أيضاً عن الطريق بالقهوة مستعملاً الجناس بين اللون (لونها والنهى (نهى) حيث قال:

اشرب أخي قهوتنا ... ولو نهى أولو النهى
ولا تمل لعازل ... عن لونها ولو نهى

ومن قول علي نسق ابن الفارض:

أتطلب ليلى وهي فيك تجلت ... ونحسبها غيرا وغيرك ليست
ألم ترها ألقت عليها جمالها ... ولو لم تقم بالذات منك اضمحلت
بديعة حسن لو بدا نور وجهها ... إلى أكمه أضحى يرى كل ذرة
عزيز لقاها لا ينال وصالها ... سوى من يرى معنى بغير هوية
إذا شئت أن تلقى السعادة والمنى ... وتبلغ ما عنه الرجال تولت
فطهر بماء الذكر قلبك جاهداً ... بصدق اللجا واغسله من كل علة
ومكن بكف الشرع أمرك كله ... فدونك إن لم تفعل الباب سدت
فنور سرى في الكون صورة أحمد ... به تهتدي لله كل الخليفة

ولسيدي قدور العلمي من المتأخرين وهو من الملحون المقتبس من القرآن مع تحريف بسيط:

سبحان من قضى وحكم ... وعلم الإنسان ما لم يعلم
سبحان الدايم بالدوام ... من لا يسهى ولا ينام
مول القدرة مول الحكام ... الساكن فِقلْوب المومنين
سبحان الواحد الوحيد ... سبحان المالك المجيد
يفعل فِمَلْكو ما يريد ... ماله شريك ولا عوين

وقد استوثق التبادل بين المشرق والمغرب في هذا المجال في مظهرين: أولهما انتشار طريقتين صوفيتين مغربيتين لكل من أبي الحصن الشاذلي الغباري وعلي ابن ميمون الفاسي صاحب كتاب «متفقهة ومتفقرة مصر والشام».

والمتفقرة كالمتصوفة وهم الذين يتصنعون الفقر وهو التصوف بلغة المغرب وهي من الآية الشريفة «يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله». ويظهر أن السبب في إقبال صوفية الشرق على كل ما هو مغربي الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه (باب الإمارة): لا يزال أهل المغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة وقد كتب بن حجر في فتح الباري على هذا الحديث مشيراً إلى رواية أخرى عن أحمد أنهم ببيت المقدس بدل المغرب وكذلك عن الطبراني بهذه العبارة «يقاتلون على أبواب بيت المقدس» وفي هذا إشارة عميقة إلى الوضع الحاضر.

بالإضافة إلى نفوذ أحمد البدوي الفاسي دفين طنطا، وثانيهما انتشار مصنفات صوفية شرقية بالمغرب ككتاب الحكم العطائية الذي صار الناس يحفظونه عن ظهر قلب وقد علق عليه العلماء في شروح وفيرة كشروح ابن عباد وزروق والقلصادي ومحمد جسوس الفاسي والحراق وابن عجيبة التطواني ومحمد بن عبد السلام بناني والشيخ الطيب بن كيران إلخ كما تبودلت رسائل منها جواب الشيخ الغزواني عن أسئلة الناصر اللقائي المصري وهي نموذج للتأويلات الصوفية المغربية للقرآن، أما القصائد المغربية التي أصبحت تجري على ألسنة العامة فكثيرة منها أرجوزة حدائق الأزهار في الزاوية لليازغي والمقباس للوزير الغساني ودبوان الحراق الذي نحا فيه منحى ابن الفارض وابن عربي وعبد الغني النابلسي في وحدة الوجود والتلبس بما يسمونه الحقيقة المحمدية، ويعلو نفس الحراق أحياناً فيكاد يطاول سلفه ابن الفارض في رقة الأسلوب وسمو المعنى، ومما يتصل بالتصوف العام قصيدة لأحمد الشريشي السلوي الشاعر الطبيب وقد شرحها كل من أحمد الصومعي وأحمد بن أبي المحاسن الفاسي وهنالك كتاب يمكن أن يعتبر خلاصة للأدعية النبوية التي

جرت على ألسنة الصوفية بعد القرن التاسع وهو «دلائل الخيرات» الذي شرحه أفراد من العائلة الفاسية وقد انتشر في العالم الإسلامي هو وذخيرة المحتاج للشيخ المعطي الشرقي.

نحا المغاربة منحى الصوفية المشارقة في مدح الأشياخ بقصائد لا تخلو من معلومات تفيد المؤرخ، من ذلك دالية اليوسي في مدح سيدي محمد بن ناصر الدرعي، وهي «مشهورة بين أهل الأدب» عارض بها دالية البوصيري في أبي الحسن الشاذلي وأبي العباس الموسى، وقصيدة البوصيري هذه تدل على ما كان للصوفية المغاربة من مكانة في نفوس صوفية الشرق، وقد مدح البوصيري كذلك أبا محمد صالح، وكان قطب الدين القسطلاني بمدرسة الحديث بالقاهرة كثير الاعتناء بأصحاب أبي صالح الوافدين على مصر.

فالتصوف وإن كان قد اعتراه شيء من الانحلال فقد كان له كبير الأثر في توجيه وتلوين جميع مرافق الحياة فأصبح الشعب يلهج بالأدعية والأذكار ويتلو قصائد الغزل والمديح في سماع راقص لم تعد تخلو منه زاوية أو رباط وخاصة بمناسبة المولد النبوي الذي بدأ العزفيون يحتفلون به في سبتة، ثم ملوك بني مرين في باقي الحواضر وبذلك اندرج عنصر جديد طور لغة الضاد بالمغرب وطبع اللسان الدارج وخاصة منه البربري الذي اقتبس ما كان ينقصه في هذا المجال فتقاربت الشقة بين الفصحى والعامية في اللسانين.

تطور الفكر العلمي ولغة العلماء بالمغرب

تطور الفكر العلمي ولغة العلماء بالمغرب

لقد استعرضنا مختلف العوامل التي كان لها أثر قوي أو ضعيف في تطور الفكر واللغة بالمغرب، ومن تلك المؤثرات العناصر الحضارية الأموية والقيروانية والأندلسية، ثم الثقافية من قرآن ولغة ودين وأدب وتصوف، غير أن نظرتنا إلى هذا التطور لن تتم ما لم نستشف من خلال البحوث والدراسات ذات الطابع العلمي ما أمكن للكيماويين والرياضيين والطبائعيين والأطباء والصيادلة والفلكيين والفلاسفة أن يسهموا به من آراء ونظريات.

وبما أن المغرب الأقصى لم يكن يعيش في قفص مقفل بالنسبة للشرق العربي وأنه دشن منذ القرن الثالث الهجري مع الأندلس عهد تبادل فكري أوثق فإن من الضروري استكناه محتويات هذه «الأواني المستطوقة» جميعها وهو مبدأ غاليلي المعروف بهذا الإسم. للتعرف على الهيكل العلمي ومقوماته، ففي خصوص الطب والصيدلة والكيمياء المستجدة في المغرب الأقصى نلاحظ بأن الأندلس، وبالتالي المغرب، كانا عالة على الشرق حيث ظهر أمثال جابر ابن حيان والحسن بن النكد الموصلي وابن سينا والرازي وآخرون.

ونظمت صناعة الطب منذ عام ٢٩٥ هـ «القطبي ص ١٣٠» بإقرار الخليفة المقتدر نظام الامتحانات فتخرج في عام ٣١٩ هـ وحدها ببغداد ٨٦٠ طبيباً وأجري أول امتحان للصيادلة أيام المعتصم عام ٢٢١ هـ وأول مارستان بني في الإسلام كان بالشام في عهد الوليد الأموي عام ٨٦ هـ (المقريزي في الخطط والآثار ج ٢ ص ٤٠٥ طبعة بولاق). ثم في مصر في عهد أحمد بن طولون

وكان في المارستان العضدي أربعة وعشرون طبيباً فيهم الكحالون والطبائعيون والجراحون.

ومن أطباء الأندلس وصيادلته في هذا العصر ابن جلجل (وهو أعظم طبيب طبائعي) والوليد المدحجي الذي دخل الأندلس مع عبد الرحمن بن معاوية وهو طبيبه الخاص، وعبد المالك بن حبيب السلمي المرداسي القرطبي المتوفى عام ٢٣٨ هـ، وأول من أدخل الطب إلى المغرب هو إسحاق بن عمران وابن الجزار صاحب «زاد المسافر وقوت الحاضر» وهو أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد المتوفى عام ٣٩٥ هـ «صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٣٧» ومحمد بن عبدون الذي أشرف على مارستان القاهرة ورجع إلى الأندلس عام ٣٦٠ هـ[١] وأبو القاسم خلف بن عباس الزهراوي[٢].

ويظهر أن هذه العلوم بدأت تزدهر في المغرب الأقصى منذ هذا العصر حيث كانت جامعة القرويين وملحقها جامع الأندلس بفاس تدرسان الطب ضمن الكتب المقررة وقد أشار لوكلير إلى هذا الإزدهار[٣] ولاحظ[٤] أن المغرب أشد أقطار الإسلام عمقاً من الناحية العلمية وهو يقصد المغارب الثلاثة وخاصة إفريقية، وقد لاحظ القفطي «في أخبار العلماء بأخبار الحكماء

---

(١) يوجد الجزء الأول من هذا المخطوط في المكتبة الوطنية بالرباط وكذلك مختصر كتاب «الاعتماد» في الأدوية المفردة لابن الجزار ومختصر الطب لابن حبيب المرداسي.

(٢) (النفح ج ١ ص ٤٤٤) والزهراوي هو صاحب (التعريف لمن عجز عن التأليف) وهو أعظم جراح عربي (لوكلير - الطب العربي ج ١ ص ٣٣٤) اعتمده مؤلفو الجراحة في العصور الوسطى وهو أول من ربط الشرايين ووصف عملية تفتيت حصاة المثانة وعالج الشلل واستعمل خيوط الحرير في الجراحة ويوجد بالمكتبة الوطنية بالرباط جزء من هذا الكتاب (عدد ١٤٢٧ هـ) الذي طبع بالهند وقد مات بعد الأربعمائة كما عند حاجي خليفة والحسن الوزان الذي أرخ وفاته ب ٤٠٤ م) ووهم كازيري Casiri الذي أكد في المجلد الأول من فهرسته (ص ١٣٧) أنه عام ٥٠٠ هـ (لو كلير ج ١ ص ٤٣٧).

(٣) نفس المصدر (ج ١ ص ٣٣٤).

(٤) «(ج ١ ص ٤٠٧).

ص ٧٥ » أن المعز الفاطمي نقل معه إلى مصر كثيراً من الأطباء المغاربة واشتهر قسطنطين التونسي آنذاك كطبيب ماهر وأسست بفاس مدرسة طبية منذ القرن الرابع (٥).

وكان القرنان الخامس والسادس الهجريان أبرز العصور العلمية في الأندلس المسلمة رغم الاضطراب الذي تمخض عن تدخل المرابطين ثم الموحدين وذلك بفضل العناية التي أولاها هؤلاء الخلفاء للعلم والعلماء، إذ يمكن القول والدكتور لوكلير يؤكد هذا (ج ٢ ص ٧٢) - بأن الفكر لم يسبق له أن تحرر كما وقع في هذا العصر وشهد بذلك نبوغ أمثال ابن طفيل وابن ماجة وابن رشد (الذي هو أعظم فيلسوف أنجبته الأندلس) وبني زهر الذين توارثوا الطب طوال ثلاثة قرون وأعظمهم هو أبو مروان عبد الملك الذي يعتبره بعض المؤرخين أكبر طبيب تخرج من المدرسة العربية، يضاف إلى هؤلاء الغافقي وهو أبو جعفر أحمد بن محمد وهو غير محمد بن قسوم الغافقي صاحب « المرشد » في طب العيون ويوجد « كتاب الأعشاب » للغافقي في دار الآثار العربية وهو يحتوي على ٣٨٠ رسماً ملوناً لنباتات وعقاقير وحيوانات متقنة الرسم، وأبو الصلت أمية بن عبد العزيز الداني، اللذان ألفا في تاريخ الطب الطبيعي، وابن العوام وهو أبو زكرياء يحي بن محمد الذي لا نعرفه إلا من خلال مصنفاته ويزعم كازيري أنه عاش في القرن السادس الهجري. مؤلف « كتاب الفلاحة » الذي لا يوجد له نظير في الأدب العربي لما يحتوي عليه من معارف تطبيقية ووثائق قديمة ثمينة - « لوكلير ج ٢ ص ١١ » - بل هو أعظم ما أنتجه، لا العرب وحدهم بل حتى العصور القديمة (ص ١١٠).

★ ★ ★

---

٦ (٤) (شهيرات المغرب) للكانوني وهو مخطوط نقل عن كتاب (في الأسناد بالمغرب الأقصى) لعالم فرنسي لم أتبين اسمه بوضوح في المخطوط المذكور.

وأصبحت هذه المصنفات أساساً دراسياً لرجال القرن المقبل أمثال بن البيطار المالقي [٦] وأستاذه أبي العباس النبطي وهما أعظم العلماء النباتيين العرب الذين وصلتنا مؤلفاتهم ولم ينجب الشرق في هذه الأثناء من أعاظم العلماء الرجال سوى فخر الدين الرازي فاستطاع الأندلس بفضل شبكة علمائه أن يحمل راية الفلسفة والطب في العالم الإسلامي. «لوكلير ج ٢ ص ٧٢».

وقد نبغ في القرن السابع أمثال السويدي صاحب التذكرة المتوفى عام ٦٩١ هـ (يوجد بالمكتبة الوطنية بالرباط مختصر للتذكرة لعبد الوهاب الشعراني المتوفى عام ٩٧٣ هـ في ١٤١ ورقة) وابن أبي أصيبعة وجمال الدين القفطي (علي بن يوسف المصري الوزير الملقب بالقاضي الأكرم المتوفى في عام ٦٤٦) وعبد اللطيف البغدادي (المتوفى عام ٦٢٩ هـ والذي امتاز في وصف أعقاب مصر) وابن النفيس المصري المتوفى عام ٦٨٧ هـ والذي كان أعظم أطباء عصره وهو صاحب «كتاب الشامل» الذي لم يكمل المؤلف منه سوى ٨٠ مجلداً من بين ٣٠٠ (يوجد بالمكتبة الوطنية بالرباط موجز قانون ابن النفيس لعلي بن أبي الحزم القرشي المتوفى عام ٦٨٧ في ٣٨ ورقة).

وبفضل الانبعاث العربي في الأندلس صارت أوربا تنفض عنها أردية الركود وأصبح المسيحيون يتوافدون على طليطلة للارتشاف من معين العلم وقد استنجد ريموند Raimonde أسقف المدينة بعلماء العرب لعلاج الفقر اللاتيني وإذ ذاك بدأت ترجمة مصنفات العرب العلمية، ثم ورد جيرار دوكريمون على طيلطلة حيث استقر نحواً من نصف قرن نقل خلاله من العربية إلى اللاتينية ستة وسبعين كتاباً عربياً أو إغريقياً معرباً.

وقد بدأت حركة الترجمة في إفريقيا منذ القرن الرابع فهذا قسطنطين التونسي الصقلي قد أسس مدرسة سالرنة وهي أول مدرسة من نوعها في أوربا وكانت مبعث أنوار الطب الحديث في العالم الغربي، ولد حوالي عام ٤٠٠

---

(٦) ابن البيطار الذي أكل عقاراً قاتلا فمات من ساعته عام ٦٤٦ (نفح الطيب ج ٢ ص ٨٧٤).

بتونس وحمل مخطوطات طبية الى سالرنة «SALERNE» بقيت غذاء أوروبا عدة قرون، وترجم إلى اللاتينية أهم كتب الطب العربي منها: «زاد المسافر» لابن الجزار وكتب للرازي وإسحق بن سليمان الإسرائيلي وألف نحواً من ٢٤ كتاباً في الطب منها قانون الطب في ١٢ مجلداً و «فياتيكوم» في الطب العام في سبعة أجزاء ومات عام ٤٧٥.

وكان القرن السابع في الشرق عصر ازدهار ثم انهيار نسبي للعلوم كما كان قبله القرن السادس في الأندلس ولكن لم يكد يمضي العقد الأول من القرن السابع أي بعد غزوة العقاب التي انهزم فيها الموحدون عام ٦٠٩ «وكانت السبب في هلاك الأندلس» كما يقول بن عذارى في «البيان المغرب» (ج ١ ص ٢٤٠) حتى بدأ صرح العلم ينهار وطمست الاضطرابات ذلك الرواء الذي تألق نجمه منذ عهد الناصر الأموي طوال ثلاثة قرون.

وفي العهد الذي كانت الأندلس خاضعة لسلطان مراكش تكونت ـ كما يقول لوكلير (ج ٢ ص ٣٤٠) جماعة من الأطباء التفت حول ملوك المرابطين والموحدين وسار معظمهم في ركاب هؤلاء الملوك إلى المغرب حيث قضوا بقية حياتهم في العلاج وتدريس الطب ـ فأفاد المغرب كثيراً من نكبة الأندلس.

ويظهر أن علوم الحكمة تقلص ظلها مؤقتاً في عهد المنصور عندما حورب الفلاسفة، حتى اضطر ابن رشد نفسه إلى التخلي عن الخوض في ذلك، والمنصور هذا وإن كان لم يقصد اضطهاد رجال الطب، حيث أناط الى ابن زهر نفسه مأمورية تعقب الفلاسفة ثقة به، إلا أنه عمد إلى تدوين الأحاديث وترتيب الجرايات لحفظها، فاتجه الناس إليها انجذاباً للمادة فقل المعتنون بالحكمة والطب، على أن اعتقال المنصور لابن رشد وأبي جعفر الذهبي زاد الناس ريبة في مصير الفلاسفة والأطباء، ولعل المنصور شعر بخطورة هذه التدابير فأعاد الحظوة إلى الرجلين، وكلف أبا جعفر بالسهر على مصالح الأطباء وطلبة الطب، وتلك من المنصور محاولة لا بأس بها لتنظيم المهنة الطبية.

وقد أكد الدكتور رينو Reinaud أن المغرب لم يقم على وجه العموم بدور يذكر في العصر الذي كان الطب وبقية العلوم يتألق نورها في سوريا والعراق ومصر، وحتى في أسبانيا المجاورة، ولكن منذ أواخر القرن الحادي عشر وخاصة الثاني عشر الميلاديين - وهما أبرز عصور أسبانيا المسلمة - امتزج تاريخ الأندلس بتاريخ المغرب تحت راية المرابطين والموحدين « فكيف يمكن إذن أن نفصل بين دراسة الطب بالمغرب ودراسة حياة العلماء الذين أنجبتهم الأندلس أو الذين تكونوا في مدارسها ثم ساروا في أعقاب ملوك المغرب من أشبيلية أو قرطبة إلى فاس أو مراكش أو أغمات، فللمغرب الحق إذن أن يتبنى ابن باجة وابن طفيل وابن رشد ». الخ [٧] وكانت الحكمة تشمل آنذاك جميع شعب الفكر العلمي بالمغرب ليقصر على جزء من الطب هو الكحالة أو مرض العيون..

* * *

ويظهر أن أبا العلاء زهر بن زهر هو أول طبيب أندلسي ورد على المغرب بعد استيلاء المرابطين على الأندلس وقد كان طبيباً خاصاً ليوسف بن تاشفين بعد أن كان طبيب المعتمد بن عباد بأشبيلية، ذكر المراكشي في « المعجب » أن المعتمد استدعى أبا العلاء لمعالجة « الرميكية » عندما كان أسيراً بأغمات. ووالد أبي العلاء هو أبو مروان عبد الملك بن أبي بكر محمد ابن مروان بن زهر الذي تولى رياسة الطب ببغداد ثم بمصر ثم بالقيروان وكانت له أراء شاذة في الطب منها منعه من الحمام اعتقاداً منه بأنه يعفن الأجسام ويفسد تركيب الأمزجة - كما الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ج ٢ ص ٦٤ - ٦٦) -.

وقد تمخضت تجارب أبي العلاء في المغرب عن تأليفه لكتاب « التذكرة » (الذي ترجمه وطبعه كولان عام ١٩١١ بباريس) وهو مجموعة من الملاحظات

---

(٧) الطب القديم بالمغرب - رينو Reinbuo نشرة معهد الدروس العليا عدد ١ ص ٧٢ ابن القاضي - درة الحجال ص ١١٧.

سجلها لولده ابن زهر لتعريفه بالأدواء الغالبة في مراكش والأدوية المناسبة.

وبعدما توفي أبو العلاء أمر علي بن يوسف بجمع ملاحظات طبية أخرى كان أبو العلاء سجلها في أوراق وهي «المجربات» وقد جمعت بمراكش عام ٥٢٦ هـ يوجد مخطوط منها في الأسكوريال (رقم ٨٤٤) وقد ترجم جان دوكابو التذكرة من العبرية إلى اللاتينية (نسخة من مكتبة كلية الطب بباريس) ثم توالت التراجم عام ١٢٨٠ والمطبوعات (عشر مرات بين ١٤٩٠ و ١٥٥٤).

وتوجد الآن نسخة في مكتبة مدرسة اللغات الشرقية بباريس يرجع تاريخ طبعها إلى ١٥٣١ وهي تحتوي أيضاً على كليات ابن رشد.

وهناك رسالة في أمراض الكلى كتبها أبو العلاء لعلي بن يوسف ولا توجد سوى ترجمتها باللاتينية المنشورة عام ١٤٩٧ كما يوجد مخطوط له حول الخواص بمكتبة باريس ومنه استقى ابن البيطار خواص لحوم الحيوانات، ولأبي العلاء مقالة في شرح رسالة يعقوب بن اسحق الكندي حول تركيب الأدوية.

وتوجد نسخة من (جامع أسرار الطب) لأبي العلاء في المكتبة الوطنية بالرباط وهي تحتوي على ١٨٥ ورقة.وولدُ أبي العلاء هو أبو مروان عبد الملك بن زهر خدم المرابطين مثل أبيه وألف كتاب الاقتصاد لابراهيم بن يوسف أخي علي (يوجد منه مخطوط بباريس رقم ٢٩٥٩) وكذلك نسخة في الاسكوريال حسب رينو محررة بالعربية ومكتوبة بحروف عبرانية وفرغ من الكتاب عام ٥١٥ هـ. وهو أعظم من ابن سينا ولا يعدله سوى الرازي في الشرق.

وقد قرأ عليه أبو الحكم بن غلندو الأشبيلي الشاعر عام ٥٣٥ كتاب «الاقتصاد» في سجن مراكش حيث مكث ابن زهر نحو العشر سنين، وكان ابن رشد يفضل ابن زهر على غيره من أهل عصره[٨]. وقد نهج ابن زهر في

---

(٨) ابن عبد الملك في «الذيل والتكملة».

كتاب « التيسير » أسلوباً جديداً في الحكمة القياسية مستخدما التمحيص العقلي للوصول إلى أحسن النتائج فهو طبيب التجربة والتمحيص العلمي وليس من صناع اليد كما يقول في « التيسير » ولذلك توصل بفضل قياساته الطبية وتجربته الشخصية إلى الكشف عن أمراض جديدة لم تدرس قبله فقد اهتم بالأمراض الرئوية وأجرى عملية القصبة المؤدية إلى الرئة وتمكن هو بعد ذلك من تشريح القصبة في مرض الذبحة فعولج المريض.

وقد اختص في أمراض الجهاز الهضمي واستعمل أنبوبة مجوفة من القصدير لتغذية المصابين بعسر البلع، واستعمل الحقن المغذية واكتشف طفيلية الجرب، وسماها صؤابة كما بسط طرق العلاج القديمة وأوضح أن الطبيعة - إذا اعتبرناها قوة داخلية تدبر شأن الجهاز البشري - تكفي وحدها في الغالب لعلاج الأدواء، كما جاء في (حضارة العرب) جوستاف لوبون ص ٥٣٥ من الطبعة الفرنسية.

وقد وهم كودار فزعم في كتابه حول تاريخ المغرب (ص ٤٥٢) أن ابا مروان بن زهر يهودي ثم أكد أن ابن زهر استعاض بالمنهج التجريبي والطريقة العقلية في ممارسة فن الطب وكانت له عبقرية فذة تطورت بفضلها شعب ثلاث حاول توحيدها وهي الصيدلة والجراحة والطب العام.

والحفيد أبو بكر بن مروان كان طبيباً شاعراً متين الدين خدم الدولتين اللمتونية والموحدية (عبد المومن ويوسف ويعقوب والناصر) توفي عام ٥٩٦ هـ بمراكش، ألف « الترياق الخمسيني » ليعقوب المنصور ودس له ابن يوجان وزير المنصور السم هو وابنة أخته وكانت هي وأمها عالمتين بالطب لا سيما في أمراض النساء وتدخلان إلى نساء المنصور[٩] وكان أبو بكر يحفظ صحيح البخاري[١٠] ولم يكن في زمانه أعلم منه باللغة وكان يحفظ شعر ذي الرمة وهو ثلث لغة العرب « المطرب لابن دحية ».

---

(٩) (ابن أبي أصيبعة ص ٦٧).

(١٠) (الأنيس المطرب) ج ٢ ص ١٨٠).

أما أبو بكر محمد بن يحي بن الصائغ المعروف بابن باجة المتوفى بفاس (ابن أبي أصيبعة ج ٢ ص ٦٣) فهو شيخ ابن رشد، وقد استوزره أبو بكر يحي بن تاشفين مدة عشرين سنة وكان يشارك الأطباء في صناعتهم فحسدوه وقتلوه مسموماً عام ٥٣٣ هـ وقد زعم مونك أن ابن رشد لم يتلمذ لابن باجة الذي مات عام ١١٣٨ (٥٢٥ هـ) أي عندما كان لابن رشد ١٢ سنة وابن أبي أصيبعة كتب تاريخه بعد وفاة ابن رشد بأربعين سنة.

ويذكرون أن وفاته كانت سنة ٥٣٣ هـ بفاس فيكون قد أتيح بذلك لابن رشد أن يتلمذ له.

كما خطأ عمر في كتابه «ابن طفيل وقصة حي بن يقظان» ص ٣١ «المراكش» حينما زعم أن بن طفيل قرأ على بن باجة».

واضطرب الفتح بن خاقان في ابن باجة حيث نسبه في القلائد للتعطيل وانحلال العقيدة وحلاه في «مطمح الأنفس في ذكر رجال الأندلس» بالخير والدين والاستقامة (السلوة ج ٣ ص ٢٦٢).

ولم يصلنا شيء من المؤلفات الطبية المنسوبة لابن باجة ولا يعرف إلا عن طريق ابن البيطار الذي يقتبس منها في «جامع المفردات». ومن تلامذة ابن باجة سفيان الأندلسي المتوفى عام ٥٣٧ الذي كان أحد أطباء علي بن يوسف وتعاون مع شيخه ابن ماجة في تأليف كتاب التجربتين («تاريخ الطب العربي» لوكلير ج ٢ ص ٧٩).

ومن الأطباء الذين نبغوا في هذا العصر: أبو جعفر بن هارون الترجالي طبيب يوسف وهو تلميذ المعافري في الحديث وشيخ ابن رشد في التعاليم والطب وكان عالماً بصناعة الكحل (طب العيون)[١١].

أما الوليد بن رشد فأهم مصنفاته كتاب الكليات الذي طلب من ابن زهر

---

(١١) ابن أبي أصيبعة (ج ٢ ص ٧٥) وذكر ابن عذارى في «البيان المغرب» ج ٤ ص ٤٩ أن الخليفة أبا يعقوب اعتل عام ٥٧٣ فوفدت عليه الأطباء في الأندلس للمعالجة ألى أن وجد الراحة».

إعداد ملحق له[١٢] في الجزئيات لتكون جملة كتابيهما كتاباً كاملاً في الطب، وقد نقم عليه المنصور وأجبره على المقام باليسانة الآهلة باليهود قرب قرطبة وقد اقترح ابن رشد في شرحه لابن سينا ما يصفه الأطباء اليوم وهو تبديل الهواء في الأمراض الرئوية؛ أشار إلى جزيرة العرب وبلاد النوبة كمراكز شتوية. وحضارة العرب. جوستاف لوبون ص ٥٣١ الطبعة الفرنسية.

وابن رشد هو أول[١٣] من أشار إلى الدورة الدموية وعللها في كتابه «الكليات» الذي استمد منه ويليام هارفي William Harvey معظم نظرياته. ابن النفيس المصري، اكتشف الدورة الدموية الصغرى وهي الدورة الرئوية قبل الغربيين بثلاثة قرون (نشرة المعهد المصري ج ٢٦ عام ١٩٣٤ ـ بحث بقلم ماكس مايرهوف ص ٣٣) وقد أشار ابن النفيس إلى ذلك في «الكتاب الشامل في الطب» الذي كان يحتوي على ٣٠٠ مجلد وقد أهدى مؤلفه منه ٨٠ مجلداً لمستشفى قلاوون.

وهناك أطباء آخرون ينيف عدد البارزين منهم على العشرين، ازدهر بأبحاثهم القطاع العلمي في عهد المرابطين والموحدين نخص بالذكر منهم عالمين اثنين من سبتة هما علي بن يقظان الطبيب الشاعر الذي زار مصر عام ٥٤٤ هـ ثم اليمن والعراق، وابن سمعون أبو الحجاج يوسف بن يحيى «القفطي ج ٢ ص ١٦٠ و ١٩٣ و ٢٥٦» الذي كان طبيباً لميمون أمير حلب ولملك مصر الظاهر، وذلك علاوة على ابن الرومية النبطي الأشبيلي أحمد بن محمد بن مفرج المعروف بابن العشاب الذي رحل إلى الشرق عام ٦١٤ بعدما درس أعشاب الأندلس والمغرب. توفي عام ٦٣٧ هـ وصنف كتاباً في الحشائش رتبه على حروف المعجم وفاق أهل زمانه في معرفة النبات «نفح الطيب ج ١ ص ٦٣٥ وتلميذه ابن البيطار هو أعظم نباتيي العرب الذي قارنه

---

(١٢) وذكر أيضاً أن أبا يعقوب لما خرج في الغزوة التي مات إثرها بالأندلس كان الأطباء الحاضرون لديه هم ابن زهر وابن مقبل وابن قاسم (ج ٤ ص ٧٠).

(١٣) تحدثنا عن جميعهم في كتابنا «الطب والأطباء بالمغرب» المطبعة الاقتصادية ١٩٦٠ بالرباط.

لوكلير (ج ٢ ص ٢٢٥) بالغافقي والشريف الإدريسي ورشيد الدين الصوري والنبطي. واقتبس منه تلميذه ابن البيطار ذوقه الخاص وعلمه الواسع، وكان لرحلة ابن البيطار إلى المغرب أثر قوي في نقل المصطلحات البربرية إلى معجمه العربي الجديد الذي أصبح المرجع الأساسي في الشرق وخاصة بمصر حيث عين ابن البيطار رئيس العشابين [نفح الطيب ـ ج ٢ ـ ص ٦٨٣].

* * *

ومن أبرز من ظهر في هذا العصر أيضاً الشريف الإدريسي الذي صنف كتابه النزهة في الجغرافية عام ٥٤٨ هـ (١١٥٤ م) ووضع كرة فضية للعالم جعلت منه أستاذ أوربا كما شحن كتابه في الأدوية بنتائج تجاربه الشخصية القيمة، حدت الطبائعي الشرقي الكبير ابن البيطار إلى الاقتباس منه في مائتي موضع من كتابه في الأعشاب [لوكلير Leclert 2 p. 8 686]. والاعتماد عليه وحده في ثلاثين موضعاً مع الإشارة إلى أسمائها بالبربرية.

يتجلى من هذا العرض أن العلوم ازدهرت في المغرب الأقصى إلى القرن السابع وانصهرت معطياتها ومفرداتها في بوتقة مع مصطلحات الشرق العربي عدا فروق طفيفة ترجع إلى اللون المحلي كالنباتات والأزهار والأعشاب العقاقيرية التي تحمل أسماء خاصة متأثرة بالتعابير الجهوية ونضرب مثالاً لذلك بالجوزة الصحراوية التي عرفت في المغرب بهذا الاسم بينما عرفت في كل من الشرق والجزائر بجوزة الشرك. (ابن البيطار) في «جامع المفردات» وعبد الرزاق الجزائري في «كشف الرموز في بيان الأعشاب» (طبعة الجزائر ١٩٠٣ و ١٩١٧).

وقد استعمل الطبيب هرون بن اسحاق بن عزرون في أرجوزته التي استدرك فيها على الحميات الواردة في أرجوزة ابن سينا (وهو من رجال القرن الرابع عاش في عهد عبد الرحمن الثالث)، نحو ثلاثين كلمة مغربية أندلسية، بدل مقابلها الفصيح. منها:

تبن مكة (ادخر) والحلحال (= اسطوخودوس) والعقربان (= اسقولوفندريون Scolopendre) والفاسوخ (= أشق: Gomme Ammoniaque) وشَيْبَة العجوز (= افسنتين Absinthe) والعجيفة (= إكليل الملك Melilot) وحبة حلاوة (= أنيسون Anis) والرجلة (= بقلة حمقاء Pourpier) ويربوز (= بقلة يمانية Blette) وحبق الأترج (= ترنجان Basilic citronnelle) والصفصاف (= خلاف Saule de Peuplier) والجزر البري (= دوقو Carotte sauvage) والنافع (= بزر الرازيانج Graine de fenouil) والبرسم المكور (زراوند مدحرج Aristoloche ronde) والهندبا (= سَريس Chicorée) والمحمودة (= سقمونيا Scammonée) والحبق القرنفلي (= شاهشبرم Petit basilic) ومشيشترو أو (= نعناع Menthe فودنج) وحب الملوك (= قراسيا Cerise) والكروية البرية (= قردمان Carvi sauvage) وقصة الحية (= قنطوريون Conteurée) والشمع الأبيض (= موم Cire Blanche). وغير ذلك...

وكان النباتيون يُسمون الشجارين والحشائشيين بالشرق بينما يعرفون بالعشابين في المغرب، ومنهم ابن العشاب المعروف بابن الرومية.

ولعل العامية المغربية من أغنى اللهجات العربية الدارجة في مصطلحات العلوم بالرغم من وجود مرادفات بربرية، ولنضرب لذلك أمثلة مقتبسة من معجمنا في «الأصول العربية للعامية المغربية».

في خصوص الأعشاب والأزهار:

بابونج (بابنوج) - بسباس (المعجم الوسيط) مقدونس (معدنوس ترفاس) - الترنج (الكباد بالشام) - ترياق (دواء للسموم) - الجلبان - حب الرشاد - الحرف - الجلجلان - جلنجين - الجوز - الباذنجان - البحيرة (البستان) - برقرق - اجاص - البصل - العنصل - الفول - البطيخ - البرصم - التبن - الثوم - الجوز - الحب - الحرمل - الحشيش - الحلبة - حلفاء - حماض - حمص - حناء - حنظل - خبيزة - خزامى - خس - خشخاش - خشاش - خوخ - خيار - ذرة.

في العلوم:

التوتيا - الجلمود (الصخر) - الجدول - الجذري - الجذام - الجذر - الجليد - الحادور (المكان المنحدر) - الحارة (الفضاء) - حامض الرئة أي مُرّ النفس - الحبل (حمل المرأة) - الحرقة والحصحاص (الأرض الحجرية) - الحكة والحراج - والخنان والدمل .. إلخ.

من أعضاء الجسم:

بعصوص (عظم بين الأليتين) (المعجم الوسيط) جمجمة - اقنف - الأنف - الجفن - الحاجب - الحَبْو - الحدَبة - حك الورك (أي حك وهو مغرز رأس الفخذ) حلقوم - حنجرة - خرطوم.

أما في عموم الحيوان فنذكر من المفردات:

الحيوان - البغل - الجُبُح - (خلية النحل) والجمل والحمار والبرغوت والبق والنحل - والبعوض والتمساح والتيس - والثعبان - والحية - والحنش والأفعى - والجحش والجراد والجرثومة والجِرْو والجماد والحَجَل - (الحَدَأة) والحرجة (جماعة الغنم والإبل) والحظيرة والحِلس والحُوار (ولد الناقة) والحوت والحولي - والحَيْقطان (الدّراج) (الحيقون في زعير) وختل الصياد - والخروف والدلفين - دوارة البطن (أمعاؤه) والديك - والذباب - والذب - والخيل - والخيال - والخطاف - والخفاش - والخنفساء إلخ.

★ ★ ★

أما في عصر المرينيين فإن الملكة العلمية تضاءلت وصار حفظ النصوص هو الغالب لا في علوم الآلة كالنحو أو علوم الشريعة بل حتى في المنطق والحساب والطب وسائر العلوم العقلية[١٦] ويظهر أن هذه الآفة الفكرية قد أصابت بشلل جزئي قطاعات علمية في الشرق حيث بدأ عصر الانحطاط العلمي في القرن الثامن وبداية التاسع على أثر السيول الجارفة التي حطمت في

---

(١٦) «نشر المثاني» ج ٢ ص ٩٧ «وسلوة الانفاس» ج ١ ص ٧٤ نقلا عن كتاب لعلي بن ميمون الفاسي.

طريقها معالم المدنية تحت إمرة جنكيز خان وتيمورلنك، وإذا كان ابن بطوطة قد تحدث لنا عن المدرسة النظامية التي كانت ما زالت قائمة البنيان فإن أساتذتها وطلبتها اندرسوا وقد لاحظ لوكلير أنه أمكن في هذه الفترة تسجيل نحو الأربعين عالما نصفهم من الأندلس لا يوجد من بينهم طبيب مشهور لقلة الطرافة والاكتفاء بالجمع والتأليف. [كتاب الطب العربي - لوكلير [ج ٢ - ص ٢٥٨].

ويرى بعض المستشرقين أن جامعة فاس التي ظلت تدرس الطب بكتب أبقراط وجالينوس وديوجينوس المُعَرّبة لم تكن لتحسد جامعات العواصم العربية الأخرى. (ليفي بروفنصال Levy Provinçal هسبريس Hesperis عام ١٩٥٢ ص ٣ ولوكلير.) «الطب العربي» ج ١ ص ٥٧٥ وقد وصف كل من الرحالة باديا ليبليش المعروف بعلي العباسي والدكتور رينو Reinaud الطب القديم بالمغرب ص ٧٧) مدينة فاس بأنها أثينة إفريقيا أي شبيهة بعاصمة الفكر اليوناني بأروبا.

والواقع أن الفكر العلمي بدأ يتحجر ليجمد على النصوص الظاهرة بالرغم عما يقال من وجود مدرسة للطب في سلا. (ورد في الجزء الأول من سلسلة «مدن المغرب وقبائله» المتعلق بالرباط وناحيته (ص ٣٢ و ٢٢٥) أن «المدرسة البوعنانية» المنسوبة إلى أبي عنان المريني بسلا كانت «مدرسة للطب» ونسب ذلك إلى «الاستقصاء» الذي لم يشر إليه عند تعرضه للمدرسة (ج ٢ ص ١٥١). ومن ظهور دراسات مغربية حول علل وطرق علاج «الطاعون الأسود» الذي ظهر في منتصف المائة الثامنة. (الطب القديم بالمغرب - رينو - ص ٤٧).

وأبرز من ظهر من الأطباء إنما عاشوا في أوائل عهد المرينيين أمثال أبي العباس الشربشي السلوي الذي قرأ الطب في الشرق على ابن بنان. توفي بالفيوم عام ٦٤١ هـ (الأعلام للمراكشي ج ١ ص ٣٥١). ومحمد بن خليل السكوني الذي صنف في الخواص الطبية والكليات في الأغذية والبيطرة وفن ركوب الخيل وتدبير الحروب. وتوفي عام ٦٤٦ هـ (الأعلام ج ٣ ص ١٤٥).

أما في القرن الثامن فإن العلماء أصبحت لهم مشاركة محدودة مثل أحمد بن علي المليانى المراكشي الذي جمع بين الشعر والكتابة والطب، ـ (جذوة الاقتباس ص ٧٣) ـ بينما كانت لهذه المشاركة سمة الضلاعة والعمق عند النبطي مثلاً إلى أوائل القرن السابع حيث كان إلى جانب اختصاصه في علم النبات إماماً في الحديث حافظاً ناقداً.. «لوجود القدر المشترك بين صناعتي الحديث والنبات إذ موادهما ـ كما يقول ابن الخطيب في الإحاطة ـ الرحلة والتقييد وتصحيح الأصول»، وقد شملت المشاركة جوانب شتى عديدة من العلوم والتقنيات أهمها الرياضيات والهندسة والهيئة. وكان العرب أساتذة النهضة الأوربية في الحساب (كوتيه في كتابه ـ عادات المسلمين وأعرافهم ـ ص ٢٣٨) وقد فند سيديو Sedillot ـ تاريخ الطب العربي ـ لوكلير ج ١ ص ٣٢٠، ما زعمه بعض المستشرقين من أن علماء العرب إنما اقتبسوا من الإغريق مشيراً إلى ما أبدعه الفكر العربي في هذا المجال مثل إدراج الخطوط الماسة للدائرة Tangentes في الحسابات، والاستعاضة عن الأساليب العتيقة بحلول مبسطة أصبحت أساساً في حساب المثلثات الحديث Tregonometrie.

وقد لاحظ العالم شال Chaules أنه كان للعرب فضل التفكير في تطبيق الجبر على الهندسة، وتأكد ذلك بعد أن نشرت مؤلفات محمد بن موسى الخوارزمي منذ عام ١٨٣٦ من طرف روزن Rosen.

ومن بينها بحث في الجبر حلت مشاكله في المعادلات الثلاثية بطرق هندسية، ويقال بأن الخوارزمي هذا لم يحل سوى المعادلات من الدرجة الثانية Equation de 2e Dégré وأن الذي حل معادلات الدرجة الثالثة هو عمر بن إبراهيم «حاضر العالم الإسلامي» ج ١ ص ١٥١، ولعل لفظتي الغوريتم واللوغريتم مشتقتان من اسم الخوارزمي الذي يعتبر أقدم الرياضيين العرب حيث عاش في عصر المأمون العباسي ونقلت كتبه في الجبر والمقابلة إلى اللاتينية، وقد أبدع العرب في علم المثلثات نظراً لتطبيقاتها في علم الفلك.

★ ★ ★

وأسهم الغرب الإسلامي أي المغرب الكبير والأندلس في بلورة هذا الإشعاع العلمي العربي فظهر ابن حمزة المغربي في القرن الرابع واستعمل طرقاً جديدة في اللوغريتم، واشتهر في الأندلس أبو عبيدة مسلم بن أحمد ويحيى بن يحيى المعروف بابن السمينة وأبو القاسم إصبغ بن السمح (له تآليف منها المدخل إلى الهندسة في تفسير إقليدس، وكتاب كبير في الهندسة) وأبو القاسم بن الصفار وأبو الحسن الزهراوي (كان عالماً بالعدد والطب والهندسة له كتاب شريف في المعاملات) وأبو الحكم عمر الكرماني (من الراسخين في العدد والهندسة) وأبو مسلم بن خلدون (كان متصرفاً في الفلسفة والهندسة والنجوم والطب) وتلميذه ابن برغوث (اختصاصي في العلوم الرياضية) وتلميذه أبو الحسن مختار الرعيني (كان بصيراً بالهندسة والنجوم) وعبد الله ابن أحمد السرقسطي (ناقد في الهندسة والعدد) ومحمد بن الليث (بارع في العدد والهندسة) وأبو حي القرطبي (بصير بالهندسة، رحل إلى مصر عام ٤٤٢ هـ) وأبو الوقشي الطليطلي (الهندسة). (النفح ج ٢ ص ٨٧٤).

ومن العلماء الذين برزوا في الهندسة والرياضيات بالمغرب الأقصى في مختلف العصور: أبو بكر بن الصايغ المعروف بابن باجة Avempace له تعاليق في الهندسة، وقد توفي بفاس (عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ص ٦٣) وكانت وفاته عام ٥٣٣ هـ (الأعلام للعباس بن إبراهيم المراكشي ج ٨ ص ٦)

والحاج يعيش الذي صنع لعبد المؤمن بن علي مقصورة من الخشب لها ستة أضلاع تسع أكثر من ألف رجل وقد وضعت على حركات هندسية ترفع بها لخروجه وتنخفض لدخوله. فإذا قرب وقت الرواح إلى الجامع يوم الجمعة دارت الحركات بعد رفع البسط عن موضع المقصورة فتطلع الأضلاع في زمان واحد ولا يفوت بعضها بعضاً بدقيقة، وكان باب المنبر مسدوداً فإذا قام الخطيب ليطلع عليه انفتح الباب وخرج المنبر في دفعة واحدة بحركة واحدة لا يسمع لها حس ولا يرى، وذكر المقرىء في النفح أن آثار هذه المقصورة كانت باقية عام ١٠١٠ هـ.

والمهندس عبيد الله بن يونس الأندلسي الذي استخرج المياه التي تسقى بها بساتين مراكش بصنعة هندسية (نزهة المشتاق للإدريسي ص ٦٧ من الجزء المطبوع حول أفريقيا والأندلس).

وأبو جعفر بن الحسن بن أحمد بن حسان القضاعي الذي كان عالماً بالهندسة وسائر التعاليم. انتقل إلى فاس حيث توفي في حدود ٦٠٠ (الجذوة لابن القاضي ص ٧٢).

وعبد الله بن حجاج المعروف بابن الياسمين الفاسي وهو بربري توفي بمراكش عام ٦٠٠ أو أوائل ٦٠١ هـ وتوجد نسخ من أرجوزته في الجبر والمقابلة بخزائن باريز وبرلين واكسفورد والاسكوريال والقاهرة. ومن شراح الأرجوزة حسب بروكلمان ابن الهائم المصدري المتوفى سنة ٨١٥ هـ (وهو مخطوط باكسفورد والقاهرة) والقلصادي وهو «تحفة الناسمين في شرح أرجوزة ابن الياسمين» (مخطوط بخزانة مكتب الهند بلندن والخزانة العامة بالرباط) وسبط المارديني المتوفى سنة ٩٠٠ ويسمى «اللمعة المارديية في شرح الياسمينية» (مخطوط ببرلين والقاهرة واسطمبول) وله أرجوزة في أعمال الجذور توجد بخزانة الأسكوريال (راجع بحث الأستاذ محمد الفاسي مجلة رسالة المغرب ١٩٤٢ (السنة الأولى ـ عدد ١) وممن شرح الأرجوزة سعيد العقباني التلمساني الملقب برئيس العقلاء (نيل الابتهاج ص ١٠٦).

وأبو عمران موسى بن حسن بن أبي شامة من أهل المعرفة بالبناء والهندسة وهو صانع «البيلة» و«الخسة» بصحن القرويين عام ٥٩٩ هـ [الجذوة بين ٣٧ و ٥٧).

وفي عهد المرينيين ظهر كثير من المهندسين؛ ففي عام ٦٧٤ هـ خرج يعقوب المريني إلى ضفة وادي فاس «ومعه أهل المعرفة بالهندسة والبناء» فوقف على المدينة البيضاء (فاس الجديد) وشرع في حفر أساسها (السلوة ج ٣ ص ١٤٥).

ومن هؤلاء العلماء:

محمد بن عبد الله المعروف بابن حجلة شيخ ابن البناء في الحساب [الجذوة ص ٧٦].

ويوسف بن أحمد بن حكم النجيبي قاضي الجماعة بفاس أخذ عنه ابن البنا الحساب والتعاليم [الجذوة ص ٣٤٦].

ومحمد بن علي المعروف بالشريف أستاذ ابن البنا المراكشي الذي كان يذاكره مسائل من كتاب الأركان لأقليدس [توفي عام ٢٨٢ هـ (الأعلام ج ٣ ص ١٩٢)].

وأبو العباس بن البنا العددي المراكشي له « التلخيص » في الحساب ومقدمة في إقليدس واختصار في الفلاحة. توفي عام ٧٢١ هـ على قول ابن قنفذ (نيل الابتهاج ص ٤٢) كان يقصد شيخه عبد الرحمن المزميري فيما أشكل عليه من مسائل الهندسة (١٣٧) وله أيضاً جزء في « المساحات » (الجذوة ص ٧٧).

ذكر ابن القاضي في « درة الحجال » (القسم الأول ص ٥) أن له كتاباً في الجبر والمقابلة سماه « الأصول » وكذلك « رفع الحجاب عن تلخيص أعمال الحساب » زيادة على « تلخيص أعمال الحساب » وذكر عباس بن إبراهيم في الأعلام أن كتاب « الجبر والمقابلة » موجود في المكتبة الخديوية (ج ١ ص ٣٧٩) وممن شرح تلخيص ابن البنا أحمد بن رجب بن طنبغا القاهري المتوفى عام ٨٥٠ هـ المعروف بابن المجدي وممن اختصره وسماه « بالحاوي » أبو شهاب الفراقي المعروف بابن الهائم المتوفى عام ٨١٥ ونظمه محمد بن غازي المكناسي وابن القاضي صاحب « الجذوة » (ص ٣٨٤ وممن شرح التلخيص أبو العباس بن قنفذ في كتاب سماه « حط النقاب عن وجوه الحساب » ولابن قنفذ هذا « بغية الفارض من الحساب والفرائض » (الأعلام ج ٢ ص ١٧).

وأبو جعفر بن صفوان الإمام في الحساب وهو تلميذ ابن البنا [الأعلام ج ٢ ص ٢].

وعلي اليفرني المكناسي الشهير بالطنجي إمام في الفرائض والحساب في وقته توفي عام ٧٣٤ هـ [الدرة ص ٤٤١] وهو ابن عبد الرحمن بن غيم (نيل الإبتهاج لابن باب السوداني ص ١٩٢).

وعبد الله بن محمد بن أحمد التلمساني ولد سنة ٧٤٨ قرأ الهندسة بكتاب إقليدس على والده بفاس [نيل الابتهاج ص ١٣٧].

وعلي بن أحمد التلمساني موقت القرويين أيام أبي عنان المريني صنع « المنجانة » المقابلة للمدرسة العنانية عام ٧٥٨ هـ [جذوة الاقتباس ص ٣١].

وعبد الرحمن اللجائي تلميذ ابن البنا في العلوم التعليمية توفي عام ٧٧٣ حسب تلميذه ابن قنفذ [السلوة ج ١ ص ٣٠٤].

وأحمد الأوسي المراكشي المعروف بابن الشماع إمام في الحساب عارف بالمنطق والهندسة (من أهل القرن الثامن) [الأعلام ج ٢ ص ١٠].

ومحمد الشريف التلمساني من علماء الحساب والهندسة والهيئة، كان لسان الدين بن الخطيب إذا ألف تأليفاً بعثه إليه وطلب منه أن يكتب عليه بخطه [نيل الابتهاج ٢٦٦ و ٢٥٨].

وجمال الدين المارديني خليل بن يوسف المهندس المتوفى عام ٨٧٢ هـ. له « غاية الانتفاع بالبخش الذي في طرف قوس الانتفاع » طبع حجر ـ فاس.

ومحمد القوري حافظ فاس الحيسوبي الطبيب المتوفى عام ٨٧٢ هـ [السلوة ج ٢ ص ١١٦].

وأمير المؤمنين في الفرائض والحساب ابراهيم المصمودي، توفي بفاس عام ٩١٢ أو ٩١٣ هـ. درة الحجال (ص ١٠٧) (وسلوة الأنفاس (ج ٢ ص ٤) تلميذه ابراهيم الزواوي فقيه كنو من السودان (الدرة ص ١١١).

وأحمد الغزاني الفاسي كان أستاذاً فرضياً حيسوبياً له معرفة بالفلك توفي عام ٩٢٠ هـ [درة الحجال ص ٩١].

ومحمد بن قاسم بن توزت التلمساني « استخدم عقله في حل مشاكل الهندسة، وهو من مواليد نهاية القرن التاسع الهجري [نيل الابتهاج ص ٣٤٠].

ومحمد بن هلال « إمام التعاليم في سبتة وشارح المجسطي في الهيئة » مات عام ٩٤٩ هـ [الأعلام ج ٣ ص ٢٦٣].

ومحمد بن يوسف المعروف بابن مشون من أساتذة المرية رحل الى سبتة ونظم موجزا في علم الجبر والمقابلة، توفي عام ٩٨٩ هـ [درة الحجال ص ١٢٦].

* * *

أما في عصر السعديين فلم ينبغ من الأطباء والرياضيين والجغرافيين وغيرهم من العلماء سوى عدد محدود، منهم الطيب محمد بن عزوز المراكشي صاحب ذهاب الكسوف. اقتبس فصل طب العيون من الكحال المشرقي علي بن عيسى (الطب القديم بالمغرب ص ٧٥). وعبد الرحمن سقين الفاسي المحدث الأديب الذي كان يدرس ألفية ابن سينا وتوفي عام ٩٥٦ [نيل الابتهاج ص ١٥٣] وأبو القاسم الوزير الغساني صاحب شرح حميات ابن عزرون « وحديقة الازهار في شرح ماهية العشب والعقار » الذي ألفه للسلطان المنصور السعدي عام ٤٩٩ (نشر المثاني ج ٢ ص ١٢٥).

وقد نشر الدكتور رينو في نشرة معهد الدروس المغربية العليا ج ١٨ ص ١٩٥ دراسة حول حديقة الأزهار ذكر فيها أن هذا الكتاب « يمتاز بمنهاجه الواضح جدا في الوصف النباتي الذي يتسم غالبا بطابع من الأصالة والطرافة، وقلما يخلو الكتاب من الاشارة إلى منابت الأعشاب التي توجد بالقرب من فاس، وبذلك يزودنا بمعلومات ثمينة حول معظم المواد الصيدلية

بفاس، فهي إذن محاولة مفيدة لترتيب ثلاثي بدخل عنصرا جديداً في وصف أعشاب المدرسة الصيدلية الشرقية».

من أطباء هذا العصر وعلمائه:

عبد الوهاب الزقاق الذي كانت له مشاركة في الأدب والأصلين والطب والتفسير والحديث والنحو وولى القضاء والفتوى بفاس (توفي عام ٩٦١ هـ).

وطبيب المنصور أبو عبد الله محمد الطيب ـ «نزهة الحادي .طبعة هوداس ص ١٤٦».

ومحمد الأندلسي الذي كان مولعا بالكيمياء والرياضيات والطب والهيئة والطبيعة. قتل عام ٩٨٠ هـ ـ «الاعلام ج ٤ ص ٣١٨».

وداود بن عبد الله البغدادي ثم التلمساني الطبيب الماهر لقيه ابن القاضي في مصر عام ٩٨٦ ـ «درة الحجال. ص ١٤٣».

وأحمد بن عبد الحميد المعروف بالمريد المراكشي الذي كان إماما في جميع الفنون حكيما ماهرا في الطب. توفي ١٠٤٨ ـ «الاعلام لابن ابراهيم ج ٢ ص ١١٤».

وعبد الرحمن الفاسي الذي انفرد بتحقيق تعاليم، وتحدث في كتابه «الأقنوم في مبادى العلوم» عن الطب وعمليات التشريح وفنون العلاج وعن البيطرة وعلم الزردنة، أي طب الحيوان، وعن الصيدلة وهو علم الأقراباذين، وآخر هؤلاء الأطباء أحمد بن محمد بن حمدون بن الحاج، الذي ساقه ريتو كأنموذج أخير للطبيب العالم، له كتاب «الدرر الطبية» في الطب والطبائع والهواء والأغذية والأشربة والأمراض وطرق علاجها والأدوية مع تقسيم فني جديد لهذه الأدوية.

والسلطان أحمد المنصور الذهبي، له قدم راسخ في المنطق والحساب والهيئة والهندسة (١٧).

---

(١٧) نشر المتافي ج ١ ص ٧٧. فهم كتاب اقليدس من غير شرح لعزة وجوده بالمغرب فكان يفك شكلا في كل يوم (درة الحجال ص ٥١) وتضلع أيضاً في الجبر والمقابلة (السلوة ج ٣ ص ٢٢٦).

وأحمد بن قاسم معيوب كان له معرفة بالتعاليم من حساب وهيئة توفي بمراكش عام ١٠٢٢ هـ «الأعلام ج٢ ص ٨٢».

وأحمد بن القاضي المكناسي المؤرخ له (غنية الرائض في طبقات أهل الحساب والفرائض) (مفقودة) و «المدخل» في الهندسة، ونظم تلخيص ابن البغا (نشر المثاني ج ١ ص ١٢١) وظهرت في وقته الحرف المهمة التي لم تكن بالمغرب منها الحساب والهندسة والمساحات. «الاعلام للمراكشي ج ١ ص ٤٦. توفي عام ١٠٢٥ هـ.

والرحالة محمد بن القاسم بن القاضي أوحد عصره في علم الحساب والتنجيم والجداول، له «البرق الوامض في الحساب والفرائض». توفي قتيلاً بفاس عام ١٠٤٠ هـ. «السلوة ج ٣ ص ٢٨٧».

واحمد القلصادي موقت القرويين كان يدرس كتاب القلصادي توفي عام ١٠٦٣ (نشر المثاني للقادري ص ٢٠٧) أما علي بن محمد القلصادي (٨١٠ - ٨٩١ هـ) فأصله من بسطة، واستوطن غرناطة ومات بباجة بتونس له «شرح الأرجوزة الياسمينية في الجبر والمقابلة» و «قانون الحساب» و «كشف الاسرار في الجبر» (الأعلام للزركلي جـ ٥ ص ١٦٣) وله أيضاً شرحان على تلخيص ابن البنا والحوفي والغنية في الفرائض، أخذ بمصر عن ابن حجر كما في رحلته (النفح جـ ٢ ص ٦٨٤). وقد طبع كتابه «كشف الاصرار عن علم حروف الغبار» مراراً بحجر فاس.

ويعقوب البستاني إمام الفرائض والحساب. كان يقرؤها في الهواء فإذا اراد عاملها أن يصورها في اللوح ضربه بالقضيب على يده (الجذوة ص ٣٥٠). وهذا يدل على استعمال السبورة في شرح العلوم بالمغرب في ذلك العصر.

وأحمد التقليتي العارف بالحساب والتعديل والمساحات وبعض مبادىء الهندسة، وهو شيخ «جماعة الفنون» المذكورة بمراكش، وهو معاصر لمؤلف درة الحجال [الدرة ص ٩٢].

ومحمد بن سعيد السوني المرغيثي صاحب المقنع في التوقيت. توفي عام ١٨٠٩ «نشر المثاني ج ٣ ص ٣٧».

ومحمد إدراق السوسي.

ومحمد بن محمد بن سليمان الفاسي الروداني، كان يتقن فنون الرياضة وأقليدس والهيئة والمخروطات والمتوسطات والمجسطي ويعرف أنواع الحساب والمقابلة والارتماطيقي والمساحة معرفة لا يشاركه فيها غيره. توفي عام ١٠٩٤ هـ - الأعلام ج ٤ ص ٣٣٤ - نقلا عن خلاصة الأثر.

وقد تنافس الناس في اقتناء الآلة التي اخترعها، وكان يبيعها بثمن غال وقد ألف رسالة في وصفها وهي منشورة في الأعلام (ص ٣٥٠) والآلة عبارة عن كرة مستديرة مسطرة دوائر ورسوما ركبت عليها أخرى مجوفة منقسمة نصفين فيها تخاريم وتجاويف [نشر المثاني ص ٨٧].

★ ★ ★

غير أن هذه «العلوم فقدت منذ أوائل القرن الحادي عشر سمتها العلمية فأمست مجرد «حرف» تقنية ضمت اختصاصيين في الحساب والهندسة والمساحات» [الاعلام للمراكشي ج ١ ص ٤٦]. ومما يدل على عقم الصيدلة ما لاحظه الحسن الوزان من أن العقاقيريين بفاس لم يكونوا قادرين على ترتيب الأشربة والأدهان طبقا لوصفات الأطباء فكانوا يجتمعون كلهم لإعدادها ثم يرسلونها إلى دكاكينهم لتوزيعها وهي ظاهرة إن كانت تنم عن انخفاض في المستوى العلمي فإنها تدل مع ذلك على أمانة وإخلاص للمهنة.

وبالرغم عن تقلص شبكة العلوم فإن الروح العلمية ظلت تذكي الخاصة من العلماء الذين كانوا يشعرون بالفروق الدقيقة في الاتجاهات العلمية، ويتجلى ذلك في تقسيمات أبي علي البوسي للعلوم: إلى فلسفية وملية، وتحديده لماهية علم الفلسفة الذي يهدف إلى «تكميل النفس الناطقة والاطلاع على حقائق الأشياء بقدر الطاقة» وأنه - كما يقول - إما نظري وإما عملي،

والأول إما مجرد عن المادة مطلقاً وهو العلم الإلهي، أو في الذهن فقط وهو العلم الرياضي، أو مقيد بالمادة وهو العلم الطبيعي. والثاني إما متعلق بنفس الشخص من حيث هي، وسمي سياسة النفس وعلم الأخلاق، أو بها وبما يحتاج إليه من شهوات قواها وهو علم تدبير المنزل، أو بما يعم وهو الملكية والسلطنة»..

وقد أصبحت التعاليم تنحصر على عهد العلويين في عمليات تطبيقية منها ما صنفه:

محمد المسناوي مرينو الأندلسي المنجم الحيسوبي الذي وضع مؤلفات في «تقدير قرض النفقات» بعمل الرموز والأرقام مرتبا على أطوار حياة المنفق عليهم. توفي عام ١٢٠٧ ـ (الاغتباط لأبي جندار. ج ١ ص ١٣٦.

والأستاذ المعطي مرينو له مؤلفات في التوثيق، منها كتاب في تعديل الكواكب السبعة سماه «كنز الأسرار»، وآخر في أبعاد النيرات ورصده، وابتكارات أخرى في علم «المزاول الرخامية» وغير ذلك. توفي عام ١٢٢٣ ـ الاغتباط ج ٢ ص ١١٦.

وأحمد بن الطاهر المراكشي العالم بالأحكام النجوميه والأزياح والهندسة والجدول. توفي عام ١٢٥٠ هـ (الأعلام ج ٧ ص ٢١٤.

وأحمد حدو الهنتيفي الأستاذ في الحساب والرصد والأسماء وكان يحسن نحواً من ثمانية عشر علماً. توفي عام ١٢٨٥ هـ (السلوة ج ٣ ص ٨٢).

ومحمد متجنوش أستاذ انفرد في علم الحساب والتنجيم. توفي عام ١٢٩٠ وعمره ٣١ سنة.

وعبد الرحمن لبريس المنطقي الفلكي الحيسوبي. من مواليد القرن الثالث عشر. سافر إلى الحج عام ١٣٠٧ ـ (الاغتباط ج ٢ ص ١٣٤).

ومحمد بن الرئيس بن الحسن علي التركي الضليع في الهندسة والرياضة ومن أوضاعه في هذه مثال سماه «الشكل الكوري» شامل لسائر الزوايا والخطوط

وأشكال الهندسة مما تشمله أصول أقليدس وتهذيب الطوسي. (الاغتباط لأبي جندار ج ٢ ص ١٩٢).

وأحمد بن عبد الله الثنائي المعروف بالصويري، كان عارفاً بالحساب والتنجيم وعلم الأحكام الفلكية وعلم الهيئة، له مؤلفات وتعاليق في الحساب والجبر والمقابلة وفي اللوغاريتم، وحل أشكالاً هندسية طبقها في الرياضيات، وكان عيّنه السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن «رئيس المهندسين» وعينه مولاي الحسن «رئيس قواد الطبجية» (أي المدفعية في العامية المغربية) وخليفة وزير الحرب (الأعلام ج ٢ ص ٢٦٧).

* * *

وهنالك رياضيون ومهندسون آخرون تتجلى قيمتهم العلمية فيما صنفوه من كتب وأبحاث تكلفت المطبعة الحجرية في فاس بطبعها عندما أنشأها السلطان محمد الرابع منذ أزيد من قرن (مطبوعات المغرب للأستاذ ادريس الادريسي وهي محفوظة).

وقد اندرس التعليم الرسمي للطب والعلوم بجامعة القرويين رغم ما أشار إليه دلفان في كتابه ـ فاس وجامعتها ـ طبعة ١٨٨٩ من استمرار اعتناء الطلبة آنذاك «بالكامل» للرازي «والقانون» لابن سينا «وزبدة الطب» للجرجاني «والتذكرة» للسويدي «وتذكرة الأنطاكي» وكليات ابن رشد ومفردات ابن البيطار وكشف الرموز للجزائري، ومع ذلك ظل الأطباء يجرون بمهارة بعض العمليات التشريحية الصغرى (رينو ـ ص ١٢٨، وقد أوردنا في كتابنا «الطب والأطباء في المغرب» نماذج لمهارة بعض المحترفين في هذا المجال ص ٧٢ ـ ٨٠).

وقد بدأ المغرب منذ العهد السعدي يستدعي «خبراء فنيين» معدودين كالطبيب الفرنسي كيوم بيرار (Guillaume perard) الذي كانت له ثقافة

متواضعة[١٨]. وهوبير (Hupert) أستاذ العربية بجامعة باريس[١٩] والطبيب الإنجليزي لمبريير والدكتور براون الذي منحه السلطان مولاي عبد الرحمن رخصة لممارسة مهنة الطب بالمغرب، وذلك علاوة على الأطباء اليهود الذين كانت تستقدمهم الجالية الإسرائيلية، أو من كان يولد في الأجزاء المحتلة من المغرب أمثال الطبيب النباتي الأسباني السبتي كريسطوف دا كوسطا. وشعر المغرب بتضاؤل الاختصاصيين فأسس مدرسة للفنون بفاس الجديدة« ومدرسة مركزية للمدفعية » بالجديدة[٢٠] تخرجت منها فئات من الطلبة توجهت لاستكمال دراستها في مصر وكذلك في انجلترا وأسبانيا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا وأمريكا.

وقد تابعت بعثة مكونة من اثني عشر طالباً دراستها في جامعة مونبلي (Montpellier) بفرنسا خلال سنوات (١٨٨٥ م - ١٨٨٨ م) درست فيها اللغة الفرنسية والحساب والهندسة التطبيقية والهيئة والرياضيات والكيمياء والتلغراف والتليفون وعلم البصريات والكهرباء والضغط الجوي وترصيف الطرق والسكك الحديدية ومسح الأراضي وفن تحرير التصميمات الهندسية بالإضافة الى التمارين العسكرية وبناء الخنادق وأجهزة الدفاع وصنع آلات الحصار، وحذق هؤلاء الطلبة فأصبحوا يحررون المذكرات ويتأهبون للاضطلاع برسالة تقنية هامة في المغرب الحديث، وتم الاتفاق بين المغرب وفرنسا على توجيه فوج جديد لاستكمال الأطر المغربية تدريجياً في مدينة فرساي (Versailles) ولكن شيئا من ذلك لم يتم، إذ توفي الحسن الأول بعد سنوات ودخل المغرب في خضم من الدسائس الدولية عرقلت توثبه للانبعاث، ووجه الحسن الأول كذلك الى أوربا طلبة لدرس الطب تابع ستة منهم تمارين بالمستشفى الأسباني بطنجة في ميدان الفحص والتضميد والتشريح

(١٨) رينو - « نشرة معهد الدروس العليا » ج ١٨ ص ٢٠٦.

(١٩) كودار - تاريخ المغرب ص ٣٩٩ و ص ٤٩٥ المغرب الحديث مملكة تنهار كامبو ١٨٦٦ ص ١٦.

(٢٠) الإتحاف لابن زيدان ج ٣ ص ٣٦٧.

وعين ثلاثة من خريجيها أطباء في الجيش بكل من طنجة ومراكش، أما مصر فإنه لم يتوجه إليها غير الأستاذ عبد السلام العلمي لدراسة الطب بالقاهرة، وكأنها كانت النواة الأولى أراد السلطان الحسن الأول أن يستكنه بها قيمة الدراسة العلمية في الشرق العربي غير أن هذه البعثة لم تجدد كمثيلاتها في أوربا بالرغم من ارتفاع مستوى التعليم في مصر آنذاك.

والواقع أن المغرب أفاد كثيراً من الروح الجديدة التي تقمصها الشريف العلمي الذي ما لبث أن صنف بعد عودته كتابا سماه «ضياء النبراس» في حل مفردات الأنطاكي بلغة فاس وطبع بالمطبعة الحجرية بفاس عام ١٣١٨ هـ. ذكر فيه شيوخه في «الاسبطالية الكبرى» بالقصر العيني الذي أسس عام ١٨٢٧ م بأمر من الخديوي محمد، ويعتبر هذا الكتاب في نظري نقطة تحول في تاريخ الطب المغربي حيث يحاول المؤلف التوفيق بين الشهور والبروج والأدوية وأنواع النباتات المتداولة في الشرق والغرب وفي المغرب مصححا في بعض الأحيان أغلاط سلفه ومنظرا بين المصادر المطبوعة ودروسه في مصر وتقاليد أطباء المغرب وصيادلته وما يسميه بالطب الجديد والكيمياء الجديدة بأوربا وأمريكا، ويأتي أحيانا بأسماء الدواء بالعربية ومختلف لهجاتها ثم باللاتينية والأفرنجية مع تحليل ذلك بالمصطلحات الحديثة العامة كالتصعيد والتقطير، وقد نقل من مصر نماذج عديدة من النباتات والعقاقير والأدوية، ويحكي عن تجارب شيوخه في قصر العيني وإسهامه الشخصي في هذه التجارب وقد ذكر أنه شاهد زرافة مصبرة بالقصر العيني خلال قراءته على الحيوانات (الضياء ص ٥٧) وشارك في تحضيرات بالمعمل الكيماوي بمصر (ص ٧٢).

وقد نقل عن نحو الخمسين مؤلفاً منهم ابن الخطيب (ص ٨٠) والوزير الغسّاني صاحب الحديقة وعبد الرحمن الفاسي وعبد القادر بن شقرون والطبيب الصيدلي العجلاني والطبيب المصري أحمد بن حسين الرشدي الذي عاش أول القرن الماضي وابن الحشاء صاحب تفسير الألفاظ الطبية واللغوية الواقعة في الكتاب المنصوري (١٠٨). وقد أسس الطبيب مولاي عبد السلام

العلمي مصحة صغيرة بفاس عمل بها حتى توفي عام ١٣٢٣ هـ، ورسالة العلمي هذه مشحونة بالاصطلاحات الحديثة ووصف العمليات العلمية التي كانت تُجرى بالقصر العيني وأنواع العلوم التي كانت تدرس به مثل علم التشريح الهيكلي والعضلي والمفصلي والتشريح العصبي والتاريخ الطبيعي والكيمياء الطبية والأقرباذين (الصيدلة وطب الرمد والأمراض الجلدية والداء الزهري وعلم الحيوانات المصبرة وأحجار المعادن وأمراض النساء والأطفال (في أسبطالية أمراض النساء بمصر).

★ ★ ★

ويعطينا كتاب «ضياء النبراس» صورة عن الاختلاف الملحوظ في المصطلحات العلمية بين الشرق العربي والمغرب الأقصى الذي عرف عشرات الأعشاب والنباتات باللسّان البربري انفرد بها المغرب..

ويتجلى من الصراع السياسي والعسكري الذي بدأ المغرب يخوضه منذ بداية هذا القرن أن التعليم العربي أصبح يسير رويدا نحو التقلص إلى أن انحصر في جامعة القرويين وروافدها المحدودة التي بعد عهدها بالعلوم. وازدادت اللغة العربية إبان الحماية تقلصاً عندما اتخذ الاستعمار اللغة الفرنسية أداة وحيدة للتلقين في المدارس وقام «التعليم الحر» المعرب برد فعل عنيف فعرب تدريس العلوم وخاصة بشمال المغرب حيث توجهت أفواج من الطلبة لاستكمال دروسهم في الشرق، وكانت الحماية الأسبانية في هذه المنطقة أقل مضايقة للمواطنين فتكاثر عدد المتخرجين من الشرق العربي وشجع الباب المفتوح الطلبة على متابعة دروسهم الثانوية في المعاهد المصرية على عكس ما ابتدعه الفرنسيون في منطقة نفوذهم بالجنوب من أساليب المكر والدسائس للقضاء على لغة الضاد، ومع ذلك فقد واصل «التعليم الحر المعرب» رسالته الخالدة محافظاً على كيان اللغة بالرغم من «تفرنس» أغلبية المثقفين وازدواجية ثقافة الأقلية الضئيلة من هذه النخبة التي تزعمت بروحها العربية الإسلامية حركة الثورة ضد الاستعمار.

وكان التعليم المعرَّب يستورد خفية من الشرق - وخاصة من مصر - جملة من المصنفات معظمها في الآداب واللغة والنحو وظل الحاجز كثيفاً بين لغة عربية علمية تتطور في الشرق وتواكب النهضة الجديدة، وبين عربية قص جناحها في المغرب الأقصى، لا كلغة علمية بل كمجرد لغة، وقد قامت الصحافة العربية بدور هام في تجديد الصلة بين الشرق والمغرب، متتبعة البحوث الجديدة ومصطلحاتها المولدة في الاقتصاد والسياسة والقانون وتاريخ المذاهب الشيوعية والاشتراكية، والنزعات الأدبية والفنية المستطرقة مقتبسة في ذلك ما راج في الشرق العربي من تعابير ومفردات.

وطفق المغرب بعد استقلاله في عام ١٩٥٦ يتطور ببطء نظرا لتراكم المشاكل الاقتصادية والسياسية والاجتماعية فرسم التخطيطات في شتى الميادين الحضارية وضاعف حصص اللغة العربية، فاكتمل الآن تعريب السلك الابتدائي وإن كانت قلة الأطر المغربية الصالحة تهدد بتحجر هذه الحركة، وظل الثانوي في طوريه يلقن العلوم بالفرنسية عدا التعليمين الحر والأصلي أي الإسلامي الذي هو من روافد جامعة القرويين بكلياتها الجديدة (الشريعة بفاس، وأصول الدين بتطوان، واللغة العربية بمراكش) كما ظل إقبال المغاربة ملحوظاً في مدارس البعثة الفرنسية التي بدأت منذ يناير من سنة (١٩٦٩) تلقن العربية لتلاميذها. وقد تزايدت حصة اللغة العربية في معظم الأسلاك بينما أحدثت أقسام معربة في كليتي الآداب والحقوق والمدرسة العليا للأساتذة مع بقاء الكليات التقنية ككلية العلوم ومدرسة المهندسين ومعاهد الفلاحة والأكاديمية العسكرية في معزل عن أي تعريب.

ولذلك يلاحظ أن الأطر ما زالت تستعمل الفرنسية تبعا للغة الخبراء الفنيين الذين يقل عددهم نسبياً بفضل حركة المَغْرَبة ما عدا قسما يسيرا تعمل وزارة الوظيفة العمومية على تعريبه بدروس خاصة تنظمها للموظفين. على أن هذه المغربة لا تواكب حركة التعريب، فقد ظلت لغة معظم الاختصاصيين المغاربة أجنبية في تحرير النصوص والخطابات والمناشير، وكذلك التخاطب في

المحافل والمؤتمرات، باستثناء وزارة العدل والمرافق التابعة لها حيث شمل التعريب جميع المحاكم) ولعل المشكل واحد في مجموع أقطار المغرب العربي ـ عدا بعضها ـ نظراً لما نتج عن تعميم التعليم (أزيد من مليون طفل اليوم بالمغرب بدلا من ربع مليون قبل الاستقلال) من هلهلة في تكوين الأطر وضعف في المستوى.

والظاهرة الغريبة هي أن جامعة القرويين نفسها قد تضاءل طلبتها لكون ازدواجية اللغة ما زالت مقياساً لتقييم الأهليات في مختلف مجالات الحياة، ولم تكد تمر أربع سنوات على الاستقلال حتى شعر جلالة المرحوم محمد الخامس بفعل الرواسب التي تباعد بين جناحي العروبة، خاصة في حقل المصطلح « العلمي والتقني » فدعا عام ١٩٦٠ إلى عقد « مؤتمر للتعريب » انبثق عنه في إطار جامعة الدول العربية المكتب الدائم لتنسيق التعريب في العالم العربي، ذلك المكتب الذي يستهدف الاستفادة من تجربة الجناح الشرقي لدعم حركة التعريب في الجناح الغربي.

وقد نشر هذا المكتب عدة معاجم في العلوم بلغات مختلفة، كما أصدر « اللسان العربي » وهي مجلة دورية للأبحاث اللغوية ونشاط الترجمة والتعريب في العالم العربي، وأسس مكتبة للعلوم زاخرة بأحدث ما أصدره الشرق من مصنفات في مختلف القطاعات التقنية، وقد خطط لنفسه تصميماً عشارياً غايته الأساسية استكمال الأداة العلمية والتقنية في أمد محدود بتوحيد المصطلحات واستقرائها، تعزيزاً لصراع ثقافي تخوضه لغة الضاد كلغة عمل في كثير من المحافل الدولية، وقد اندرج هذا العمل التنسيقي ضمن مشاريع تسهم فيها المجامع والمجالس العليا والاتحاد العلمي العربي والجامعات والهيآت الثقافية في مختلف العواصم العربية ومئات الاختصاصيين الذين يراسلون المكتب الدائم من جميع أنحاء العالم العربي.

وقد بدأ هذا الكفاح الصامت يؤتي أكله بإقناع النخب المغربية ـ القليلة الصلة بالثقافة العربية ـ بفعالية لغتنا القومية في مجال الحضارة والعلم، كأداة

طيعة للتخاطب في الحقل الدولي، ولكن هذا الاقتناع لن يتم إلا إذا استقصينا تدريجياً المصطلحات التقنية التي أصبحت، حتى عند دول كبرى كفرنسا، مثار غزو ثقافي بسبب ما تزج به مخابر الكشوف العلمية في الأسواق الدولية من مصطلحات تقنية يبلغ عددها خمسين مصطلحا في كل يوم.

إن مواكبة حضارة العصر الحديث لن تتحقق بالنسبة إلينا معاشر شعوب المغرب العربي إلا إذا توازت فيها ذاتيتنا العربية مع إنسانيتنا الحضارية، والمقوم الجوهري لهذه الذاتية هو اللغة العربية التي ظلت ـ كما يقول ماسنيون ـ massienon: «أداة خالصة لنقل بدائع الفكر في الحقل الدولي وعنصراً جوهرياً للسلام في مستقبل الأمم والشعوب».

العامل الأجنبي في تطور الفكر واللغة

العامل الأجنبي في تطور الفكر واللغة

إذا كان وضع اللغة العربية بالمغرب في أوائل القرن العشرين لم يعد يختلف كثيراً عنه في بقية أقطار العالم العربي من حيث الهيكل العام وأصناف التأثيرات الإسلامية التي هي متقاربة في الأقطار الناطقة بلغة الضاد، فإن الطابع الخاص الذي تتسم به المعطيات اللغوية بالمغرب ظل مع ذلك يستمد عناصره في نظرنا من ثلاثة عوامل:

١ ـ بقاء المغرب طوال ألف عام، باستثناء العهد الأموي العربي، في معزل عن كثير من المؤثرات الشرقية، كالفارسية والسلجوقية والبويهية، وأخيراً التركية العثمانية.

٢ ـ احتفاظه لذلك بمظاهر الأصالة العريقة في اختياراته، ولا يقاس تأثير البربرية بالتأثيرات الفارسية والتركية، لأن البربرية لهجة غير مكتوبة، فنيت كثير من مفرداتها في اللغة البونية ثم العربية.

٣ ـ المؤثرات الأجنبية غير الإسلامية التي تختلف ماهيتها في جناحي العروبة، إغريقية أو أرامية وسريانية ولاتينية في الشرق، بينما هي أسبانية أو برتغالية أو فرنسية في الغرب.

ويظهر أن معظم الألفاظ الدالة على الحضارة والملك والأثاث والرياش فارسية الأصل، وما يتصل بالعلم والفلسفة مقتبس من اليونانية، بينما استمد العرب مصطلحات النبات من النبطية، والدينيات من العبرية أو السريانية، أما اللغة السنسكريتية أو الهندية فقد أثرت في معجم العقاقير والطيوب والتوابل

والأحجار الكريمة إلا أن العقاد [1] أكد أن العربية تم تطورها قبل أن تستعير من الفرس شيئاً، وإنما استعارت ـ بعد تمام الحضارة ـ أسماء حضارية كالأبريق أما النبطية والعبرية فهما في نظره لهجتان من لهجات العرب القديمة.

والواقع أن تأثير هذه اللغات في العربية شيء لا ينكر، وأن أثر الفارسية امتد إلى شتى مظاهر الحضارة لا إلى «أسماء الأعيان» وحدها وإن كان قد سبق للفرس أن استمدوا قديماً من الأرامية والعربية، وقد أخذ المغرب من الفرس عن طريق العرب ألفاظاً حضارية شتى مثل الجرة والإبريق والطست والطبق والقصعة والياقوت والبلور والكعك والفلفل والزنجبيل والقرفة والنرجس والنسرين والسوسن والعنبر والكافور والصندل والقرنفل والبستان والأرجوان والسراويل والجوز واللوز والميزان والمغنطيس والصك والفرسخ والزمرد والآجر والجوهر والسكر والطنبور [2].

تضاف إليها ألفاظ أخرى قليلة تسربت إلى المغرب مباشرة أو عن طريق التركية كالبوس بمعنى التقبيل والبال أي المسحاة [3] والبهرجة (أي الباطل) [4] والصهريج والزردخان والجوخ (وهما نوع من الصوف أو القطن الكثيف) [5] وبابا (أي الأب في لغة الأطفال) وبازار (سوق) وبازاري وباس (لثم) وشاويش (شاوش) وخردة (أصلها العربي خرثى)، وخواجة أو خواجي (غني) ودرويش (فقير) وزنزانة (سجن ضيق) وزيَره (جعله في مكان ضيق) وسالف (خصلة شعر متدلية على الصدغ) وشبر أي أشبار (وهو حبل رقيق جداً) وشنطة (حقيبة صغيرة) وشيت (نسيج قطني فيه رسوم وألوان) وصباهي (صبايحي أي جندي) وطارمة (بيت خشبي ذو قبة)

---

(١) مجموعة البحوث والمحاضرات التي نشرها مؤتمر مجمع اللغة العربية ـ الدورة السادسة والعشرون عام ١٩٥٩ ـ ١٩٦٠

(٢) «فقه اللغة» للثعالبي و «المزهر» للسيوطي و «المخصص» في العلوم وآلات الغناء.

(٣) «البيان والتبيين» للجاحظ ج ١ ص ١٠٧.

(٤) «متن اللغة» لأحمد رضا

(٥) «صبح الأعشى» للقلقشندي ج ٥ ص ١٤١

وطاقية (نوع من ملابس الرأس) وقيطان (خيط مفتول من القطن أو الحرير) وكخ (كخ بالمغرب أي رديء في لغة الأطفال) ومارستان (مستشفى المجانين) وميخانة (حانة أي خمار وتطلق على أحد الأحياء بالمغرب) ونيشان (وسام) ونيشن (نيش بالمغرب أي صوب القذيفة نحو الهدف).

★ ★ ★

لعل من الصعب أن نحدد بالضبط الألفاظ الفارسية التي دخلت عن طريق التركية إلى المغرب الأقصى، فهنالك مئات من الكلمات التركية تسربت إلى الشام ومصر والعراق، طوال أربعة قرون من الحكم العثماني، فأبعدت كثيراً من المقومات اللغوية عن عراقتها العربية، بينما انقسم الدخيل التركي للمغرب الأقصى على ندرته إلى نوعين: أحدهما تسرب مع الفارسية منذ صدر الإسلام، والآخر منذ القرن العاشر الهجري، أي في عهد السعديين الذين تعززت صلتهم السياسية بالباب العالي، مع الاحتفاظ باستقلالهم وخاصة في الميدان (الحضاري الأزياء والجيش والملاحة والإدارة).

ومن هذه الألفاظ الباشا والطابور والطوبجية (المدفعية) والسنجق والسلاق والبياك من حرس السعديين والجبدولي (الصدرية) والبرنامج والباشادور والخواجي (التاجر والدربكة (الطبل) وأصلها (تابوراك) والبابوشة (وهي البابوج أو البلغة) والبازار والخازوق وطز (كلمة تستعمل كناية عن الاستهزاء والاستياء) وصابونجي وقهوجي وكفتة وجامكية (أي مرتب عسكري) وإن كانت هذه الكلمة قد دخلت إلى المغرب عن طريق الأغزاز الأكراد منذ عهد الموحدين (المعجب - للمراكشي ١٩٣٨ ص ١٧٧).

ويختلف هذا التأثير التركي في الأقطار العربية، ولعل الدخيل من الفارسية في لغة العراقيين يوازي الدخيل فيها من التركية، خلافاً لما عليه الحال في مصر حيث معظم الدخيل في لغتها الشائعة من التركية، ثم من اللغات الأفرنجية [٦]. ومعلوم أن ديوان العراق لم ينقل من الفارسية إلى العربية إلا في عهد الحجاج

(٦) محمد رضى الشبي مجلة مجمع فؤاد الأول للغة العربية ج٨ ص ١٣١.

وكاتبه صالح بن عبد الرحمن الذي كان يتقن اللغتين (تاريخ ابن خلدون ج ١ القسم الثاني ص ٤٣٢).

والألفاظ اليونانية التي تسربت إلى الفصحى ثم العامية بالمغرب عن طريق المعجم العربي تكاد تكون محدودة، معظمها كلمات اسطرلاب وإقليم وأوقية (ounguiya) وبارود (piritie) وبجماط بمعنى بسكويت (paxinadhi) وبطاقة (pittakion) وبالبلغم (flegma) وفنطيزية (phantasia) وثؤلول (أي خراج (tilos) وقلم وفندق وتليس (أي جوالق) وحرقوص (دهن أسود للوجه) وياقوت وملوخية ومصطكي ولوبياء وكرويا وكرنب وقيطون وقيراط وقيثارة وقنطرة وقنب وقمقم وقصدير وقرميد وقانون وقالب وقارب وقادوس وفنار وفلس وفص وفخ وطاجن ورطل ودلفين ودرهم وألماس ورز (أي أرز).

والدخيل اللاتيني في الفصحى بالمغرب هو نفسه ينقسم إلى: مباشر وهو قليل مثل الطابية والمنديل والكرزية والكركور والفقه (وأصلها يوناني) وقند أو سكر (المقتبس هو نفسه من قنديد العربية) (CANDI)، أو غير مباشر كالاسطيل والبوق (bucca) والدينار والسجل والصراط والصاقور والطرطور والقرصان والفرن والقلنسوة والقميص والقنديل والقنطار والكوفية والمد (المكيال) والمنديل والميل والقيصرية والمقربص (stalactite).

أما اللغات القديمة الأخرى فإن تأثيرها في اللسان المغربي يكاد يكون منعدماً مثل الهندية (التي لا نعرف منها سوى كلمة (بوجا) بمعنى محفة العروس ولعلها دخلت عن طريق الأسبانية لأنها لا تعرف إلا في الشمال وخاصة بتطوان. والحبشية التي أمدت العربية قديماً بكلمات منها (إنجيل ومصحف وحواريون) ومن العبرية ألفاظ دخلت إلى المغرب قبل الإسلام (الكاهنة) أو ما يستعمل الآن في بعض الأقاليم مثل إيميت بمعنى الحق والطريق الأقوم وهامايوت بمعنى الصخب والضجيج («مصطلحات طنجة»

لمارسي (Marsais) ص ٤٨٦). وقد انعكست عليها كثير من خواص اللغة العربية منذ القرن الرابع الهجري عن طريق مدينة فاس.

ولعل الظاهرة الغريبة في هذه التفاعلات تكمن في الصلة الغامضة بين اللسان المغربي، فصيحة وعامية، وبين السريانية التي تعتبر أشهر وأغنى اللهجات الآرامية، فهل دخلت هذه العناصر إلى المغرب قبل الإسلام عن طريق المهاجرين الأولين؟ أم تسربت إليه منذ العصر الأموي، ثم عن طريق الأندلس حيث احتكت جاليات الشام والبربر طوال قرون؟ إن من العسير تحديد الإطار التاريخي لهذه التسربات، ومهما يكن فقد أحصينا نحواً من ثلاثين كلمة يتحد في استعمالها اللسان العامي في كل من المغرب الأقصى وسوريا ولبنان، مثلاً منها ألفاظ ابتذلت في العالم العربي مثل بطانية (bitoune) وبريمة (من bram بمعنى برم أي ثقب بالبريمة) وجرجر (بتكرار كلمة جر gargar) وشقلب بمعنى قلب بدون ترتيب ولا نظام (chaqleb) وبق بمعنى بعوض (boqo).

* * *

أما الكلمات الأخرى فهي:

برا: في الخارج (bare). /ـ بطن: بمعنى مولود (batno). /ـ بعج أي ضغط شيئاً ليناً فجوفه (b'aq). /ـ بعير: حيوان (حمار أو جمل) متوحش خشن (b'iro). /ـ بهر: سطع (bhar). /ـ تبهلل: تباله والبهل (الأبله bahlo). بهموت: رجل داهية طماع (bel moût). بيناتنا: بيننا (baynot).

تفو عليه: تعبير عن الاحتقار والاشمئزاز (أف poûz) (وتفه في الفصحى قال له تفا أو تف لك أي قذراً وبعداً).

الحد: يوم الأحد (had). حربق الأمر: عقده (habeg يقال خربق في المغرب). حنتت: قتر وبالغ في البخل (haté) ولعل منه حنتيت في العامية المغربية. خرشوم: أنف (hasoume) خيشوم في المغرب. خلخلة: هزة

(halhel) . دار: ساحة بيت غير مسقفة (dorto) . درفة باب أو نافذة: مصراعها (dafo) ، ويقال في المغرب دفة . الدغل: المكر والكذب (dougolo) . دقدق الباب: قرعه مراراً (daqdeq) . الدقن: اللحية (dagno) . دندله: دلاه (dandel) ، في المغرب دلدل . روح اللحم: فسد (rhah) . زفرة: نتن الرائحة . سطره: شقه نصفين بالساطور (Star) . ساوسه: لاطفه (Sawsi) ، (سيس معه في المغرب) . شحّ: الماء قل (Sah) ، يقال شحت في المغرب . شقفة: قطعة . شلهب الشخص: احترق من الحر أو العطش أو نحوهما (echtalheb) .

الشاوي: القائم بتوزيع المياه على الأراضي المزروعة (إقليم الشاوية في المغرب حيث تتوافر الشياه والمياه) .

طاش: هام على وجهه . صهر: بدل ظهر (tahro) . طعم: لقح (taen) . طلس بالوحل أو نحوه: وسخه (tlach) . فرتكه: كسره وقطعه . فرقع: انفجر بضجة (farga) . فركش: وضع أمامه ما يعثر به (Farkes) يقال صبي فركوش في العامية المغربية إذا كان يتعثر في مشيه لصغره . فشر: كذب (fchar) (الفشار) . فشط: كذب وادعى ما ليس فيه (fchat) (فشاط) . فكح: عرج قليلاً (egah) (فركح في المغرب) . قاقى الدجاج: صوت (qawqi) . قدى: كفى (يقدني - يكفيني) (aqde) . القرطة: قطعة كبيرة مستديرة من جذع شجرة يسطر عليها اللحم مثلاً (Kourte) . كاش على الدنيا: اشتد حبه لها وبخل بها (Kachi) . كاف: كهف (kifo) . كرش: المعدة أو البطن (Karso) . كش الذباب: طردة (akech) . كلخ: غصن مقطوع (يطلق في المغرب خاصة على قشرة الغصن أو الجذع المقطوع) .

كوش: (تقال للكلب) ، اسكت أو اهدأ (تقال حتى للذباب والدجاج ونحوهما في المغرب) . لبخه: ألصقه (ibah) . لهط ولهف: خطف بسرعة وبشوق شديد . مرط الغصن: جرده عن ورقه (mrat) . معس: داس ما فيه حياة (m'as) . مقله: مقلي أو مقلاة (maqlyo) .

* * *

وإذا كانت النبطية والعبرية لهجتين من لهجات العرب القديمة كما يقول الأستاذ الكبير المرحوم عباس محمود العقاد، فإن الإسرائيليين قد طعموا بعد الإسلام كثيراً من المعطيات العبرية، بعناصر عربية فمن المعلوم أن فلولا من اليهود قد دخلت إلى المغرب مع البربر النازحين من فلسطين، ثم بعد ذلك بقرون عندما تم إجلاؤهم من الجزيرة العربية إثر وقعة خيبر، وقد انضم عدد منهم إلى الجيش العربي الفاتح بقيادة طارق بن زياد، خلال زحفه على الأندلس، وتظاهروا في عهد الأدارسة العلويين بالحنين إلى مسقط رأسهم بالشرق، فتشبثوا برعويتهم للعباسيين، تلك الرعوية التي لم تكن في الواقع سوى مظهر للفت في عضد الدولة الإسلامية - كما اعترف بذلك حبر الجزائر الأكبر موريس إيزنبيت -. - حيث انتقلوا إلى فاس منذ اعتلاء المولى إدريس الثاني أريكة العرش المغربي عام ١٨٨ هـ - متواردين من القيروان ومصر وبابل وفارس.

وقد انبثقت في القيروان قبل ذلك حركة فكرية تلمودية ما لبثت أن ازدهرت بفاس في عهد المرابطين والموحدين وإن كانت حركة التطهير التي قام بها المهدي بن تومرت وخلفاؤه قد شملت المسلمين والإسرائيليين على السواء، عدا الجالية اليهودية بطنجة التي لم يقدر لها أن تخوض غمار الدسائس المرابطية مما يدل على أن القمع الموحدي قد اتسم بطابع سياسي لا أثر فيه لأي عامل ديني أو سلالي، وقد استوطن موسى بن ميمون صاحب «دليل الحائرين» مدينة فاس، حيث كان يسكن الدار المعروفة بدار المجانة حسب وثيقة يهودية عثر عليها بفاس يرجع تاريخها إلى القرن الرابع عشر الميلادي (Chronique, semach p. 83). أصبحت - كما يقول البكري - المسالك والممالك ص ١١٥- أكثر بلاد المغرب يهوداً يختلفون منها إلى جميع الآفاق». وقد استعمل اليهود اللغة العربية في كتاباتهم ومحاوراتهم منذ القرن الثالث الهجري، في مجموع أفريقيا الشمالية، كما أصبح كتاب سيبويه في النحو منطلقاً لتجديد النحو العبري بفاس، منذ القرن الرابع. (ماسينيون

- مجموعة البحوث والمحاضرات - مؤتمر مجمع اللغة العربية ١٩٥٩ - ١٩٦٠ - ص ٢١٨ -.

وفي هذا العصر نبغ كثير من اليهود بالأندلس والمغرب كان لهم الفضل في بعث اللسان العبري والدراسة التلمودية ودعم الحركة العلمية من خلال اللغة العربية فقد ظهر حوالي ٩٦٠ م عالم يهودي أندلسي هو مناحم بن سروق حاول، في معجم شهير معروف باسم « محبرت »، الاعتناء بلغة العهد القديم فتصدى الحبر الفاسي دونش ابن لبرات للدعوة إلى فكرة جريئة هي وجوب العناية بالعربية والاستعانة بها في فهم مصطلحات « العهد القديم »، وضرب لذلك مثلا بنحو مائتي كلمة عبرية ما كان لأحبار التلمود أن يستكنهوا معانيها لولا رجوعهم إلى اللغة العربية.

وقد حدث منذ هذا العصر بفاس صراع بين أنصار التعريب وخصومه، (أي أنصار تعريب العبرية) حيث نجد أبا زكرياء يحي بن داود حيوج الفاسي يرحل إلى قرطبة أوائل القرن الحادي عشر الميلادي للاقتباس من أراء مناحم المذكور، وقد تزعم الحركة الهادفة إلى إحياء التراث العبري فكان بحق المؤسس الاول لعلم « فقه اللغة العبرية » وقد استطاع بفضل ضلاعته في اللغة العربية تركيز قواعد العبرية التي استكمل نقصها بالمصطلحات العربية أبو الوليد مروان بن جناح القرطبي المولود في النصف الأول من القرن الحادي عشر والذي ألف كتاب « التقريب والتسهيل » كما عالج القواعد العبرية في كتابه « اللمح » واعتمد في « كتاب الأصول » مؤلفات عربية كخصائص ابن جني في فلسفة أصول الكلمات وتخريجها التخريج اللغوي السليم.

ومن آثار العربية في اللسان العبري ما لاحظه يهودا بن تبون، مثل كلمة « فافهم » التي أصبحت تختم بها الرسائل والكتب العبرية وصيغ عربية كمتفلسفة (متفلسفيم) ومتكلمين، ولعل أول من وضع كتبا في قواعد اللغة العبرية هم يهود العراق، كما أن أول من وضع معجماً لغويا عبريا هو الحاخام سعديا وهو أبو سعيد بن يوسف الفيومي المصري (٨٩٢ - ٩٤٢ م ويعتبر

واضع الفلسفة اليهودية في العصور الوسطى، وقد صنف ترجمة عربية للعهد القديم واستكمل قانون الميراث اليهودي مستعيناً بالشريعة الإسلامية.

وقد لفت يهوذا بن قريش صاحب كتاب «فقه اللغة المقارن» Philologie Comparée يهود الشمال الأفريقي إلى وجوب المزيد من العناية بالعربية تعزيزاً لفهم أسرار العبرية والعهد القديم ووضع قاموساً عبرياً لم يصلنا، بينما وضع معاصره داود بن ابراهيم الفاسي قاموساً سماه «أجرون» يحمل نفس الاسم ويتسم بنفس القيمة مع شرح بالعربية للألفاظ العبرية وكان يهوذا بن قريش يستشهد في مؤلفاته بالشعر العربي «محاضرات من الأدب العبري» للدكتور فؤاد حسنين علي - طبعة الجامعة العربية ١٩٦٣ ص ١٤٧».

كما سار ابن جناح وخلفه في تصانيفهم على منوال اللغويين والنحاة العرب وقلد الحريزي مقامات الحريري فأدخل في الادب العبري فنا جديدا لم يكن لليهود به عهد، وكذلك الأمثال العربية، وقد ترجمت أسرة تبون إلى العبري عديداً من الكتب العربية في الفلسفة والطب والرياضيات والقصص الشعبي.

أما إسحاق بن يعقوب الكوهن الملقب بالفاسي، (الذي ولد عام ٤٠٤ هـ (١٠١٣ م) في قلعة ابن أحمد قرب فاس وتوفي بالوسينة بالأندلس عام ٤٩٧ هـ (١١٠٣ م) فله شرح على التلمود في عشرين مجلد يعتبر لحد الآن من أهم كتب التشريع التلمودي، وله أيضاً ثلاثمائة وعشرون فتوى محررة كلها بالعربية وقد أسس الوسينة قرب غرناطة عام ١٠٨٩ م معهداً للدروس العليا التلمودية كان الطلاب يؤمونه من كل الجهات.

* * *

وقد توافد على المغرب من الاندلس يهود كثيرون فرارا من اضطهاد رجال التفتيش المسيحيين فعززوا الحركة الفكرية العبرية والتلمودية والتحق بهم يهود آخرون طردوا من إيطاليا عام ١٢٤٢ م ومن انجلترا عام ١٢٩٠ م ومن هولندا عام ١٣٥٠ م ومن جنوب فرنسا عام ١٣٩٥ م بالإضافة إلى

من هاجر منهم بعد النفي العام، حيث انتقلت إلى المغرب فلول أخرى من فرنسا وإنجلترا عام ١٤٠٣ م ومن أسبانيا عام ١٤٩٢ ومن البرتغال عام ١٤٩٦ م ، فانتشرت جاليات يهودية في السهول والجبال والصحراء المغربية، واستقرت عائلات أندلسية بكاملها في ناحية دبدو (جنوبي غرب وجدة) واتسع في فاس نطاق البيع والمدارس التلمودية[٦].

وقد ظل يهود المغرب يدرسون العربية ويكتبون بها على غرار يهود الأندلس حيث انتهى يهودا بن نيسيم بن مالكا الفيلسوف المغربي بالعربية عام ١٣٦٥ م من تأليف كتابه «أنس الغريب»[٧] وكذلك شيخ التعاليم بفاس خلوف المغيلي الذي نزل عنده أبو عبد الله الإبلي العبدري شيخ ابن خلدون قبل أن يرتحل إلى ابن البناء بمراكش[٨].

تلك صور حية تبرز الدور الهام الذي قامت به المدارس اليهودية بالمغرب لتعزيز علومها وعامة دراساتها التلمودية، خاصة من خلال اللغة العربية علاوة على دعم اللسان العبري بأصول العربية وقواعدها ولا تزال لغة اليهود إلى الآن في الحواضر والبوادي المغربية اعتراها ما اعترى العامية من تحريف كما يتجلى ذلك من نص حرره يهود مدينة «ميسور» الواقعة على «الملوية» بالصحراء المغربية قبيل منتصف القرن العشرين هذا مطلعه:

هذا السلطان نمرود ماكانش يعرف الله، على خاطر كان سلطان عظيم وقوي وأمر على الحكومة ديالوا باش يكونوا يبايعوا قدامو ويعبده، على خاطر كان يقولهم هو الله ذي خلق الدنيا وكانوا الناس صاروا يعبده (عام ١٦٥٢ Hesperis) ويلاحظ من قراءة هذا النص أن اليهود يرخون أداة الوصل الذي إلى ذي بينما يرخمها المسلمون غالباً إلى اللي.

---

(٦) حسبما رواه مؤلف Yahas Fes بالنسبة لعام ١٥٠٨.

(٧) ٤٥٨ - ٤٠٢ pp ١٩٥٢ Hesperis وعام ١٣٦٥ م موافق ٥٢٥ من السنة العبرية.

(٨) طبقات الشعرانية ج ٢ ص ١٢٥.

لاحظ لوطورنو في كتابه « فاس قبل الحماية ص ١٨٣ استعمال الاسبانية إلى عهد ملك المغرب الحسن الأول من طرف نساء بعض العائلات اليهودية وفي عام ١٨٨٨ صدرت عن طبيب الجالية الإسرائيلية بفاس شهادة طبية بالإسبانية كما توفرت هذه الجالية عام ١٩٠٣ على خمسة أطباء أسباني وتركي وروسي وفرنسي والماني، مما يدل على فسيفساء التأثير اللغوي بملامح فاس وباقي مدن المغرب.

ولعل الكثير من معالم الحضارة العربية قد انبثقت أصولها من فاس « ليشع نورها مضيئاً الجوانب المظلمة في أوربا »فالأرقام العربية نفسها لم يقتبسها الأوربيون إلا من جامعة القرويين عن طريق جيربير (Gerbert) وهو البابا سلفستر الثاني على رأس الألف الميلادي، على أن العربية أصبحت اللغة العالمية في جميع الأقطار التي دخلها العرب - كوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب - الطبعة الفرنسية ص ٤٧٣. حيث خلفت تماماً اللهجات التي كانت مستعملة في تلك البلاد كالسريانية واليونانية والقبطية والبربرية، ووقع نفس الحادث كذلك في فارس مدة طويلة، ورغم انبعاث الفارسية بقيت العربية لغة جميع المثقفين.

وقد قضت العربية حتى على اللاتينية لا سيما في شبه الجزيرة الايبرية (أسبانيا والأندلس) حيث ندد الكاتب المسيحي الفارو Alvaro ؛ وهو من رجال القرن التاسع الميلادي، يجهل مواطنيه باللاتينية فقال:

« إن المسيحيين يتملون بقراءة القصائد وروائع الخيال العربية ويدرسون مصنفات علماء الكلام المسلمين لا بقصد تفنيدها بل من أجل التمرن على الأسلوب الصحيح الأنيق في العربية وجميع الفتيان المسيحيين المبرزين لا يعرفون سوى اللغة العربية ويدرسونها بكامل الحرارة ويتهافتون على اقتناء المكاتيب الضخمة مهما كلفهم ذلك من ثمن ويعلنون على الملأ حيثما وجدوا أن الأدب العربي شيء بديع... ما أعظم الألم! لقد نسي المسيحيون حتى لغتهم الدينية ولا تكاد تجد واحداً بين الألف يحسن تحرير رسالة باللاتينية إلى

صديق له. أما باللغة العربية فإنك تجد أفواجا من الناس يحذقون التعبير بهذه اللغة بكامل الأناقة، بل إنهم يقرضون من الشعر ما يفوق من الوجهة الفنية أشعار العرب أنفسهم».

وقد نقل الأستاذ «ليفي بروفنسال» مقتطفات من كتاب الفارو في كتابه حول «حضارة العرب في إسبانيا».

وأهل الذوق من الأسبان قد بهرتهم نصاعة الأدب العربي واحتقروا البلاغة اللاتينية وصاروا يكتبون بلغة العرب الفاتحين. «المؤرخ دوزي في كتابه «حضارة العرب في أسبانية» ج ١ ص ٣١٧».

وقد نقل دوزي عن صاحب كتاب «لوس موزار إيبس دوطوليد» أن العربية ظلت أداة الثقافة والفكر في أسبانيا الى عام ١٥٧٠ ففي ناحية بلنسية استعملت بعض القرى الأسبانية العربية كلغة لها إلى أوائل القرن التاسع عشر، وقد جمع أحد أساتذة كلية مدريد ٦١٥١ عقداً في موضوع البيوع محرراً بالعربية كنموذج للعقود التي كان الأسبان يستعملونها في الأندلس.

وقبل ذلك نقل أبو الوليد محمد بن عبد الله بن خيره في تعليقاته على «النهاية لشرح الهداية» أن طلبة العلم من الأفرنج كانوا يذهبون إلى غرناطة لنقل الفقه إلى لغتهم لرداءة الأحكام فيها في القرنين الرابع والخامس.

ولم يفت المؤرخ «فياردو» الذي كتب منذ نحو القرن تاريخ العرب في أسبانيا أن ينوه بثراء اللغة العربية الخارق وشاعرية العرب الفياضة حتى أن معظم سكان شلب Silves - وهي اليوم جنة البرتغال - كانوا شعراء في نظر القزويني، بل يؤيد دوزي أنهم كلهم كانوا شعراء.

★ ★ ★

إن اللغة العربية التي بلغت مبلغاً كبيراً من المرونة والثروة في العهد الجاهلي أدركت في القرن الرابع الهجري أي في عنفوان العصر العباسي أوج كمالها، وقد وصف زكي مبارك روعة النثر الفني العربي في هذا القرن، ووصف

فيكتور بيرار اللغة العربية في ذلك العصر بأنها «أغنى وأبسط وأقوى وأرق وأكثر اللهجات الإنسانية مرونة وروعة، فهي كنز يزخر بالمفاتن ويفيض بسحر الخيال وعجيب المجاز رقيق الحاشية مهذب الجوانب رائع التصوير، وأعجب ما في الأمر - وهو شيء لا نظير له عند الشعوب الأخرى - أن البدو كانوا هم سدنة هذه الذخائر «وجهابذة النثر العربي جبلة وطبعاً ومنهم استمد كل الشعراء ثراءهم اللغوي وعبقريتهم في القريض».

إن نفوذ اللغة العربية أصبح بعيد المدى حتى أن جانباً من أوربا الجنوبية أيقن بأن العربية هي «الأداة الوحيدة لنقل العلوم والآداب» كما يقول «جورج ريفوار» الذي أوضح أيضاً أن رجال الكنيسة اضطروا إلى تعريب مجاميعهم القانونية لتسهيل قراءتها في الكنائس الأسبانية وأن «جان سيفل» وجد نفسه مضطراً إلى أن يحرر بالعربية معارض الكتب المقدسة ليفهمها الناس.

أما في فرنسا فقد أكد جوستاف لوبون في «حضارة العرب ص ١٧٤». أن للعربية آثاراً مهمة في فرنسا نفسها، ولاحظ المؤرخ «سديو» - عن حق - أن لهجة ناحيتي أوفيرني وليموزان زاخرة بالألفاظ العربية وأن الأعلام تتسم في كل مكان بالطابع العربي.

وكان من الطبيعي أن يزود العرب الذين كانوا قادة المتوسط منذ القرن الثامن الميلادي، كلا من فرنسا وإيطاليا بمعظم مصطلحاتها البحرية، على أنها قد تركت أثرها في مصطلحات الجيش والإدارة والصيد والعلوم وغيرها.

وقد لوحظ نفس التأثير في صقلية حيث كان الملك روجير النرمندي يتسربل بالأزياء الشرقية ويرقم جبته الرسمية بالحروف العربية وكان كل من طابعه ونقوده يحمل الكتابة العربية والنرمندية، وقد كان أميرال صقلية متضلعا في العربية. وبالجملة «فقد صارت العربية - كما يقول الأستاذ فنتجو - لغة دولية للتجارة والعلوم».

أما نسبة هذا التأثير فقد ذكر بعض الباحثين أن المفردات العربية التي دخلت إلى الأسبانية تقدر بربع محتويات القاموس الأسباني، بينما دخل إلى البرتغالية ثلاثة آلاف كلمة عربية، وقد صنف الأب ساسا باتيستا الذي ولد في دمشق من أبوين عربيين، قاموساً عام ١٧٨٩ جمع فيه الكلمات التي اقتبسها البرتغال من العربية، وهذا القاموس يقع في مائة وستين صحيفة، كما ألف «دوزي» و «انجلمان» قاموساً للكلمات الأسبانية والبرتغالية والمشتقة من العربية، وتوجد في مكتبة الأسكوريال معاجم عربية لاتينية وعربية أسبانية صنفها علماء مسلمون (حضارة العرب، ص ١٢٦ - ٤٧٤).

وهناك لغات أخرى كالمالطية اقتبست معظم مفرداتها من العربية، وذكر أحمد فارس الشدياق صاحب «الجوائب» في كتابه «الواسطة في معرفة أحوال مالطة» جملة من الموازنات بين لغة المالطيين العربية ولغة المغرب، فلاحظ بينهما تقارباً كثيراً من شتى الوجوه مما يرجح كون عرب مالطة ينتمون لأصل مغربي، إلا أن في اللغة المالطية نتفا من لغة الشام ولكن الألفاظ المغربية أكثر.

ومعلوم أن الكثير من اللهجات تتقارب في العالم العربي وقد أكد جوستاف لوبون (ص ٤٧٢) «أن العربية من أكثر اللغات انسجاماً فهي وإن كانت تحتوي على عدة لهجات كالشامية والحجازية والمصرية والجزائرية غير أن هذه اللهجات لا تختلف فيما بينها إلا بفوارق جد طفيفة، فبينما نلاحظ أن سكان قرية في شمال فرنسا لا يفهمون كلمة من اللهجات المستعملة في قرى الجنوب، نرى سكان شمالي المغرب الأقصى يتفاهمون بسهولة مع سكان مصر والحجاز، وقد قال الرحالة وركارد بأن كل من عرف إحدى هذه اللهجات فهم سائرها بدون عناء.

★ ★ ★

واللغة الإنجريقية الجديدة نفسها اقتبست الشيء الكثير من العربية عن طريق التركية غير أن المقتبسات اتخذت شكلية يعسر معها إرجاعها إلى الأصل العربي.

ومعلوم أن الجامعات الأوربية كانت عاملا مهما في ذيوع اللغة العربية التي أصبحت في العصور الوسطى لغة الفلسفة والطب ومختلف العلوم والفنون بل أصبحت لغة دولية للحضارة.

ففي عام ١٢٠٧ م . لوحظ وجود معهد في جنوة لتعليم اللغة العربية، ثم نظم المجمع المسيحي العالمي بعد ذلك تعليمها في أوربا وذلك بإحداث كراس في كبريات الجامعات الغربية، وفي القرن السابع عشر اهتمت أوربا الشمالية والشرقية اهتماما خاصاً بتدريس اللغة العربية ونشرها؛ ففي سنة ١٦٣٦ قررت حكومة السويد تعليم العربية في بلادها ومنذ ذلك انصرفت السويد إلى طبع ونشر المصنفات الإسلامية، وبدأت روسيا تعتني بالدراسات الشرقية والعربية على الخصوص في عهد البطرس الأكبر الذي أوفد إلى الشرق خمسة من الطلبة الروسيين، وفي عام ١٧٦٩ قررت الملكة كاترينا إجبارية اللغة العربية، وفي عام ١٨١٦ أحدث قسم اللغات السامية في جامعة « بتروكراد ».

وقد اتجه اقتباس أوربا من العربية نحو الميدان العلمي فدخلت إلى اللغات الأوربية كثير من المصطلحات العربية مثل الكحول والاكسير والجبر واللوغريتم، وقد استمد الأسبان ـ حسب « ليفي بروفنسال » ـ معظم أسماء الرياحين والأزهار من العربية، ومن جبال البرانس انتقلت مصطلحات العلوم الطبيعية إلى فرنسا، مثل البرقوق والياسمين والقطن والزعفران، ومجموع مصطلحات الري تقريباً هي كذلك من أصل عربي، كما تحمل الحلي في أسبانيا أسماء عربية ويتجلى نفس التأثير في الهندسة المعمارية، وبالجملة فقد استمدت أسبانيا ـ وبواسطتها أمريكا اللاتينية ـ من اللغة العربية الشيء الكثير من مقوماتها اللغوية ثقافياً واقتصادياً واجتماعيا.

وقد لاحظ عالم إيطالي كبير أن معظم التعابير العربية التي تغلغلت بكيفية مدهشة لم تنتقل عن طريق التوسع الاستعماري، ولكن بفضل إشعاع الإسلام الثقافي.

بل إن الإصلاح الخاص بالكنيسة تأثر إلى حد بعيد بالطابع العربي، فقد اعترف البارون كارادوفو مؤلف «مفكرو الإسلام» وهو مسيحي متحمس، بأن الإسلام علم المسيحية منهاجا في التفكير الفلسفي هو ثمرة عبقرية أبنائه الطبيعية، وأن مفكري الإسلام نظموا لغة الفلسفة الكلامية التي استعملتها المسيحية فاستطاعت بذلك إكمال عقيدتها جوهرا وتعبيراً، وهذه ظاهرة ليست غريبة إذا اعتبرنا ـ مع مؤلف «وجوه الإسلام» ـ «مدى مساهمة الفلسفة الإسلامية في تكوين علم الكلام خلال القرون الوسطى والدور الذي قام به في ذلك كل من ابن سينا وابن رشد وما كان لهما من تأثير على أشهر مفكري المسيحية.

★ ★ ★

وإذا كان قد قدر للعرب أن يقوموا بدور ما في عصر الجاهلية فإنما كان ذلك عن طريق اللغة التي كانت أنصع عنصر في حياة العرب، وقد دعا «فولفنسن» في كتابه «تاريخ اللغات السامية» ـ المشارقة المتكلمين بلغة الضاد إلى درس فقه اللغات السامية للاقتناع بعظمة أجدادهم وبالدور الذي قاموا به في حضارة العالم القديم، ثم أكد أن المستشرقين الذين نددوا بالعروبة وبالإشعاع العربي لم يهدفوا إلا لغايات دينية واستعمارية.

وقد عبر الأستاذ ماسينيون عن نفس الفكرة قائلا: «إن المنهاج العلمي قد انطلق، أول ما انطلق، باللغة العربية ومن خلال العربية في الحضارة الأوربية».

ثم قال: «إن العربية استطاعت بقيمتها الجدلية والنفسية والصوفية أن تضفي سربال الفتوى على التفكير الغربي كما انعشت (ألف ليلة وليلة) في القرن السابع عشر الميلادي ذهنية أوربا التي اتخمتها أساطير الإغريق والرومان».

وإذا كان البرتغاليون الذين عاشوا بالمغرب في القرن السابع عشر الميلادي قد تأثروا هم أنفسهم إلى حد بعيد بلغة الضاد فصاروا يتراسلون ويتخاطبون

بعربية حشواها تعابير مغربية ويكتبونها بالحروف الهجائية، فإن المغرب قد تأثر هو بدوره بما أقحمه هؤلاء في المجتمع من دخيل، ففي الوقت الذي استفحلت القرصنة في سواحل البحر الأبيض المتوسط والمحيط الاطلنطيقي كرد فعل لطرد الأندلسيين من مساقط رؤوسهم في « الفردوس المفقود » اتسع نطاق العامية البحرية (١٠) فبرز في المرافى المغربية وخاصة منها القرصانية مثل « سلا » مزيج من التعابير الأسبانية ولهجة البروفانس - وهي ناحية انضمت إلى فرنسا عام ١٤٨٧ م - والإيطالية بالإضافة إلى العامية العربية ونتف من التعابير المختلفة نقلها الأسرى الأوربيون ضمن علاقاتهم اليومية مع الشعب.

ومن هذه الألفاظ الدخيلة والتي استعملها المؤرخ الزياني في الترجمانة الكبرى أو الترجمان المغرب: صقالة (أي سطح مخصص للمدافع) ومينات (أي ملاغم = أمكنة لبث الألغام) وانطنات (Antennes = أي هوائيات أو أعمدة هوائية) وكرنطينة (أي محجر صحي) وباشادور (أي سفير) وفرتونة (زوبعة وتطلق اليوم كلمة بوفرتونة على حريرة تشمل خليطاً من التوابل والأعشاب) وزمنطوط (قرصنة) وبرشلة (وهو نوع من التسقيف في شكل جبهة الجملون Pignon) وصقلابية لاسقلابية أو شقلابية كما زعم ذلك (Beaussier) في قاموسه العملي العربي - الفرنسي ص ٣٤١ لأن أصلها في نظرنا صقلبية نسبة إلى الموالي الصقالبة بالأندلس والذين كانت تخصص لهم غرفة منعزلة في الدار وما زالت هذه الكلمة مستعملة إلى اليوم بالرباط بنفس المعنى.

وإذا أردنا أن نأخذ مثلاً لهذه المرحلة من التأثيرات الأجنبية في اللسان المغربي فلنستعرض الدخيل في لغة البحارة في ميناء سلا - الرباط (عاصمة المغرب) فبالاضافة إلى ٤٥٦ لفظ عربي يوجد ٢١٧ كلمة أسبانية و٣٠ لاتينية يونانية و ٦ فرنسية و ٦ إيطالية و ٦ أنجليزية وكلمة واحدة برتغالية وعشر كلمات بربرية وعشر تركية وإحدى عشرة كلمة مشكوك في

---

(١٠) « مؤرخو الشرفاء بروفنسال ١٩٢٢ - ص ٨١ ».

مصدرها وذلك من مجموع يبلغ ٧٥٣ لفظة، ونلاحظ هنا قوة تأثير العربية الفصحى بالنسبة إلى موانىء أخرى في المغرب العربي مثل «مستغانم» بالجزائر، ففي الرباط مثلا تسمى (شالوب) Chaloupe بالعشائرية وفي مستغانم يبوطة (من بوتا Bota الأسبانية).

★ ★ ★

تزايد التأثير اللغوي الأسباني في شمال المغرب إبان الحماية الأسبانية (١٩١٢ - ١٩٥٦) بينما تسربت في نفس الفترة مئات الكلمات الفرنسية إلى العامية المغربية بالجنوب شملت جميع مرافق الحياة. أحصينا منها على سبيل المثال لا للتحديد ٣٠ كلمة في السكنى والتعمير و ١١٣ في الأطعمة والملبوسات و ٥٩ في الصحة وما يتصل بها ونحو المائة في خصوص المدرسة والتعليم والرياضة البدنية ومثلها في الشغل والإدارة والقضاء والأمن و ٧٠ في الأدوات المكنية و ٤٥ في التجارة والصناعة و ٢٥ في الأسفار والنقل و ١١ حول الشارع والطريق و ١٢٨ حول السيارة و ٤٧ في الاجتماعات و ٤٥ مصطلحاً في مواضيع مختلفة مثل:

- ديڤلوبمان (تحميض) Developpement /.- فيلاج (قرية) Village /.- وفورما (الشكل) Forme /.- وفريزي (شعر مجعد) Frise /.- وبلوماريين (أزرق بحري) Bleu Marine /.- وشوميني (مدخنة) Cheminée /.- وجيلاتين (هلام) Gelatine /.- ومورديل (طراز) Modèle /.- وروتوش (لمسات) Retouches /.- وتوريست (سياح) Touristes /.- طروطار (فات الأوان) Trop Tard /.-

وبالرغم عن هذا الدخيل الذي طبع خاصة القطاعات التقنية فإن النخبة المغربية من المثقفين ظلت متأرجحة بين التأثير الأوربي والعربي نظراً لتضلع معظمها في الثقافة الأجنبية ولقلة مزدوجي اللغة الذين أصبحوا يشعرون بالمسؤولية العظمى التي يتحملونها في هذه الفترة العصيبة من تاريخ المغرب فصاروا يبذلون قصارى جهودهم لوصل حاضر المغرب بماضيه العربي المجيد

مستعينين بقسم ثالث من رجال الفكر خريجي جامعة القرويين وروافدها الأصلية.

وبالرغم عن استمرار تلقين العلوم والتقنيات باللغة الفرنسية في مختلف الكليات والمعاهد المختصة فقد ظهرت اتجاهات جديدة ادبية وفنية غلبت عليها السمة الأجنبية كلوحات الرسامين وتصميمات المعماريين الذين تلقى معظمهم تدريباتهم بأوربا وأمريكا بينما ظهر على خشبات المسرح ممثلون برزوا خاصة في تشخيص التمثيليات الناطقة باللغة العامية الدارجة لأن استعمالهم لمصطلحات فنية عربية مقتبسة من الشرق أو مترجمة عن الغرب على بعض الأدوار نوعاً من الغموض.

* * *

وقد دخلت في لسان الفنانين مصطلحات جديدة كفن المأثورات (الفولكلور) وفن التطريف (مانيكور ـ بديكور Manicure Pedicure) والفنون التشكيلية (Plastiques Arts) وفن الميمياء (Mimisme) وهو الاحتذاء الآلي بالحركات والمواقف في التمثيل وفنون النقش والتزويق أو الفنون الصناعية التطبيقية. Arts Decoraties ou Industriels ou Appliques.

كما أصبح الأدباء من المخضرمين والمحدثين ينظمون الشعر المنثور ويستعملون ألفاظاً طريفةً اندرجت في المصطلح العصري كالتي تستعمل في «الأدب الملتزم»:

«المذهب الرومانطيقي أو الابتداعي أو العاطفي» Romantisme «والاتباعية أو الكلاسيكية» (Classicisme) و «التجديدية» (Modernisme) و «مذهب الدرائع» (Pragmatisme) و «الرمزية» (Symbolisme) و «الشخصانية» (Personnalisme) و «التصورية» (Conceptualisme) وهي جعل المعاني العامة صوراً عقلية أو أفعالا ذهنية لا مجرد أسماء، و «الانطباعية

أو التأثرية أو الارتسامية » (Impressionnisme) وهي مدرسة أدبية تستعمل في الفن أساليب العلم الإيجابي الهادفة إلى رسم الحقيقة بموضوعية كاملة.

و « التقدمية » (Progressionnisme) و « التكعيبية » (Cubisme) وهي مدرسة بيكاسو Picasso القائلة بإمكان إبراز المظاهر المختلفة لنفس الشيء في آن واحد في شكل رسوم هندسية، و « المادية التاريخية » (مذهب كارل ماركس Karl Marx الهادف إلى تفسير النظم الاجتماعية والأحداث التاريخية بالظواهر الاقتصادية) و « الماسوشية » (Masochisme) وهي الاتجاه الجنسي الباحث عن اللذة في الألم، و « النقطية أو البرقشية » (Pointillisme) وهو اتجاه جديد في فن التصوير يقوم على التعبير بنقط معينة في سطوح بيض.

و « الانتهازية » (Opportunisme) و « الانهزامية » (Defaitisme) و « الوجدانية أو الشعورية » (Sentimentalisme) و « الوجودية » (Existentialisme) وهي فلسفة ترى أن الوجود سابق على الماهية، و « الموضوعية (Objectivisme) وهي منحى فلسفي يرى أن المعرفة إنما ترجع إلى حقيقة غير الذات المدركة، و « الواقعية » (Realisme) وهو مذهب يعتمد على الوقائع والوثائق دون محاولة إضفاء الطابع النظري عليها، و « السريالية أو فوق الواقعية » (Surrealisme).

وتقوم ثلة من الشباب ـ لا سيما في إطار اتحاد كتاب المغرب ـ بدراسات حضارية وفنية وأدبية وشعرية تنشر في دوريات ومجلات مختلفة الاتجاه والمنازع تضرب على أوتار مستجدة في مواضيع إنسانية تحاول شحنها بطاقات فياضة من الفكر الحديث بمصطلحات تتجاوب مع مقتضيات عصر الذرة، وتتواكب مع روح التجديد التي تتزعمها مجلة « اللسان العربي » لسان المكتب الدائم لتنسيق التعريب في العالم العربي.

بين الفصحى والعامية

إن أغلب الأصول والقواعد الأساسية مشتركة بين الفصحى والعامية المغربية حتى ما يتصل بالقلب والإبدال والتسهيل والترخيم والنحت وغير ذلك، وتمتاز العامية بمظاهر بسيطة تجعلها في بعض الأحايين أكثر إيغالاً في القلب والتسهيل، والعامية هي ما يسميه الجاحظ بلغة المولدين والبلديين (البيان والتبيين ج ١ ص ١١١)، وقد لاحظ أن في كل مدينة ألسنة ذلقة غير أن اللحن كان فاشيا في العلوم.

ونضرب لهذه الوحدة الأصيلة أمثلة وجيزة لا تنفرد بها العامية في المغرب الأقصى وحده بل تمس اللهجات الدارجة في معظم أجزاء العالم العربي.

وتوجد في مجمع اللغة العربية بالقاهرة «لجنة اللهجات» من أهدافها استقراء الألفاظ والتراكيب الجارية على ألسنة أهل الأقطار العربية من الناحية الصوتية ومن ناحية المعنى وتدوين هذا في معاجم وأطالس لغوية وقد اتخذت اللجنة لهجة القاهرة مقياساً وترتكز اللجنة في هذا البحث على تنقل القبائل لما له من أثر كبير في لهجات الأقاليم وتطورها واختلافها (مجلة المجمع جزء ٧).

من مجالي التخفيف في اللسان الفصيح والتي أثرت في ألسنة العامة وجود مترادفات يختلف بعضها عن بعض بإضافة حرف واحد وقد اختار الدهماء لتخاطبهم اليومي أخفها نطقاً وإن كان أكثرها أحرفاً مما يؤكد أن عقلية العامة لا تنحرف عادة عن الأصيل إلا إذا لم تجد في صيغة ما يتفق وطبيعتها الميالة إلى التسهيل:

أمثلة: رز (أرز) ـ سبل (سنبل) (سبولة في العامية) ـ سطل وسيطل (سطل) ـ قحوان وأقحوان (قحوان) ـ لوباء ولوبياء (لوبيا) ـ مونة ومؤونة (مونة) ـ وَرّ إوَرّ (وز) ـ دغر ودغمر أي خلط (دغمر) ـ طلمس وطمس الكتابة بمعنى محاها (استعملت العامة الكلمتين: طمس بمعنى محى وطلمس بمعنى أخفى (الطلامس أي الطلاسم). ـ فطحه وفرطحه أي جعله عريضاً (فطح وفرطح) ـ قصم وقصمل أي قطع (قصم) ـ هدم ودهدم (هدم).

وهناك مترادفات يختلف ترتيب حروفها مثل جبذ وجذب (جبذ) وخربش وخرشب العمل أي لم يتقنه (خربش) وخشخش شخشخ وجهه أي جلب له العار وشخشخ السلاح صوت ـ دعس وعدس (داس) وتطلق العامة لفظتي دحس (بالحاء بدل العين) وداس على مدلولين متقاربين. ـ دعم وعمد (عمد) ـ ادغم وأدمغ (ادغم) ـ تسكع وتكسع (تسكع) ـ فطس وطفس أي مات (طفس) ـ لطخ وطلخ (لطخ) ـ يئس وأيس. وقد تستعمل العامة الكلمتين مثل: كف وكفكف ـ كب وكبكب ـ هزوهزهز ـ ذَرَّ وذَرْذَر.

أما النحت فأمثلته كثيرة منها:

وَيْلُمّه وهي منحوتة من أصلها (ويل لأمه) = صبّحه أي قال له صباح الخير = مسّاه: قال له مساء الخير = تويّل: قال يا ويلي = فسّقه: قال له يا فاسق = ماشا الله: (ماشاءَ الله) ـ ما طيبو (ما أطيبو؛ ما أطيبه) محلاه (ما أحلاه) إلخ...

ومن أمثلة الإتباع أو الإبدال بنفس المعنى:

العجر والبجر ـ حيص بيص[11] هين لين (سهل) ـ هش بش (مسرور) ـ الكوع والبوع (كعو وبعو) ـ الجوع والنوع ـ شيطان ليطان ـ حسن بسن.

(١١) أفرد أبو البركات الأنباري كتاباً خاصاً لحيص بيص وقد توفي عام ٥٧٧ هـ.

وهناك مئات الكلماتِ تحكي الأصوات أو الحركات وتتحد فيها اللهجتان نذكر منها ما يلي:

زرزور - صفصاف - ريح - رعد - قبقاب - ناقوس - طبل - نبح الكلب - قاقت الدجاجة - طن أودن الذباب - وع الطفل الباكي - طنين الناقوس - خرير الماء - تفل - لحس - نفخ - بح - قحب - وأح - عطس - بخ - صاح - زعق - ناح - زمر - قطع - شق - دق - تختخ - تمتم - جمجم - غمغم - بعبع - بَقْبَق - فرفر - وسوس - همهم - نحنح - خنخن (تكلم من أنفه) - قهقهه - قرقر - صرصر - ولول - وحوح - دقدق - وعوع - غرغر - طلطل - هرهر - زعزع - حثحث - ضعضع - شقشق - وقوق - زقزق - زرزر - طقطق - رشرش - رعرع - طنطن - تكتك[١٢].

أما الصيغ فكثيراً ما تتخذ نفس الوزن في العامية والفصحى للتدليل على نفس المدركات كالمبالغة والتفضيل والبقية والسقاطة والتظاهر والتشبيه أو التشبه والوصف مثل كنز (مكنوز) وعلاج (دواء) ووقف (موقوف) وغصيب (مغصوب) ونكسه (نجسه أي كثير النجس) وشتامه (كثير الشتم) وهيابة ومصلحة (أي صلاح) ومطهرة ومفسدة وحثالة وتفالة (أي بقية الثفل) وقمامة ونخالة ونشارة ونجارة وأحمق (أكثر حمقاً)(وأخوف وأطيب وأسلم وأخوأ وأعجب وأعرف، وجهد جاهد (أي شديد) وصيف صائف وهول هائل وعيشة راضية، ومكان عامر (أي معمور) وخبر كاذب (أي مكذوب) ويمين فاجرة (أي مفجور فيها) وتفاقر (أظهر الفقر) وتباكى وتحامق وتجاهل وتماوت وتناعس وتشيطن وتفحل وتفرعن وتفرنج وتمدن وتوحش، وبخل وجهل وسفه وضعف وفسق وغلط وكفر، وأحمق (أي موصوف بالحمق) وأبله وأعمى. وكنز ومكنوز - (ذكره ابن سيده في المخصص في مادة كنز).

(١٢) راجع غرائب اللغة العربية لرفاييل نخلة «ص ٤٤» وبحثنا حول تفصيح العاميات في العالم العربي «مجلة اللسان العربي» ج ١.

ويجمع المذكر في اللسانين بإضافة تاء مربوطة إلى المفرد مثل: حمارة (أصحاب الحمير) وخيالة ورحالة وعسالة (أصحاب العسل) وتشترك الفصحى والعامية في الاشتقاق المنطقي من ألفاظ ذات معنى حسي مجرد كالحمام من حم الماء أي سخنه ومخدة من الخد والسماء من سما أي ارتفع والسمن من السمن والشباك من شبك والغمام من الغم أي التغطية والجارية أي التي تجري في خدمة سيدها والجمعة أي يوم الإجتماع في الجوامع وحرم الرجل أي نساؤه (من تحرم المرأة على غير زوجها) والصُداع أي وجع الرأس من صدعه أي شقه والغلة الدخل من كراء بيت أو فائدة أرض من غل المكان إذا دخله.

* * *

ويكاد ينعدم في العامية التغليب بالمثنى (مثل القمرين والخافقين والعشائين والأصغرين والأسودين، واستعمال صيغة فعّال المبني على الكسر (للدلالة على الأفعال والأسماء) أو المصدر نعتاً أو معظم صيغ المبالغة (مفعيل وفعلة وفعيل) أو مفعلة للكثرة أو المكان أو أفعل للتعظيم أو التصغير (أعنق أي طويل العنق وأعين وأورك أي عظيم الورك) وأخفش (صغير العينين) أو أفعل للدخول (أتهم واشأم وأغلس وأنجد).

ومما امتازت به الفصحى أيضاً أفعال السلوب الدالة على الزوال مثل أعتب أي أزال العتاب وأشكى إذا أزال الشكوى وزيغ أي أزال الزيغ والميلان (زيغ بالعامية أثار الزيغ) وتأثم وتحرج وتحنث وكذلك زيادة الميم للمبالغة كزرقم أي شديد الزرقة.

ويجب أن يعيد التاريخ نفسه في تفصيح[١٣] العاميات العربية وتوحيدها فقد تعددت اللهجات في الجاهلية بتعدد القبائل الكبرى وخفت أوجه

---

(١٣) تحدث أحمد أمين عن العامية في القرن الرابع فقال: «إن اللغة العامية أصبح معترفا بها يبحث في ألفاظها وأساليبها وينتقى منها خيرها إلا بعض علماء كأبي العلاء المعري...» (ظهر الاسلام ٢ ج ١٠٠).

الاختلاف بما استوثق إذ ذاك من صلات في الأسواق الإقليمية والمبادلات التجارية والمصاهرات.

وقد لعبت قريش دوراً هاماً في انتقاء أجود اللغات، فنسقت واجتبت أفضل لغات العرب حتى صارت لغتها أفضل لغاتهم (لسان العرب) فنزل القرآن بها وازدادت مظاهر الوحدة تحت راية الإسلام بالرغم عن الفوارق القبلية البسيطة التي ساندتها أحرف القرآن السبعة وقد احتفظت ألسنة جهوية بميزات خاصة «من حيث التصريف والإبدال وأوجه، الإعراب والبناء» (متن اللغة، ج ١ ص ٤٧).

توجد صيغ عربية كثيرة انفردت بعض الأقاليم العربية باستعمالها، مثل مصدر فعل المضعف على وزن فعال مثلاً حمل تحمالا بدل تحميلاً في المغرب واليمن قال الكسائي: (أهل اليمن يجعلون مصدر فعل فعالا وغيرهم من العرب يجعلونه تفعيلاً) والعامية المغربية تزيد الكاف أو التاء فتقول تياكل كما تزيد العامية المصرية الحاء فتقول حاياكل (أي رايح ياكل ولعل الحرفين الزائدين وهما التاء والكاف في العامية المغربية من أدوات الخطاب وهما أنت وأنك كأننا نستشهد المستمع على ما يفعل الشخص المتحدث عنه فنقول: أنت تراه يأكل وأنت تراك تأكل وإنك تراه يأكل وإنك تراك تأكل فاختصر الخطاب في الحرفين الأخيرين، وتزيد العامة احياناً الغين فتقول غايكل ولعل أصلها راء (راياكل) أي راء يأكل بعض أراه أو يراه يأكل.

فقريش مثلاً تفتح نون المضارعة وأسد تكسرها، والحجازيون يثبتون ما النافية وتميم تهملها أما الاختلاف في الأسماء فلا يكاد يظهر إلا في لغة حمير التي ظلت محتفظة بكثير من مفرداتها (المدية الحميرية بدل السكين مثلاً).

ويتجلى الاختلاف بين لهجات العرب في مظاهر مختلفة كالإظهار والإدغام والإشمام والتفخيم والترقيق والمد والقصر والإمالة والفتح والتسهيل والإبدال وهو اختلاف في الصور الظاهرة لمخارج الحروف مع وحدة اللفظ وقد عرف العرب منها قديماً العنعنة عند تميم وقيس (إبدال الهمزة عينا)

والكشكشة والكسكسة عند ربيعة (إبدال كاف الخطاب شينا) والغمغمة عند قضاعة، (وهي إخفاء بعض الحروف) والفحفحة عند هذيل (إبدال الحاء عينا مثل حتى وعتى) واللخلخانية في عمان واليمن (وهي حذف ألف ما شاء الله) (مشالله) والتلتلة في بهراء وهي كسُرتاء المضارعة (تلعب) والوتم عند أهل اليمن (قلب السين المتطرفة تاء كالنات في الناس) والوكم والوهم عند ربيعة وكلب (كسر كاف الخطاب) وهاء الضمير (عليكم عنهم) والاستنطاء في لغة سعد بن بكر وهذيل والأزد وقيس والأنصار وهي قلب العين الساكنة قبل الطاء نونا (أنطى - أعطى) ومازالت مظاهر ذلك إلى الآن عند الأعراب.

وقد لاحظ الأستاذ فريد أبو حديد (مجلة مجمع اللغة العربية ج ٧ ص ٢٠٥) أن حركة الكسر تكاد تكون شائعة في كثير من الدول العربية مثال ذلك كسر آخر الاسم المضاف إلى ضمير المؤنثة المخاطبة فيقولون في الشرق أنت مالِك (يقول المغاربة ما لك بفتح اللام) وهي لهجةلحم التي تكسر ما قبل كاف المخاطبة.

والمشترك نفسه يرجع لتعدد الألفاظ للمدلول الواحد بين القبائل كما أن في اللغة الموحدة نفسها إختلافاً في الأبنية من لغتين إلى ثلاث عشرة لغة (عباءة - عباية إلخ).

وقد أُرجعَت أصول الكلمات الواردة في القرآن إلى خمسين لهجة من لهجات القبائل علاوة على وجود كلمات معربة.

وظهر الانحراف في الحركات الإعرابية منذ صدر الإسلام فسار العوام في منهجهم المنحرف واستفحل هذا الزيغ اللغوي باختلاط العرب بالأعاجم بعد الفتوح فهب علماء اللغة لتقويم العامية وإرجاعها إلى أصالتها الفصحى، وتجلى هذا المجهود في «أدب الكاتب» لابن قتيبة «ودرة الغواص» للحريري فخف البون بين الفصحى والعامية إذا روعيت شساعته في اللغات الراقية اليوم، وبقيت العامية في جميع مظاهرها لغة عربية محرفة غير مضبوطة

القواعد، غير أن العامية احتفظت أحياناً بألفاظ عريقة إستعملها العرب وأهملها المحدثون.

وقد راعت العامة مقتضيات التطور أكثر مما فعل اللغويّون الذين جمد الكثير منهم وراء قواعد راسخة لا تنفعل للتيارات الحضارية المتجددة، وقد حاول عرب الجاهلية تطوير اللغة استجابة لهذا الناموس وساعدهم على ذلك كون العربية كانت لغة منطوقة لا مقروءة وسارت العامة على نهجهم فاحتفظت ببعض الخواص الحية وعملت على تنميتها بما يتفق ولوازم التجديد ضمانا لاطِّراد الحياة، وقد اضطر بعض الشعراء أنفسهم كالفرزدق إلى مسايرة هذا الاتجاه عندما استعمل أل بمعنى اسم موصول اليعمل واليضرب بمعنى الذي يعمل والذي يضرب وهي شائعة في العامية وخاصة منها المغربية.

* * *

ولقد كان لكثير من القبائل العربية التي دخلت المغرب لهجات محرفة عن لهجة قريش التي نزل بها القرآن، ولكن تطورها اللغوي لم يخرج عن النطاق العادي في تبادل التأثير بين الفصيح والعامي لأن المغرب ظل بعيداً عن التأثيرات الفارسية والرومية والتركية، وعاش في إطار مقفل طوال قرون تمكن خلالها من الحفاظ على كثير من معطياته اللغوية، فكان الخلاف أقل بين الفصيح والعامي، ويتجلى ذلك في المصطلحات المستعملة في كثير من مرافق الحياة.

ولعل أبرز مظهر لعراقة المحتد العربي في قبيلة أو إقليم يتجلى في صفاء لسانها وقد ارتكز ابن خلدون - لتحقيق الأرومة - على عنصرين هما: الموطن والعحمة (التاريخ ج ٦ ص ٩٦) وإن كان الموقع الجغرافي لا يمثل في نظرنا عاملا جوهريا لإمكانية الهجرة في فترات سالفة، ومن الأمثلة التي يمكن الارتكاز عليها ما أكده مؤرخون مغاربة كاليفرني في نزهة الحادي[١٤] من

---

(١٤) مقطفات هودا س ص ٣٢٩ «الأعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام» للاستاذ عباس بن إبراهيم (ج ٢ ص ٨٦) حيث نسب زعيراً إلى عرب السوس.

نسبة زعير إلى عرب معقل، حيث انتقلوا عبر الأطلسين الأكبر والأوسط وقد أشار الحسين بن محمد الوزان (ليون الأفريقي) إلى وجودهم قرب خنيفرة في القرن العاشر الهجري، وقد تحدث ابن خلدون عن قبيلة معقلية تنسب إلى سحير ملاحظا (التاريخ ج٦ ص٦٠) أن لجد معقل ولدين أحدُهما سحير والد عبيد الله الذي انتشرت سلالته من تلمسان ووجدة الى مصب ملوية ثم توارت إلى كورارة فالسودان، وتحليل المادة والشكل في لهجة زعير. التي احتفظت طوال القرون بفحواها الأصيل يؤكد عروبتها.

ومن الصعب أن نميز بعد التفاعل اللغوي الناتج عن ارتباط الأقاليم بين ما جَد وما تلُد في هذه اللهجة، غير أننا إذا قارنا بين المصطلحات المستعملة في هذه القبيلة والتي تتبع المستعرب الفرنسي لوبينياك Loubignac عام ١٩١٦ الكثير منها في كتابه «نصوص عربية في زعير» (طبعة باريس ١٩٥١) لمسنا مدى الصفاء الملحوظ في الكثير من الكلمات التي درجت على ألسنة العامة من أهل زعير، مما لا نجد له مثيلا إلا عند القبائل الاخرى التي لا يتطرق الشك إلى عروبتها كالشاوية، وقد أشار كثير ممن درسوا أنساب القصائل السلالية المغربية؛ أن القبائل الرحالة في سهول المغرب الغربية، أقاليم «عبدة» و«دكالة» و«الشاوية»، وشرقا بالحدود الجزائرية؛ ما زالت تحتفظ بعروبتها الأصيلة التي طبعتها منذ الفتوح الأولى، وقد أثر ذلك حتى في العنصر البربري حيث لوحظ أن عامية «القبائلية» بالجزائر تشتمل على نحو ثلث الألفاظ العربية (حضارة العرب ـ كوستاف لوبون ـ الطبعة الفرنسية ص٢٥٠.

ولا يخفى ما تتسم به لهجات الأندلس وأفريقيا الشمالية من صفاء رغم عدم تقيدها بالهندام الشكلي للفظ.

تحدث كرد علي عن «عجائب اللهجات» (مجلة مجمع اللغة العربية ج٧ ص١٢٨ سنة ١٩٥٣) فقال: «لعل الدخيل كان نادرا في أرض الأندلس لأن الأمويين توخوا الوحدة في كل شيء»، إلى أن قال: «وكانت اللهجة الاندلسية من أجمل اللهجات نقلها أهلها بعد الجلاء إلى البلاد التي نزلوها:

مراكش والجزائر وتونس ومصر والشام، ولعلها كانت لقربها من الفصحى أشبه بلهجات اليمن والحجاز، والأندلس استعملت ألفاظاً فصيحة ما استعملها العراق ومصر والشام».

وقد لاحظ فليش FLEICH في «المدخل لدراسة اللغات السامية» (ص ١٠١) أن لهجة المثقفين العامية تقتبس من الفصحى المفردات اللغوية بكيفية خاصة، ويعني بذلك أنها لا تتقيد كثيراً بالأوزان والصيغ والأشكال.

ورغم الألفاظ البربرية التي تسربت إلى الأقاليم العربية نفسها، على أن الكثير من الكلمات التي يزعم بعض اللغويين رطانتها يتضح أصلها العربي بعد التحليل، فقد نشرت مثلاً مجلة مجمع اللغة العربية (ج ٨ ص ٣٢٦ عام ١٩٥٥) بحثا للأستاذ شارل كونتز خبير لجنة اللهجات حول أثر اللغة العربية في عربية المغرب أورد فيه نماذج من الصيغ والكلمات الدخيلة التي ترجع إلى أصل بربري، وقد وفق الأستاذ في طائفة من الكلمات، ولكنه لم يتحر في مقارنة الأصل العربي المحتمل لطائفة أخرى مثل:

(١) أملوس (الوحل) الذي تمكن مقارنته باللفظ العربي (الملس) وخاصة (الملص) بمعنى الزلق إذ أعظم خاصية في الوحل أنه مدعاة للزلق.

(٢) داليس (الخيزران) Bambou تقارن بالدلس وهو نبت يورق آخر الصيف، ومعروف أن الخيزران لا يترعرع إلا في الحرارة، وفيه عشرات الأنواع.

(٣) المازوزي (الأخير من النتاج) ويظهر أنه مشتق من مزز الفصحى حيث يقال فعلته على مزز، أي على مهل فالمازوزي يأتي متأخراً كأنه يتمهل في انبثاقه.

(٤) قطوس (قط). من مميزات العامية سواء في المغرب أو بعض الأقطار العربية كسوريا ولبنان نقل بعض الصيغ من فعل أو فعلل أو أفعل إلى فعلول مثل حمق وحمقوق أو حموق، وبط (كالبطة في السمن) وبطبوط

وخنفر أو مخنفر وخنفور، فيمكن القول إذن بأن قط العربية أعطت قطوس العامية.

(٥) أقراب وهو الخرج أو الجراب من القراب (لأن أداة التعريف بالبربرية هي الهمزة للمذكر والتاء المتصدرة أي في أول الكلمة والمتسكعة أي في آخرها.

(٦) ساط بمعنى نفخ ولعلها من ساط الفحم أي خلط بعضه ببعض ليتقد كله إذا كانت النار لم تمس سوى جانب دون آخر والبادية تستعمل الكثير من ذلك كالمسوط للتحريك والنفخ وقد ورد في المعجم الوسيط أن «المسجر هو الخشبة التي تسوط بها الوقود في التنور».

(٧) كفس بمعنى لطخ بسواد أو فضح أصلها كفس أي أعوج، والتكفاش بالعامية الاعوجاج إلخ..

* * *

وقد عمدنا دعما لعروبة زعير من الوجهة اللغوية إلى تتبع مدلول اللفظ في المعاجم العربية القديمة وفي الاستعمال العامي فحررنا لائحة مطولة لهذه الكلمات استخلصناها من معجمنا الكبير الموسوم «الأصول العربية للعامية المغربية» وها كم بعض هذه النماذج مرتبة حسب الحروف الهجائية:

أهلا بك: مرحباً بك ـ كثير من القبائل المغربية وخاصة زعير تقول واهلا بك.

أول أمس: البارحة الأولى ـ غالب الحواضر بالمغرب تقول ولبارح أي أول البارح، وأهل البوادي يقولون أول نامس أو ونامس وخاصة زعير.

(ويقولون في مصر إمبارح باستبدال أم من أل على لغة حمير).

بك الشيء خرقه وفسخه ـ يقول عامة زعير: بك الثوب خرقه، ويستعمله أهل عبدة في الجنوب الغربي للمغرب بمعنى ثقب الإناء فهو مبكوك أي مثقوب.

أبلق : فرس أبلق أي في لونه سواد وبياض، وهو مستعمل بهذا المعنى في قبائل المغرب وخاصة في زعير بأرباض عاصمة الرباط.

تجاوز.عفى - يقال داوز (زعير) ودوز في بعض الحواضر كالرباط.

الجرزة: الحزمة- حزمة من العشب أو الأوراق في زعير (أولاد علي)؛ وتقلب إلى جرجة عند أولاد سعيد.

المجبنة: مكان صنع الجبن - يستعمل بهذا المعنى في المغرب ويطلق خاصة في زعير على معدة الأرنب المُعدَّة للتجبين كما يطلقه أهل الشام على كرش الجدي الذي يجمد به اللبن جبنا.

الجابية والخابية: الحوض - وتطلقه البادية المغربية وخاصة زعير على الحوض الذي يُجْبَى فيه الماء للابل.

الجرو: ولد الكلب، (الجرو في معظم البوادي المغربية).

جفل البعير: نفر (جفل في البادية وبعض الحواضر.).

جلل الفرس: ألبسه الجُل وهو للدابة كالثوب للإنسان - جلل الفرس في زعير معناه غطى ظهره ، ويسمى الجل بالجلال.

الجليد: ما يجمد على الأرض من الماء - الجليد (زعير).

جم الماء: اجتمع بكثرة - جم الماء في زعير معناه نبع.

والجماعة: الأرض المتروكة ومعنى الترك لفائدة ملحوظ في مادة جم.

ومنها جم الفرس ترك ولم يركب. وأجم الماء تركه يجتمع، وأجم البئر تركها حتى تمتلى ماء.

جن الرجل: أصيب في عقله - تَجَن في زعير وتجنَّن في الحواضر وبعض البوادي.

جهز: جهز بنته لزفافها - جهج في زعير ومنه الجهاج، أي الجهاز. ويقال

في الشاوية: دهز، وتستعمل عامة أهل الرباط (جهز) الفصيحة وتقلب الجيم الى قاف معقوفة (كهز).

الحبارَى: طائر أكبر من الدجاج الأهلي وأطول عنقاً (الحبار زعير).

حرن البغل: لم ينقد فهو حرون ـ (حران في لهجة زعير وغيرها من القبائل المغربية وحتى في بعض الحواضر).

تحفز: تجمع وتهيأ للوثوب ـ محفوز عند عامة أهل زعير معناه: متحفز في حين أن عامة المدن يستعملون اللفظ بمعنى محفوظ ومصون.

الحصحاص: التراب، والحصحص: الحجارة ـ (حصحاصة عند زعير أرض حجرية).

حمس اللحم: قلاه ـ والحميسة لغة القلية ـ وعند عامة زعير حمس: طبخ اللّحم، ومنه الحميسة أي لحم مطبوخ بمرق ـ وكذا في الشاوية العربية الأصل حيث تسمى قدر الطبخ بالحماس.

الحَسىْ: السهل من الأرض يستنقع فيه الماء ـ (حاسي في لهجة زعير معناه ثغرة ماء في مسيل الوادي وهو مصطلح مشهور في المغرب العربي ومنه «حاسَى بيضاء».

الحوة: سواد إلى خضرة أو حمرة إلى سواد ، لغة، والوصف أحوى ـ وفي زعير سواد إلى بياض بخصوص الضأن والمعز (أحوى).

الحُوار: ولد الناقة قبل أن يفصل عنها (الحوار في زعير).

الحَيقطان أو الدراج: (الحيقون عند زعير هو ذكر الحجل).

أخباري: مدون أخبار (في زعير خبايري).

ختل الصياد: مشى قليلاً قليلا لئلا يحس الصيد به ـ ختل في زعير وتختل في الشاوية.

خفق خفقانا: اضطرب ـ (خفق في زعير).

الدير: من كل شيء مؤخره وعقبه ـ (الدّيْبُور في لهجة زعير).

دكم: دق ودكمه في صدره دفعه ـ ودكم فاه أو أنفه كسره (قارن هذا اللفظ مع دلقم التي لها نفس المدلول في العامية) ـ والدّكّوم في لهجة زعير: مطرقة الحداد.

أدلج: سار ليلا، ودلج في لهجة زعير: مشى وهو يتعثر كمشية الطفل أو الحيوان الصغير وهي مقتبسة مجازاً لأن السير ليلا مظنة التعثر.

دلح: مشى بحمله منقبض الخطو لثقله عليه ـ وفي لهجة زعير، مشى تائها دون هدف وهي مستعملة أيضاً في ناحية مراكش وقبيلة «بزو».

دلح: فرس دلح يختال بصاحبه ولا يتبعه ـ ومدلوح في لهجة زعير مشى وهو يختال.

دنّر الوجه: أشرق وتلألأ كالدينار، والدينار في لهجة زعير غرة بيضاء.

أدغم الله فلانا: سود وجهه إدغاماً وإدغيماما ـ (الدغمومي في لهجة زعير هو الأسود).

دغر الرجل: لؤم وساء خلقه ـ (المدغار هو الحمار أو البغل اللئيم سيء الخلق)، وكثيراً ما تستعمل وصفاً فيقال: حمار مدغار، وفي بعض الحواضر يقال، حمار مدبار بالباء بدل العين أو داغور بمعنى بليد كالحمار.

دهس المكان: كان سهلاً لا يبلغ أن يكون رملاً وليس بتراب ولا طين فهو أدهس ـ والدهس في لهجة زعير تراب لا طيني ولا رملي.

رخل ورخلة: الأنثى من أولاد الضأن ـ (رخلة في زعير).

الرف: الثوب الناعم ـ الرفافة في زعير ثوب تصنع منه حواشي الخيمة.

الرسن: الحبل يجعل في رأس الدابة ـ (الرسن عند زعير).

رشقه بالسهم: رماه (رشق في زعير).

الأرقط: أسود مشوب بنقط بيض أو أبيض مشوب بنقط سوداء ـ أرقط في زعير ومزرقط في بعض البوادي والحواضر مثل الرباط.

زفن: رقص، والزفان الرقاص ـ ويطلق في زعير والشاوية على الراقص والمغني والعازف.

السرية: القطيع والجماعة من الظباء والخيل ـ ومعناها في زعير عصابة من الخيالة خاصة، وفي الشاوية جماعة من الخيل.

سخا النار: سهل اتقادها، وسخا القدر سهل اتقاد النار تحتها ـ والسخية في الشاوية وزعير الرماد الساخن الملفوف في خرقة للتسخين والعلاج.

سفط: كان طيب النفس، والسفط وعاء يعبأ فيه الطيّب وسِفط في لهجة زعير اشترى الطيب ومنه تزوج.

المسند: ما يسند إليه كالمخدّة ـ (المسند بهذا المعنى عند زعير).

السهب: الوادي، الفلاة ـ (الشاوية وزعير).

السير: القدة المستطيلة من الجلد (السير).

الشرابة عند المولدين: ضمة من خيوط يعلق طرفها الواحد بالطربوش وغيره. ويتدلى الآخر، وتستعمل بهذا المعنى في بعض أنحاء المغرب، أما في زعير فإنها تعني ثوباً يغطي الرأس ويتدلى على الظهر وهي النواسة ومنها اسم أبي نواس (وتعرف بهذا المعنى في المغرب الشرقي).

الشربة: الوادي ـ والشرابة طرف من الوادي لا مخرج له (زعير).

الأشخم: الأبيض ـ فرس أشخم إذا كان له لون أبيض مشوب بسواد (زعير) ـ وصوفة شخمة وشاة شخمة (الشاوية).

شنفر: أخرج شفتيه غضبا ومنه الشنفري ـ يقال: شنفارة في زعير والشاوية.

شهل: كان في عينيه شهلة وهي أن يشوب سواد العين زرقة ـ وشهل في زعير ابيض وشاب.

الصرم: الجلد وهو معرب فارسي، والصرم الخف المنعل ـ أما في زعير

فإن الصرم والصارمة عبارة عن تطعيم وترخيم بسيور الجلد، والصارمة عند أهل الشاوية معناهاالشكارة وهي كيس كبير من جلد للنقود.

الصفاق: الجلد الأسفل الذي يمسك البطن Periteine ويسمى الصفاقة في زعير والصفاق في بقية المغرب.

الصمام: سداد القارورة ـ الصمامة في زعير قطعة ثوب لتصفية الماء، والأصل في تسمية المصفاة بالصمام أن قارورة العطر في المغرب تسد بمصفاة من النسيج الأبيض الرقيق.

الضنء: الأولاد لا واحد له ـ الضنايا في زعير، والمغرب عامة، معناها: السلالة والعقب.

الطبة: القطعة المستطيلة من الثوب وتدل الطُّبة (بضم الطاء) في زعير على القطعة التي توضع على الثوب.

أطرقت الإبل: تبع بعضها بعضاً، وأطرق الرجل تزوج ـ وطرق عند زعير وكثير من البوادي بحث عن الأنثى.

طرحت الأنثى: ألقت الجنين قبل كماله، والطرح الجنين السقط ـ وطرح وضع السقط (زعير)، وتستعمل اللفظة في الشاوية لطرح الحيوانات.

الطنب: حبل يشد به سرادق البيت ـ الطنب (زعير).

عرّش البيت: رفع سقفه، وعرش الكرم، رفع دواليه، وعرش الطائر إرتفع، ويقال في زعير: عرش إذا أقام الخيمة أو ارتفع، ويستعمل اللفظ حتى في الحواضر بمعنى ارتفع. عرش فلان أي انتصب وارتفع رأسه ـ ومنه العريش ويكاد يكون شائعاً في المغرب.

عرقوب: عصب غليظ فوق العصب، أو طريق في الجبل ـ العرقوب (بالقاف المعقوفة) عصب كذلك أو طريق ضيقة في متون الجبل «زعير».

عرمرم: جيش عرمرم كثيف ـ جيش رمروم «زعير».

العذار: ما سال من اللجام على خد الفرس ـ العذار (زعير).

العروة: المقبصة ـ العروة (البادية).

العجيف: المهزول ـ العاجف (زعير).

عصم الرجل زوجته: رعاها وحفظها ـ عصم (زعير).

العكة: زقيق للسمن أصغر من القربة ـ والعكة في زعير قربة صغيرة من جلد الشاة للعسل.

عكرم الليل: سواده ـ وعَكْرَم سرق في الليل (زعير).

عِكاس البعير: حبل يشد به في خطمه أي رأس أنفه إلى رسغ يده ليذل ـ والعكاس في زعير حبل يشد به قرن البقر أو الثور لتذليله، ومنه عكس البعير فهو معكوس، وتقول العامة في المغرب تعكس الرجل فهو عُكسي أي استعصى كالبعير الذي يحتاج إلى عكاس لتذليله.

العقبة: ما يعقب بعد الطعام من حلاوة ـ العُقْبِية (القاف المعقوفة) ما يؤكل من الطعام البسيط في العشي (البادية وخاصة زعير).

عناق: أنثى من أولاد المعز، وعناق الأرض حيوان من فصيلة السنور جارح له خصلة من الشعر الأسود (يقول أهل زعير إن خصلة شعر العناق حمراء).

العواق: الصوت يخرج من بطن الدابة إذا مشت؛ وهي التعويقة (بالقاف المعقوفة) في البادية وتطلق اليوم حتى على الصوت الخارج من بطن القاطرات ونحوها في البادية والحاضرة.

الغارب: غارب الفرس كاهله أو ما بين الظهر والسنام ـ الغارب (زعير).

الغار والمغارة: الكهف ـ المغارة (زعير).

غاط الحفرة غوطا: حفرها، والغوط كذلك المطمئن الواسع من الأرض، ومنها غوطة دمشق ـ الغوط حفرة وخليج (زعير).

غرنيق، وغرنوق: جمعه غرانيق ـ غرنوق (زعير).

الأغر: الأبيض من كل شيء - لون أغر صاف غير مشوب (زعير).

غدير: قطعة من الماء يتركها السيل - غدير، وغدرة (زعير).

غشى الفرس غشا: كان أغشى أي أشقر، لأن الغشوة بياض الرأس دون الجسد، الغشوة (زعير).

غضف العيش: كان ناعماً - عيش أغضف ناعم (زعير).

غل غلولا: خان - الغلول: الخيانة (زعير).

الغفر، والغفار: شعر كالزغب يكون على العنق واللحيين، والغفار، ونحوها - الغفر والغوفارة شعر أشعت (زعير)، ويقال غوفالة في بعض الحواضر مثل الرباط.

أفج: سلك الفجاج - فج عند زعير سلك الفج وهو الطريق الواسع.

فص الجرح فصيصاً: سال بما فيه - فص الجرح انفتح (زعير).

الفل: الثلمة (زعير).

الفليجة: شقة من شقق الخباء. الفليجة (زعير).

فنّن وفنّ النبات إذا برعم، من الفنن: وهو الغصن، فنن (زعير).

الفهة: الغفلة فها العقل غاب (زعير) فاه فهو فايه (الرباط).

القبعة: طائر صغير Alouette قبع أو قوبع طائر يكون في الحقول (زعير).

القبس: شعلة النار - القبس (زعير).

قتب البعير: رَحْله - القتب (زعير).

قرس الماء: جمد من البرد، ومنه برد قارس - قرس (زعير وكثير من الحواضر والبوادي).

القراد: دويبة تعلق بالبعير وهي كالقمل للإنسان، القراد (زعير).

* * *

حاولنا في معجمنا المذكور مقارنة [١٥] بعض الألفاظ العامية في المغرب ومصر والشام والخليج العربي [١٦] ويتجلى من موازنة كثير من هذه الألفاظ مع مرادفها في المعاجم أنها دخلت أولاً إلى اللغة الفصحى ومنها تسربت إلى اللهجتين بسوريا ولبنان مثلا وكذلك بالمغرب وإلا فيصعب تعليل وجودها في العامية المغربية التي لم تتأثر البتة باللهجة السريانية.

وإذا اعتبرنا الاتصال الوثيق الذي تم بين أهل الشام وأهل المغرب في الأندلس خلال الحكم الأموي خاصة ثم في الفترات التالية أمكننا أن نتساءل: هل هناك ألفاظ عامية مشتركة قدر لها أن تتقارب منذ تلك العصور؟ وقد تتعزز هذه النظرية بتساوق كثير من العادات والتقاليد في المغرب والشام لا يكفي في بلورتها ما كان البلدان يتبادلانه من علماء وتجار.

ولا ننسى أن الشام وخاصة لبنان وهو منبثق اللغة البونيقية أو البونية التي أثرت على البربرية المغربية منذ نحو ثلاثة آلاف من السنين، والبونية عربية الأصل وقد سبقت لغة القرآن والفتح الإسلامي بالمغرب وكيفت كثيراً من المعطيات اللغوية لا سيما وأن الفينيقيين الشاميين أسسوا في المغرب الأقصى عاصمة هي تشمش أو ليكس Liks قرب العرائش منذ عام ١١٠٠ قبل الميلاد أي قبل تأسيس قرطاجنة بثلاثة قرون (٨١٤ قبل الميلاد).

وهنالك مئات الكلمات التركية اندرجت في عامية سوريا ولبنان طوال أربعة قرون من الحكم التركي فأبعدت كثيراً من المقومات اللغوية عن عراقتها العربية وقد دخل عدد قليل منها إلى المغرب منذ نفس التاريخ تقريباً أي في عهد السعديين الذين كان لهم ارتباط بالباب العالي لا سيما في الميدان الحضاري

---

(١٥) اللغة العامية المغربية لا تختلف عن اللغات السامية الأخرى في البلاد العربية إذ لم يعقها عن الاتصال بالفصحى إلا ما فيها أحياناً من «الحرفشة» على حد تعبير ابن خلدوان أووقف وعدم إعراب.

(١٦) صدر بحث في الجزء الأول من مجلة «اللسان العربي» التي يصدرها المكتب الدائم للتعريب حول تفصيح العاميات في العالم العربي مع حلقة أولى لمقارنة العامية المغربية بالعامية الشامية وفي الجزء الثاني دراسة حول الألفاظ المشتركة مع مصر وفي العدد الخامس مع الخليج العربي.

(الحياة والجيش والملاحة والإدارة الخ) ومن مظاهر الوحدة بين لهجات المغرب وسوريا ولبنان:

(١) سقوط الهمزة الابتدائية في الأفعال مثل أرم (رم) وأضرب (ضرب) وانتقل (نتقل) واستعمل (ستعمل) وأعان (عان) وأطاع (طاع) وأفاق (فاق).

وكذلك الهمزة في وسط الكلمة وآخرها مثل رأس(راس) وبئر (بير) ومؤنة (مونة) وبريء (بري) وضوء (ضو) ووضوء (وضو) ودفيء (دفي) وملآن (مليان) ومروءة (مروة) وخطيئة (خطية) وقراءة (قراية) ومصائب (مصايب).

(٢) إضافة ياء في مثل دواة (دوايا).

(٣) إسقاط تاء التأنيث مكتبة (مكتبه) وتحول الثاء إلى تاء (توروتمانية) وكذلك الذال إلى دال (داب) ونيابة السين عن الشين أو العكس (ويلاحظ) في الشام تأثير الآرامية وإبدال الظاء ضاداً (ظهر - ضهر أو القاف همزة عند أكثر أهالي لبنان وسوريا (وهذه في المغرب نتيجة آفة لسانية بالنسبة إلى القاف والكاف معاً).

والواو المتطرفة تنقلب إلى ضمة بعد حرف ساكن في اللهجتين مثل دلو (دْلَو) مع فارق بسيط هو إسكان الحرف الأول في العامية المغربية.

وتتحول الواو الساكنة بعد فتحة إلى حرف مثل تُوفيق (بضم التاء) بدل توفيق، كما تتحول الواو في مضارع الأفعال الثلاثية المنتهي ماضيها بألف طويلة إلى ألف وياء عند عامة المغرب وسوريا: بْيِسخا (يسخو) بْيِدعو (يدعو) مع انعدام الباء في اللهجة المغربية. ويظهر أن وجودها في بعض اللهجات الشرقية راجع لنحت كلمة ييسخا مثلا من بدأ يسخو.

كما أن الياء المتطرفة تنقلب في اللفظ إلى كسرة بعد حرف ساكن مثل

مشي تلفظ مش مع تسكين الحرف الأول في المغرب وزيادة لام التعريف فيقال لمش (ولبنى الخ).

والياء المتطرفة يزول تشديدها في اللهجتين غَنيّ (غَنيْ).

★ ★ ★

يتضح من المقارنة بين مظاهر الوحدة ومظاهر الاختلاف أن التجانس بين اللهجتين أغلب وأن مجالي الاختلاف تمس إحدى اثنتين إما انسياق مع مقتضيات التسهيل المرسومة باللون الإقليمي، أو تأثر بلهجة قبلية أصيلة كالتلتلة عند أهل بهراء وهي كسُر ياء المضارعة أو تحول الثاء إلى سين (نحو دعثه ودعسه إذا وطئه والحثالة والحسالة) أو إبدال الدال زايا (مثل توكد بأمر كذا وتوكز أي قام واستعد) وتعاقب الضاد والظاء كالبظر والبضر والظهر والضهر أو وقوعها مكان الزاي (زغد - وخقد أي عصر حلقه) وهي لغة عربية أصيلة لا مجال فيها للتأثير التركي كما يظن صاحب «غرائب اللهجة اللبنانية السورية» كما أن تعاقب الغين والجيم (الممجط والممغط أي المسترخي في طول) ليست حتماً من الآثار الآرامية بل هي من مظاهر التعاقب في اللغة العربية.

وتشترك اللهجتان أيضاً في كثير من النعوت كفعلان (تعبان وحفيان لحافي الرجل وخيفان أو خوفان للخائف وعجزان للعاجز وغلطان للغالط) وفعلاني (حمراني وبراني وتحتاني وفوقاني ووحداني ووسطاني) بينما تنفرد العامية في سوريا ولبنان باللواحق التركية مثل جي (بستانجي وبوسطجي وتلغرافجي، وهذه الصيغة نادرة جداً في العامية المغربية وألفاظها معدودة مثل قهوجي وطبجي وصابونجي وهي اسم عائلة في سلا. أوْ لي (جزائرلي) أو الفارسية مثل خانة (حبسخانة أي سجن ورصدخانة أي مرصد وميخانة أي حانة) (١٨).

---

(١٨) يوجد لفظ «ميخانة» في اللسان المغربي، وهو اسم حي بعاصمة الرباط، ولعل ذلك راجع لوجود حانة قديمة في هذا الحي.

وتكثر في اللهجتين.

١ ـ الصيغة السماعية في أفعل التفضيل مثل أكمل وأحب وأزيد وأغنى وأخبث وأعرف وألذ وأطيب وأنذل).

٢ ـ الكنى (بودراع صاحب الذراع وبوكبوط صاحب الرداء).

٣ ـ النحت (مطيبو أي ما أطيبه وملدو أي ما ألذه ومحلاه أي ما أحلاه ومَشَرّو أي ما أشد شره وإيش أي: أي شيء، وبشويش أي على مهل وبعدين أي بعد آن وبلاش أي بلا شيء، ورسمال أي رأس مال، وشقداي أي شيء قدر ذلك، وشنو لأي شيء هو، وعقبالك أي العقبى لك، وعمنول أو عملول أي العام الأول وهو الفارط، وفيسع أي فوراً أصلها في الساعة، وفين أصلها فأين، وقديش أي بقدر أي شيء، وليش أي لأي شيء، وماش أي ما هو شيئاً وما شلّه أي ماشاء الله، ومش كبير: أي ما هو شيئاً كبيراً، ومشانك أي لأجلك أصلها من شأنك ومعليش أي لا بأس بذلك أصلها ما عليه شيء ومنين أي من أين وناسملاح أي ناس مِلاح، وولا أي وإلا، وويلي أي ويل لي. ووين أصلها وأين ـ ويله أصلها يالله أي ائت معي، ويلَ أي يا أيها الذي أصلها وأين ـ ويله أصلها يا لله أي ائت معي، ويلي أي يا أيها الذي أصلها يا الذي).

٤ ـ الإتباع: يقوم الإتباع القياسي في سوريا ولبنان على تحويل أول حرف من الكلمة الأولى إلى ميم في الثانية اقتباساً من التركية مثل « لا كتاب عندي ولا متاب » أما الاتباع السماعي فهو منوع يتفق في الكثير من المغرب. فالإتباع القياسي في المغرب مقتبس من إتباع الفصحى مثل: حيص بيص ـ الجوع والنوع ـ الكوع والبوع اللتي واللتيا ـ حس بس ـ الشخير والنخير ـ شحيح نحيح. ومثل حاضر ناضر (رجل يرى كل شيء) وحلاس ملاس (متملق مفرط المجاملة) ويستعمل في المغرب الفعل خاصة، حلس ملس. شهي بهي (جميل جداً) وكاني ماني (أي كان هذا وكان ذاك) وفي العامية المغربية: كيني ميني.

وتتقارب إتباعات أخرى في اللهجتين إما من حيث الشكل أو المعنى مثل: حزمز (في المغرب. تقول وصل فلان إلى حزمز أي إلى نقطة التحول الحاسمة) وحزيز (في الشام ويفيد الذهاب والمجيء المتواصلين) وحربش بربش أو (حربوش بربوش للتحدي في المغرب وسوريا ولبنان) وخلط وبلط (بدل خلط جلط في المغرب أي اختلاط عادم الترتيب) وشري مري (في الشام بمعنى زيارات مفرطة التوارد مقابل خرّي طرّي في المغرب لنفس المدلول) وشلع بلع في الشام مقابل (شرح ملح) وكلاهما يفيد الكلام البذيء أو الصريح جداً.

٥ ـ حكاية الأصوات: التقارب فيها طبيعي مثل طن طن (صوت الجرس) وطق (الانفجار بضجة) وطراق طراق (صوت الضرب) وقرت المعدة (قرقرت في المغرب أي صاتت).

٦ ـ وحدة التعبير في مئات الكلمات وقد ساق الأب رفائيل في كتابه (غرائب اللهجة اللبنانية السورية) تسعة وستين اسماً يحتوي كلمة عين يتفق مدلول الكثير مع معنى اللفظ المغربي مثل:

يا عيني (يا عزيزي) ـ ما يملا العين (لا يشبع رغبات صاحبه) وعينو شبعانة (قنوع) وعينو مفتوحة (حاذق) وعلى الرأس والعين ونزل من عيني (سقط) ووقعت العين على العين وعيني فيه وتفه عليه (عيني فيه ما قديت عليه في المغرب وهي تقال لمن يشتهي شيئاً ويتظاهر باحتقاره) وعين الشمس (قرصها) وعلى عينك يا تاجر (يقال في المغرب: على عينك يا بن عدي لمن يعمل جهاراً عملاً قبيحاً) وذهب عين (ذهب خالص) والعين بصيرة واليد قصيرة.

★ ★ ★

أما الألفاظ المشتركة بين مصر والمغرب الأقصى فقد أحصينا منها بضع مئات نذكر منها أيس بدل يئس وباسل بمعنى ثقيل وبتاعه أي في ملكه وبسبس (دعوة الهر إلى الطعام وغيره) والبصارة والبعصوص والبغل (بمعنى

الغبي)[١٩] وبهدله أي احتقره[٢٠] ومالح الرقبة[٢١] (أي كسلان) وهبهب الكلب.[٢٢].

والتوافق ملحوظ في اللهجة العامية مثلاً بين القاهرة والرباط عدا خلاف بسيط في الشكل مثل بات وباح يبات ويبوح بكسر فاء المضارع في القاهرة وبتسكينه في الرباط وقد نشرت مجلة «مجمع اللغة العربية» (ج ٧ ص ٣١٩) تسعاً وخمسين كلمة بصدد دراستها للهجة القاهرية لاحظنا من بينها خمساً وثلاثين لفظة مشتركة في المادة عدا الخلاف الشكلي المذكور) ومن أمثلة ذلك بخس يبخس، بكسر الخاء في القاهرة وفتحها بالرباط، وبدأ يبدي (ق) ويبدأ (ر) وبدر يبدر وبرق يبرق وبرم يبرم وبشر يبشر بضم عين الكلمة (ق) بدل فتحها (ر) وبطأ يبطىء بكسر الطاء (ق) وفتحها (ر) وبل (ق) عوض بلل (ر) يضاف إلى ذلك تباين خفيف في النطق (ترقيقا وتفخيما وإمالة الخ) مع المؤثرات اللغوية الخاصة كالتركية على نسق التأثير السرياني والنبطي في الشام.

وما قلناه في مصر والشام نقوله فى إمارات الخليج العربي وحتى اليمن حيث استوطن الفينيقيون سواحل الخليج وخاصة البحرين والقطيف بينما هاجر حميريون إلى أفريقيا الشمالية والمغرب الأقصى، ويوجد عديد من الكلمات المشتركة في العاميتين الكويتية والمغربية مثلاً تدل على عراقة اللهجتين في العروبة[٢٣].

---

(١٩) قاموس العادات الخ لأحمد أمين.

(٢٠) وردت في «لطائف المتن» للشعراني (ج ١ ص ١٧٥) وهو من رجال القرن العاشر.

(٢١) اللطائف (ج ٢ ص ١٢٥).

(٢٢) «لواقح الأنوار القدسية» بهامش اللطائف ج ٢ ص ١١٩).

(٢٣) العامية: ذكر الحميدي في «جذوة المقتبس» (طبعة ١٩٥٢ ص ٢٩١) لدى ترجمة ابن حزم أن مما سبق إليه كتاب التقريب لحد المنطق والمدخل إليه بالالفاظ العامية والأمثلة الفقهية فإنه سلك في بيانه وازالة سوء الظن عنه وتكذيب المخرقين به، طريقةً لم يسلكها أحد قبله فيما علمناه. =

فعناصر الوحدة كثيرة بين العاميات العربية وقد حاولنا ضمن سلسلة من الدراسات تفصيحها وتوصلنا إلى نتائج تلقينا يومها من عميد الأدب العربي الأستاذ الكبير الدكتور طه حسين رئيس مجمع اللغة العربية بالقاهرة رسالة رقيقة يشجعنا فيها على ما شرعنا فيه من تأليف كتاب حول أصول اللهجة المغربية ومقارنتها ببعض اللهجات الشرقية، قائلاً: «ما أحوج المكتبة العربية والدراسات اللغوية إلى هذا التأليف». كما أكد لنا الأستاذ أمين الخولي بهذا الصدد «أن تفصيح العامية وتقريبها بين الدول العربية هو أنجح الأعمال في إحياء الفصحى ونصرها في صراعها مع العامية».

وهكذا نرى أن مقومات الوحدة الفكرية بين الدول العربية لا تكمن في توحيد مصطلحات الفصحى في الحقل العلمي وتبسيطها في المجال الحضاري فحسب بل أيضاً في تفصيح العاميات تحقيقاً للتقارب بين الجماهير في الوطن العربي.

= وقد نشر الدكتور إحسان عباس هذا الكتاب (دار مكتبة الحياة بيروت ١٩٥) وعلقت عليه صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد (م ٦ عدد ١ ـ ٢) فلاحظت أنه لا يوجد في الكتاب شيء من الألفاظ العامية التي قررها ابن حزم في العنوان عدا أشياء لا تكاد تغني في هذا الباب «وربما كان هذا في ذاته مفيدا في تعريفنا بمفهوم الألفاظ العامية عند ابن حزم فربما أراد بها العبارات المبسطة والأمثلة المنتزعة من واقع الحياة.

الملاحق

١ ـ الحفرية القرطاجنية.

٢ ـ حول المصطلحات الأندلسية.

٣ ـ الحِرف بمراكش.

٤ ـ أسماء الحرف والمؤسسات الإجتماعية بفاس.

٥ ـ الخطوط العربية المغربية.

الحفرية القرطاجنية التي وجدت في البرازيل

الجملة الفينيقية	مقابلها بالعامي العربي في شمال أفريقيا	مقابلها بالعربي
هنا احنا بني كنعان فرنم حقرة حمل	هنا احنا بني كنعان من فرانم حملنا الحقرة	هنا نحن بني كنعان من فرانم تحملنا الاحتقار
اوش حر حصل هك	موش حرام نحصلوا هكا؟	أليس حراماً أن نحصل هكذا؟
لاعنا ازيد حبا قتار	ما نزدادش الحيات عندنا اكثر	لا تزيد الحياة عندنا أكثر
في حيرم أناس تابحر	في الهم الناس متاع البحر	ان ناس البحر في الهم
العلى كلوم	الحزن كلاهم	الحزن أكلهم
او علي كان ترسنا تاسعة أو عشرة	والحزن كاين ترى السنا تسعة أو عشرة	والحزن كائن وهذه السنة هي التاسعة أو العاشرة
الحرامي ملك هنا عبيد ولاح اوم	الملك الحرامي هنا لوح عبيد ولاش ماهوش معاهم	الملك الحرامي هنا رمى بعبيده لماذا ليس هو معهم
عفوا لى دبر بهم شاجا اول الشع	اعرفوا اللي دبر بهم باش جا اول الشرع	اعرفوا انه دبر بهم لكي توصل إلى أول مناصب القضاء
عما هنا هي تاعسرة كى الحى حبى ما هي حر	الحما هنا عسيرة كيف الحي يحب الماء يلقاه حار	الحمى هنا عسرة فإذا أحب الحي ماء وجده حارا
اوستم سلم اش برنار فينا	ولو كان هذابرك نصبر ولكن‌اش هاالبر النار تشعل فينا	لو كان هذا فقط لصبرنا لكن ما هذا البر؟ النار تشعل فينا
حامي او البر هنا ما غير بعل أولى ان	حامي البر هنا ما غير بعل هو اللي عان	البر هنا حام وما غير بعل هو الذي أعاننا
حتى خبر اللون	حتى خبر الهون	لا يصلنا أي خبر إلى هنا
راحلهم سنام عشرة ما تم	راحلتهم السنا مع عشرة ماتو	رحلت عنهم السنة ومعها عشرة ماتوا
كسنا ست ناس مبايح راناسوا	بقينا ستا ناس مبيوعين رانا نعسو	بقينا ستة أناس مباعين نقوم بالعسة
كي مات عصب عبد هبلت أي عليه	كيف مات عصط العباد هبلت عليه	لما مات السبط أصاب العباد الاختبال عليه
او لو عالي كانت ايا حنانة	قتل الحزن كانت موته حنانة عليه	قتله الحزن لكن موته كان حنانا إلهياً عليه

جدول حروف "تفناغ"

فينيقي	شكل	نطق
𐤀	○	أَ
𐤁	⊟	بب
𐤂	⌶	بز
𐤃	⊓ = ∧	بد
𐤄	⋮	به فينيقي
𐤅	⋰	بو
𐤆	#	
𐤇		بت
𐤈	⊟ = ⊟	
𐤉	(ط = ت)	بى
𐤊	⊕	بك
𐤋	⋊	بل
𐤌	⋊ = ⋊	بم
𐤍	⊐	بن
𐤎	⊡	بس
𐤏	⊡	بف
𐤐	][	صود
𐤑	⋰⋰	بق
𐤒	▭	بر

تفناغ

- بَشْ
- + بيت
- : بَغ (لاتوجد الحاء)

ع = لاوجود لها في تفناغ وهي ○ في الفينيقية

غ لاوجود لها في الفينيقي

حول مصطلحات أندلسية

تخص البلاط والإدارة
والقضاء والأمن والحِرف والفِلاحة
في القرن الثالث الهجري

ضمن هذا البحث لائحة عن العادات والمفردات التي وجد الكثير منها طريقاً منذ هذا التاريخ إلى المغرب الأقصى، وهي:

١ - الإدارة والبلاط والاقتصاد:

(ويلاحظ هنا أن الاختصاصات متداخلة نظراً لعدم فصل السلطات في ذلك العصر لهذا ترد بعض المفردات في غير محلها بالنسبة للنظام الحديث).

إمارة المؤمنين (أول من سمي أميراً للمؤمنين عبد الرحمن الثالث عام ٣١٦ هـ) = السفارات (توارد السفارات على مدينة الزهراء) = المجالس الخاصة للملك (مقابل مجالس المشورة حيث كانت تتلى قصائد المديح ويجرى الحديث بين الخصوص باللغة الأسبانية بدل اللغة العربية = الموالي الصقالبة (العبيد بالمغرب منذ عهد السعديين، والخدم حيث يقصد بالخادم الأمَة) = المماليك أو الجسم (المماليك الخرص كان عددهم ٥٠٠٠ لا يعرفون العربية)

الحرم (أي نساء البلاط وعددهن ستة آلاف وثلاثمائة في عهد الناصر) = صاحب المطبخ = صاحب البنيان = صاحب الخيل = صاحب البرود = المعروف (أي العطاء كما في الشرق، للشعراء وغيرهم) وتسمى أيضاً الصلة او المواساة = (الرقاص) = صاحب الصاغة = دار الصناعة (عرفت بالقيروان منذ القرن الأول الهجري وبالمغرب في عهد المرينيين).

صاحب البيارزة (للصيد) = صاحب الطراز لصنع الخلع = صاحب السيف = خزانة السلاح = القهرمان = البيعة = ولاية العهد = باب السدة (السدة العالية بالمغرب) = أم ولد = مؤدب حجلية الأولاد = الخطة = الحاجب = النائب (بدل الكاهية في الشرق) = الولاية (أي التعيين) = السجلات (توجه للكتابة للختم عليها) = العمال (أي الولاة).

خدم الخلافة = كاتب الرسائل = صاحب الأسجال الخراجية = الكتابة الخاصة للملك = التنفيذ = التوقيعات (الظهائر والمراسيم = أهل المراتب السلطانية (أي الموظفون العموميون = الجامع (أي المسجد الأعظم) = بيت المال (في جامع قرطبة) = خزانة المال في القصر الخليفي = خزانة الأسلحة = الصدقات والأعشار = الخراجات والجبايات.

الضمانات (أي حصائل استغلال بعض الحقوق العمومية) = الأموال المرسومة على المراكب الواردة والصادرة = الرسوم على بيوع الأسواق = المستخلص؛ أي العقارات الخليفية الخاصة (مثل العزيب بالمغرب) = صاحب القطوع المسؤول عن الجبايات التي كان بعضها يرد من إمارات شمال المغرب التابعة للأندلس وهو أمير الجباية كما في ذخيرة ابن بسام وهو اشبه بديوان المقاطعات عند العباسيين).

المكوس (تسمى مغارم ووظائف وقبالات يتقاضاها المتقبل) = المشرف أو الأمين (أمناء المالية في المدن والمراسي كما في المغرب) = النازلة (حق النزول ضيوف الخليفة من الجند وغيرهم) = دار السكة = صاحب السكة = مدير النقود = أصحاب العرض = الديوان (أي سجل اجرة الجند) = صاحب الضياع (المشرف على أملاك السلطان).

المناصف (راعي أملاك الخليفة الذي يتقاضى نصف الريع) = غلة الضياع (كان ريعها يصرف على ضعفاء قرطبة في عهد الحكم الثاني) = خزانة الطب والحكمة (الصيدلة الملكية).

(ب) القضاء والشرطة والمالية:

= الفقه المالكي = ديوان الأحكام الكبرى (مجموعة الفتاوى المحررة في قرطبة وهي لأبي الإصبع بن سهل، واستعمل المغرب أخيراً كلمة مدونة اقتباساً من مدونة سحنون بالقيروان) = قاضي الجماعة (كان يُسَمَّى قاضي الجند أول الأمر، وهو رئيس قضاة المملكة وأصبح يسمى الوزير القاضي في آخر الدولة الأموية حيث أصبحت له رتبة وزير، وهو المعروف بقاضي القضاة في القاهرة ودمشق وقد شغل هذا المنصب المنصور ابن أبي عامر، بصفته مختصاً بشؤون أفريقيا الشمالية وقد عرف بالمغرب خاصة في فاس ومراكش وهو لا يمتاز على غيره من القضاة عدا كونه صاحب شورى الملك، وكان يرأس في الأندلس مجلس فقهاء الشورى أي أصحاب الرأي) وللقاضي نائب، أما الحاكم فهو نائب القاضي في الشؤون العادية.

المسدد هو قاضي القرية؛ له اختصاص محدود (وقد عرف بالمغرب منذ الاستقلال أي عام ١٩٥٦ باسم قاضي السداد) = صاحب الصلاة (يكون هو قاضي الجماعة أحياناً) = الوصايا = الأحباس والأوقاف = التحجير = الوكيل = توقيع الشهادات = العدول = المقصورة = صاحب المواريث، والمواريث الحشرية (التي لا وارث لها) = قاضي العسكر (أحياناً كما في المشرق) = وكيل الغرباء أو أبو المواريث (وكيل الغياب أو أبو المواريث بالمغرب) = المحتسب (أو صاحب السوق) = صاحب الشرطة = صاحب المدينة (أو صاحب الليل، وهو يشبه ما عرف ببعض حواضر المغرب بقائد الدور أي حارس الليل، وقد وحدت الخطتان في شخص صاحب الشرطة ووالي المدينة أو الوالي وهو قائد المدينة بالمغرب وكان يسمى أحياناً في تونس بالحاكم وفي الأندلس بالحاكم وحاكم المدينة أو متقلد المدينة ويعين الوالي أحياناً قائد عسكري = صاحب الرد

(رئيس قسم الشكايات بالقصر الملكي؛ تقدم إليه الشكاوى ضد أحكام القضاة وهو أشبه بكاتب الاستئناف وهو مثل وزير الشكايات بالمغرب في عهد الملوك العلويين) = صاحب المظالم (ضد كبار المسؤولين المتهمين بظلم الرعية، وهو في الشؤون المدنية مثل صاحب الرد في القضايا الشرعية) = مواريث الخاصة (أي الارستقراطيين) = التعقب والمحاسبة = القطاع بالناض والطعام (أي إدارة الجبايات النقدية وجبايات العروض) = الخزانة للقبض والنفقة = الهراية في القبض والدفع = الوثائق ورفع المظالم = الكور المجندة = الجند المتدوّن (أي المسجل في الديوان) = الأجناد المرتزقة = الاستنفار = ضريبة البعوث (اي التجنيد الاجباري) = تعويضات يتامى الحرب = المطوعة = أهل الرباط (وهم المجاهدون المرابطون، وقد تطورت هذه الفئة من الجند خاصة في عهد الدولة المرابطية التي امتد نفوذها إلى افريقية والأندلس والصحراء = قائد الراية؛ قائد الألف (له عَلَم والألف يقسم إلى خمسة أفواج في كل منها مائتان على رأسها نقيب له لواء) = فحص السرادق (مكان يخيم فيه الملك قرب العاصمة وتقام فيه حفلة البروز لتوديع البعوث وعقد الألوية = قائد الأساطيل (لكل سفينة قائد مع ضابط آخر يسمى الرايس يدير دفة السفينة (مثل المغرب) = قائد البحر هو الأميرال أو أمير البحر.

(جـ) الفلاحة:

كان معظم الفلاحين بالأندلس من بربر المغرب الأقصى لأن أهل إفريقية والأندلس لم يكونوا يهتمون بالفلاحة.

بنو الأخماس هم عمار ضياع الخليفة (الخماس بالمغرب يأخذ خمس الغلة بينما كان يأخذ في الأندلس النصف فيسمى المناصف، أو أربعة أخماس، ويسمى أيضاً الشريك = الميار أو الجلاب (سمسار لتمويل الحواضر بالمحاصيل وهو الجلاب بالمغرب) = القفيز (٦٠ رطلاً) = الربع (١٨ رطلاً) = الفنيقة: (نصف قفيز) = الأرجاء (المطاحن والأرحية بالمغرب).

وكالة الساقية (مراقبة السقي) = الكتان = القطن (كان يصدر إلى سجلماسة) = دودة القز (نقلها الأندلسيون إلى فاس وفازاز بالأطلس نظراً لوفرة أشجار التوت) = مهرجان (لفظ فارسي معناه عيد موسمي كالعنصرة التي تقع يوم ٢٤ يونية (حزيران)، ويطلق المهرجان في المغرب على الحفل الصاخب.

(دخول العادات الأندلسية الفلاحية إلى المغرب، وكذلك أسماء الأزهار كالحبق والخزامة؛ التي سميت بها مدينة الحسيمة أو المزمة؛ والياسمين والظلفة؛ والصبار؛ والريحان والزهر؛ أي نور البرتقال = والرياض (أي حدائق الأزهار) = الفنادق (عددها ٩٧٠ مسجلة في الجباية) = الزليج = عريف او أمين (أي رئيس أهل الحرف أو التجار) = تربيعة (ساحة مربعة فيها دكاكين وقد أدخلها المغاربة إلى مصر كما في كتابنا (حول الأصول العربية للدارجة المغربية) = قيسارية (فيها طبقات هي عبارة عن فندق أو خان كما هو الحال بفاس ومراكش والرباط وغيرهما من مدن المغرب).

(د) الحرف:

عجان = رفاد (طراح بالمغرب وتسمى الطاقية التي يضعها على رأسه لتوقي ثقل لوحة الخبز بالرفادة = وقاف (أي طراح) = خباز = جزار = شواء = طباخ = قلاء = سفاج = مرقاص (شواء الأمعاء المحشوة) = قراق (صانع النعال التي يتخذ أسفلها من الفلين) = قطان = قصار = طراز = حشاء = قلاس (صانع القلنسوات) صباغ = رفاء = خراز = صيدلاني = عطار = رقاق (بائع الرق أي الورق) = كغاد (بائع الكاغد) = حلفاوي (بائع الحلفاء السبيب النباتي) = وزان = قاص = بناء = فخار = زجاج = صفار = حداد = نجار = دلال = جلاس؛ رئيس الدلالة وأطلق بالمغرب على القابض في الحمامات = الرغة (البلغة بالمغرب) الطوب = الستارة (الحائط الخارجي) = الطابق (الطابيقي بالمغرب) = القنطرة = دار الضرب (بقرضبة).

(هـ) مرافق المدينة:

ريض ـ خندق ـ باب الحديد ـ باب القنطرة ـ باب العطارين ـ باب الوادي ـ باب الجنان ـ المحجة العظمى (الشارع) ـ باب طليطلة (باب مراكش بالمغرب مثلاً) ـ باب اليهود ـ المصاري (الغرفة) ـ المسجد (الجامع) ـ السقيفة (للنساء أيام هشام الأول) ـ الساباط، (ممر مغطى السقف ولعل منه سوق السباط حيث تباع الأحذية ويُغطى سقفه بالسعف أو القصب) ويمكن أن يكون من السماط كسماط العدول بفاس وسماط القيروان وهو أعظم شوارعها كان طوله كيلو مترين اثنين يحتوي على جميع المتاجر، أمر بترتيبه هشام بن عبد الملك (سباط العقيق لحسن حسني عبد الوهاب ص ٥) ـ محراب منبر ـ ميضاءة (مرحاض) ـ رصيف ـ فوارة ـ قصر السرور ـ قصر الخير ـ الزاهر المبارك. وقد دخلت هذه التسميات خاصة في عهد المرابطين بعاصمة الحمراء أي مراكش حيث عرفت المسرة ثم في عهد العلويين.

الحرف بمراكش

أقايمي - آلي - بامهاود (حكم للمهاودة) - بداد (أندلس. رئيس معصرة الزيت) - براح - بوادعيَ بكار - تبان - بُعْدي (حذاء بدوي) - تكموتي (صائغ بربري) - تيال (من التركية) - تل (أي سلك معدني. تال بالدارجة) - جلاد - زوالقي (الزالوق: وهو الحديد المقصدر Fer-blanc).

جواي: (صانع الجوا: أي الغمد) - حجار - حرار - حراث - حرقاصة امرأة تزين وجه العروس بالحرقوص وهو دهن أسود - حشاش (من يحش العشب ويبيعه لأصحاب البهائم) - حَلْوي - حمّار (مكاري للبهائم) حمايمي (بائع الحمام) - حناط (بائع القموح من العرب، الحنطة) - خراط - خرَارْفي (لعله في الأصل بائع فواكه الخريف ثم صار كالبقال - خطاطري (حافر الخطارات أي السواقي الصحراوية).

خلاع (صانع الخليع) وهو اللحم المقدد المطبوخ - خماس - (رباع) خياط الملف (يهودي) دلايوي (صانع الدلاء) دقاق (للكفة) روابزي الرابوز هو الكبير والروابزي هو صانع الأكيار.. رباع (أي بستاني) جناييي (من يشتري الفواكه في الأشجار) - دنادني: موسيقار (الدندنة هي الموسيقى) - رحوي (صاحب طاحونة هوائية) - طاحوني (صاحب طاحونة تدور بالبهيمة) - رخايمي - رقايقي (نجار فنان) - ركال (من يغسل الثياب بالأرجل ومثله ستاف) - رواس - جبار (للأشجار) - (زرزاية (أو نقال) - زنانيدي (صانع زند السلاح) - زيات - زواق - رقاع - سرايري (صانع خشب البنادق) سوس (من يحرك شجر الزيتون

ليسقط الحب) سراج - شكايري - شماع - شواف (عراف) - نيال (صانع المناول في المنسج) مواكيني (صانع المنجنات او المكنات) نحال نشار (صاحب المنشار) نفار (الضارب على النفير) نقاش (صائغ) أو دكاك - صوابني (صانع الصابون البلدي) - سراربي (من يفرغ مطامير الخلاء وهي السرب) - سفاط (صانع السلل) سواق (وهو الحمّار - دصاص (حصاص) طبجي - طبايلي (صانع صواني النحاس الأصفر) - طراح (مساعد الخباز) - طَرّا (الضارب على الطر في الجوق الموسيقي) طرشانة (صانعة الطراشي وهي الدانتلا) والشرائط المذهبة (رومانية) عبار - عشاب - علام (رئيس العلم والخيالة) - عواد (صانع المحاريث) أو ضارب على العود - عيار: مراقب الصاغة والنقود - غواسلي (بائع الغاسول) - فرناتشي (من الرومانية Fourunaise - Fornache وهو فرن الحمام) - فلافلي - فنادقي - فوال - قباب (عواد؛ أي نجار يصلح أسطال الحمام) - قوادسي - قراشلي - (صانع القرشال وهو المحلج) قرادي - قشاشبي (خياط) - قشار (ينقش جلد المخدات والأكياس) قشاش (بائع الفاكهة) قطاب (حمار يضرب بالقضيب) قطارني (بائع القطران) قلاي - كراب (حامل القربة ضرابة الودع أو كزانة (عوّافة) من اللفظ القبائلي (كزن) أي وزن؛ أو من (زكن) أي تنبأ كنابري (الكنبري عود صغير شعبي يضرب عليه) - كراعي (بائع الأكارع) كساب (مربي البهائم) كماخ (صانع خشب السروج من التركية كيموخت) كويحي (بائع الكواح: شحمة وكبد) كواي (من يكوي) لباد - لباط (يغسل الصوف للغزل) - لواح (بناء الطابية يصنعها داخل اللوح) - مرامية (مرمة نول النساج) مراي - (خراط السبح والكنابر) - مسبب (من يبيع الشيء من جديد) - مجادلي - مشايطي - إسكافي (صانع بلاغي المصيكة التي طرفها مربع) - مضامي (صانع المناطق: الضمة المنطقة تضم أو تشد على الخصر) - مصافري أي مسايف.

أسماء الحرف والمؤسسات الاجتماعية والاقتصادية وغيرها بفاس

المخزنية (رئيسهم شاوش) - المحكمة - قاضي القضاة (بفاس يشمل اختصاصه مجموع المغرب ويعين القضاة ويرأس جامعة القرويين والأحباس) العدول (٣٠٠ بفاس) ٨٠ دكان بالسماط في عهد الوزان واثنان في الدكان لهم خنفوشة (إمضاء) - مقصورة - نائب القاضي - مقدم الحومة له خليفة تحته عسس (منذ مولاي عبد العزيز) - روضة (مقبرة) - بقال - (خضائري) بياع الخضرة) - دار معلمة - قنوات الماء (قوادسية) - قائد المائة - شيوخ الفلاحة (خبراء مزارعون) قراب - زرزاية - متعلم - معلم - كياسة (في الحمام) - مول النظافة (منظف) مطهرة - الرماة - من بين رجال الحرف؛ للدفاع عن المدينة - دار العميان - بيت المال - فرجومة ضريبة التذكية، أمين المستفاد - قباض (جابي) - ناظر. - مكس - قائد - دار الضيوف - رطل - قامة - شبر - ذراع - قالة - مد - قلة - قنطر - أوقية - ريال - فلوس موزونة - درهم ودينار - قرش - دار السكة - قبال: (سمسار جمركي) المحتسب - الخناطي (١٦٧ حنطة بفاس).

الزلايجية والطلاية - الضامن والعريف - رئيس الحنطة - البقالة - الفحامة - حمالة الزيت - المعلم - الصانع (أي العامل بالنسبة للمصنع

والصاحب بالنسبة للمتجر) ـ حوانتي ـ متعلم ـ أمين الحنطة ـ التويزة (تسخير مجاني) ـ موسم ـ كسوة ـ حرارة ـ مبخرة ـ مقدم ـ (الأضرحة) ـ سوق السباط ـ جلابة ـ الصفاح ـ الطالعة ـ الجوطية.

سوق الإدام أو قاعة الزيت ـ فندق ـ رحية الزبيب ـ فندق النواعريين ـ سوق الإقامة ـ سوق الفراضة ـ سوق الغزل ـ سوق الحايك ـ سوق السلهام ـ سوق النفرة ـ سوق السكاكة ـ الصفارين ـ النجارين ـ المرقطان ـ سوق الفرش (المخدات والحشايا) ـ سوق البالي ـ الطرافين ـ جامع الجنائز ـ سوق الحناء ـ سوق الفخار ـ الزيادات: (المزادات).

الدلال ـ تخلية (خفض من الثمن) ـ حراز ـ دار السلعة ـ قرميل ـ صندوق ـ الجناينية ـ اللباطة ـ الرحوية ـ الطاحوني ـ الطحانين ـ الفرانة ـ الخبازة ـ خبز ـ السوق ـ معصرة الزيت ـ المعاصرية (عمال المعصر) ـ الدقاقون ـ الكبايدية ـ الكفايتية ـ الرواسة (طابخو الرؤوس) ـ قلايون (الحوت) السمك ـ سفّاجة ـ حلوية ـ معلمون كعب الغزال.

مهندسون الموقف ـ (مركز التوظيف) ـ اللواجريين ـ قرمود ـ حصار ـ قادوس ـ جيار ـ نشارة ـ حدادة ـ خراطة ـ بلاجة ـ (صانعو الأقفال) ـ الرخايمية الركازة أو الحصاصة (لتحصيص الطرق) بيارة ـ بناية ـ الطوبياء ـ النجارة ـ الرقايقية ـ زواقة الجبس ـ الزواقة ـ الخياطة ـ المجادلية ـ المضامية ـ طربوس الشاشية ـ المسامرية.

عوادة (بيطريون) ـ قبابة (صناع الأقبار) نياله (صانعو نول الحائك) ـ الشراطة (صانعو الأشرطة ـ حِصَايْرية ـ قصدارية ـ سلالة (سفاطة) ـ دوم الشطاطبية ـ نحايسية ـ صوابنية ـ سراجة ـ لجايمية ـ ركايبية ـ بوادعية ـ شكايرية ـ المطوي (كيس الكيف) بزطام ـ سفار ـ تيالين ـ غرابلية (لصنع جلد الغرابل) ـ زنايدية (لصنع الرصاص)

- والجعايبية (لصنع المسدسات أو جعابها) - والسرايرية (لصنع مقابض البنادق) والجوايين (لصنع مقابض وأغمدة السلاح) - سمارات البهائم - المشاطة - الخرازة - البلايغية - الشرابليين (صانع حذاء نسوي) - دباغة - دلالة - لباطة - زرادخية (صانعو الزردخان) - غزالات - مرامية - قراشلية.

الذهابين - السكاكين - زواق - سوق السباط (أي الحذاء) - سوق الكتب - حوّات - عشاب - عطار - بقال - إيقايمية - خضايرية - لبانة - فخار - دجايجية - براولية - (بائعو خيط الحرير بالتقسيط) - عطارة - سرايجية - قطارنية - سيطريين (بائعو القنب) - سماط العدول - دار السلعة (متجر) حناطة (بائعو الحنطة) - عوادة (بائعو الحطب) - تبانة - سمسار.

الخطوط العربية المغربية

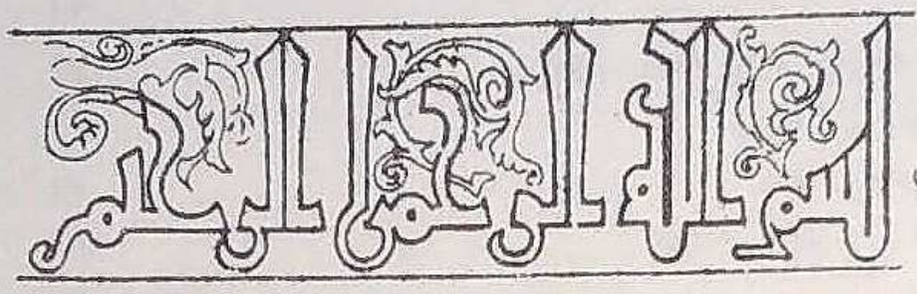

١ ـ الخط
الكوفي المرابطي

٢ ـ الخط
النسخي المرابطي

٣ ـ الخط
الكوفي الفاطمي

٤ ـ الخط
الكوفي الموحدي

٥ ـ الخط
الكوفي المريني

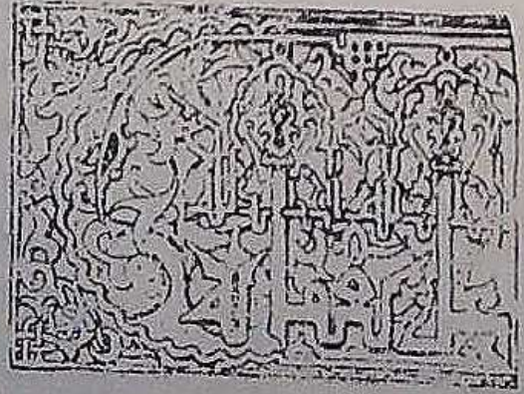

محتويات الكتاب

مقدمة الدار ٧
مقدمة المؤلف ١٣
الاطار السياسي والجغرافي لتطور الفكر واللغة ١٧
قصة دخول العربية إلى المغرب ٢٩
المغرب الحضاري وتطور اللغة ٤٧
تطور الفكر واللغة من خلال الثقافة ٦٩
أ ـ اللغة والأدب ٧١
ب ـ اللغة والدين ١٠٤
ج ـ بعض عوامل تطوير الفكر واللغة ١٢٠
تطور الفكر العلمي ولغة العلماء بالمغرب ١٤٣
العامل الأجنبي في تطور الفكر واللغة ١٧٧
بين الفصحى والعامية ١٩٩

الملاحق: ٢٢٥
٢٢٧
١ ـ الحضرية القرطاجنية
٢ ـ حول المصطلحات الأندلسية
٣ ـ الجزف بمراكش
٤ ـ أسماء الحرف والمؤسسات الأجتماعية بفاس
٥ ـ الخطوط العربية المغربية
حول مصطلحات أندلسية ٢٣١
الإدارة والبلاط والاقتصاد ٢٣٣
القضاء والشرطة والمالية ٢٣٥
الفلاحة ٢٣٧
الحرف ٢٣٨
الحرف بمراكش ٢٣٩
أسماء الحرف والمؤسسات الاجتماعية ٢٤١
الخطوط العربية المغربية ٢٤٥
محتويات الكتاب ٢٤٧

طبع على مطابع فن الطباعة - الشياح - هاتف: ٢٨٩٢٩٧.